اسرائيل
أمة وتاريخها
לא תרצח
לא תנאף
לא תגנב
לא תענה
לא תחמד
לא יהיה לך
לא תשא

اسرائيل

امــَّـة وتـاريخهـا

لواضعه

ا . ن . بولاك

عـربـه

رسـمي بيادسـه

اعـدّه وحرر فصوله الاخيرة

الياهو اغاسي

دار النشر العربي - تل ابيب

ישראל
אומה ותולדותיה

א. נ. פולאק

תרגום : רסמי ביאדסי

עיבוד ועידכון : אליהו אגסי

ברשותה האדיבה של
ההוצאה לאור של משרד הבטחון

طبعة أولى – ١٩٧١

דפוס „דוגמא", יפו, טל. 827970
مطبعة دوكمة – يافا ، تلفون ٨٢٧٩٧٠

تقـديم

يتألف صلب هذا الكتاب من مؤلف عبري وضعه المرحوم البروفسور أ٠ ن٠ بولاك ، ونشرته دائرة النشر التابعة لوزارة الدفاع الاسرائيلية سنة ١٩٥٣ ٠ وقام السيد رسمي بيادسي بترجمة المؤلف المذكور الى العربية ، ثم قام المحرر العام لدار النشر العربي ، السيد الياهو اغاسي ، باعداده بنصه الحاضر ، بما في ذلك من تعديل واختصار واسهاب وزيادة مقاطع وفصول لم تكن موجودة في المؤلف المذكور ، (وعلى الاخص منها الفصول ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩) وذلك باذن من المؤلف نفسه ٠ وبهذا يتحمل المحرر وحده مسؤولية كل ما يوجد من قصور او خطأ في هذا الكتاب ٠

ثم ان دار النشر العربي مدينة بالشكر للمؤلف ولدائرة النشر الآنفي الذكر لمنحهما اياها حق الترجمة والنشر بدون مقابل ٠

الياهـو اغاسـي

دار النشر العربي

الفصل الاول

أمــة في فجــرهــا

تـُعـَلـّمنا التوراة أن ابراهيم خليل الرحمن كان من قبائل الرعاة العبرية التي كانت تتنقّل بالقرب من نهر الفرات وتتردد على مدينة اور الكلدانية (اكتشفت آثارها الهامة في الفرات الاسفل) • لم تكن عشيرة ابراهيم من البداوة على أتمّها بل كانت تتنقل قرب المـدن وتتعـاطى الزراعة ايضا • وقد وصل بها الرحيل آخر ما وصل مدينة حَرّان على نهر الفرات الشمالي •

والغالب ان هذه العشيرة لم تختلف عن سواها من عشائر المنطقة الا بعد ان جاءت ابراهيم الدعوة ، فصار يدعو الى التوحيد ، ثم انتقل بأمر ربه من الفرات الى البلاد التي قاده اليها ربه ، وهي بلاد كنعان •

وتقول الرواية ان ابراهيم في ترحاله قـد حطّ في مدينـة حلب فألفى اهلها جياعا مساكين ، فراح يحلب ماشيته ويسقيهم • وهكذا فعل كل يوم• وكان الناس كل عصر يتساءلون : حلب ابراهيم ؟ حلب ابراهيم ؟ ومن هنا اسم المدينة حلب • وفي قلعة حلب الشهيرة الى يومنا هذا مسجد يقال انه بني على الموضع الذي كان ابراهيم يحلب غنمه فيه •

أجل ، إن الايمان بوحدة الخالق جعل ابراهيم وعشيرته تتميز عن سواها من الناس • ذلك ان الايمان بالخالـق الاوحـد يُبرز للمؤمـن سُمُوّ الخالق عن مستوى الناس ، ويسمـو بالقيم الاخـلاقيـة الى مستوياتها المطلقة : العدل المطلق ، الحق المطلق ، الخير المطلق ، الصدق المطلق الخ •••

اما الايمان بتعدد الآلهة فيهبط بهذه الآلهة الى مستوى الناس ، ويجعلها تتنافس مثلهم ، وتتشاحن وتتحايل وتحسد وتظلم • وهكذا فان دعوة ابراهيم الى التوحيد وضعت الاساس لتكوين مجتمع ذي ثقافة

قائمة على دعائم القيم المطلقة ، وبفضل ذلك أخذت ذرية ابراهيم تتميّز عن سواها بادراكها ان هناك شرائع لازمة أزلية يفرضها الباري تعالى على البريّة ، وهذا ما أولد فيها الحرص على هذه القِيَم والمحافظة على الشرائع والسنن والانكباب على درسها وتخليدها • فمنذ ان عبر ابراهيم الفرات إذن ـ اخذت تتبلور ثقافة الامة الاسرائيلية بما فيها من معتقدات وعادات وسنن وشرائع جعلتها أشبه بجزيرة للتوحيد تحيط بها لجج من الوثنية والاشراك •

أنجب ابراهيم في بلاد كنعان ولديه اسماعيل واسحق ، وانجب اسحق عيسو ويعقوب وانجب يعقوب اثني عشر ولدا هم الاسباط •

وقطع آباء الامة الاسرائيلية بلاد كنعان طولا وعرضا ، فلا يكاد يخلو فيها مكان عن أثر لهم • فقد خيموا في شخيم (نابلس) وبيت ايل ، وأورشليم وبيت لحم وحبرون (الخليل) وبئر شيبع (بئر السبع) حيث حفر رعاة ابراهيم سبعة آبار ، ومن هنا اسمها • ولا يزال الناس حتى يومنا يشيرون الى آثارهم في هذه الاماكن ، كمغارة المخفيلة في حبرون وهي مدفن ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف ، وجبل موريا في أورشليم وقبر راحيل في بيت لحم ، وبئر يعقوب في شخيم ، الخ • الخ •••

الكنعانيون والعبرانيون

كان سكان المدن والقرى التي تنقل بينها آباء الامة الاسرائيلية وقطعانهم ـ كانوا يتكلمون لغات قريبة من اللغة العبرية ومع كونهم في الغالب ساميون (أو شرق أوسطيون) مثلهم ، فقد اختلفوا عن العبرانيين في انسابهم ومعتقداتهم وعاداتهم ، كما اختلفوا في ذلك عن بعضهم بعضا• كانوا يدعون كنعانيين ، ولكن هذا الاسم كان يطلق أحيانا على سكان السهل الساحلي وغور الاردن فقط حيث دعي سكان الجبل بالأموريين • وكانوا ينقسمون الى ممالك صغيرة متخاصمة ، ولا يعتبرون انفسهم ابناء شعب واحد• وكان امثالهم سكان لبنان وسوريا الغربية وقد سموا احيانا كنعانيون ايضا • أما آباء الامة الاسرائيلية فقد اعتبروا انفسهم اقرباء لتلك العشائر الفراتية التي انحدروا عنها والتي كان يعمها اسم العبرانيين ايضا ودليلك على ذلك أن اسحق ويعقوب اخذوا لهم أزواجا من بنات

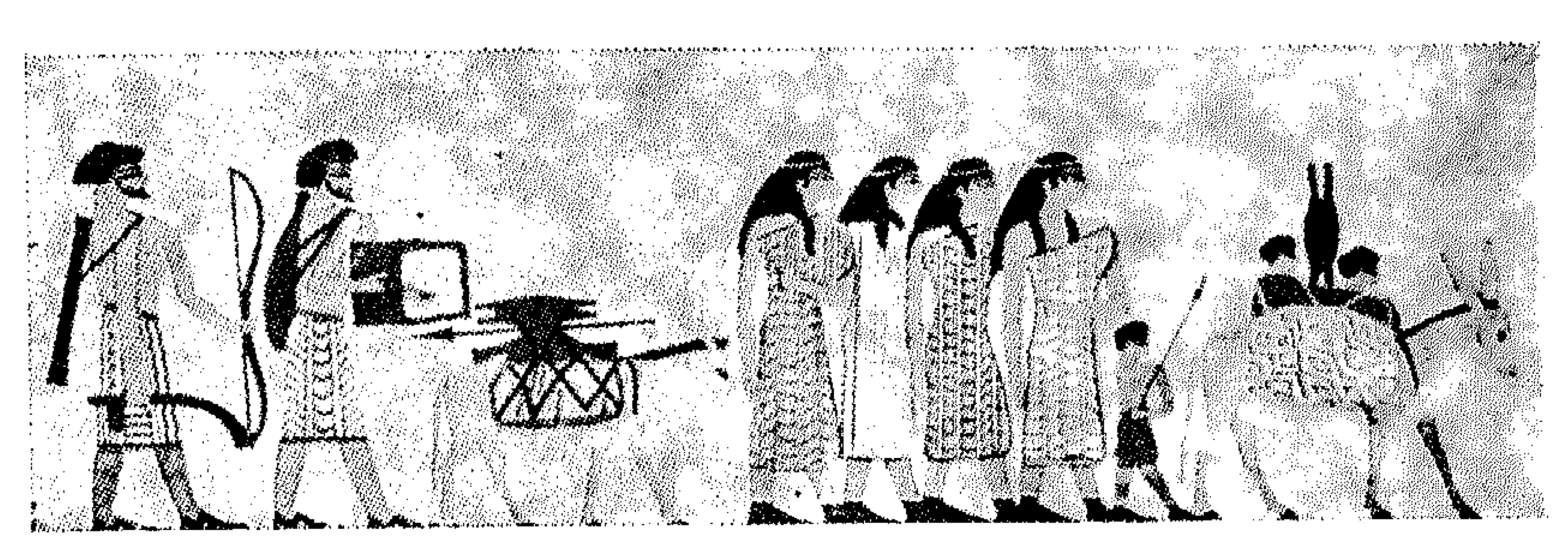


ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال : «بذاتي أقسمت» ، يقول الرب ، «من أجل أنك فعلت هذا الامر ، ولم تضن بابنك وحيدك ، سأباركك مباركة واكثر نسلك تكثيرا ...» (تكوين ٢٢ ، ١٥)

أعمامهم في الفرات . والغالب ان العشائر العبرانية قد انقسمت الى ثلاثة أقسام . قسم بقي في الفرات ، وقسم تبع ابراهيم واسحق ويعقوب الى أرض كنعان واستوطنوها مثلهم ، وانضم اليهم مؤمنون آخرون ، ولكنهم لم ينزلـوا مع أبناء يعقوب الى مصر . والقسم الاخـر بقي على الوثنيـة واستوطن جنوب شرقي الاردن ، وهم آدوم ومؤاب وعمون . وربات عمون عاصمة العمونيين هي عمان عاصمة المملكة الاردنية في يومنا هذا .

بنـو اسرائيل في مصر

في سني المحل اضطر بنو اسرائيل وسواهم من الرعاة والمزارعين الى النزول الى مصر ، حيث النيل يسقي الارض ويروي الزرع . حصل



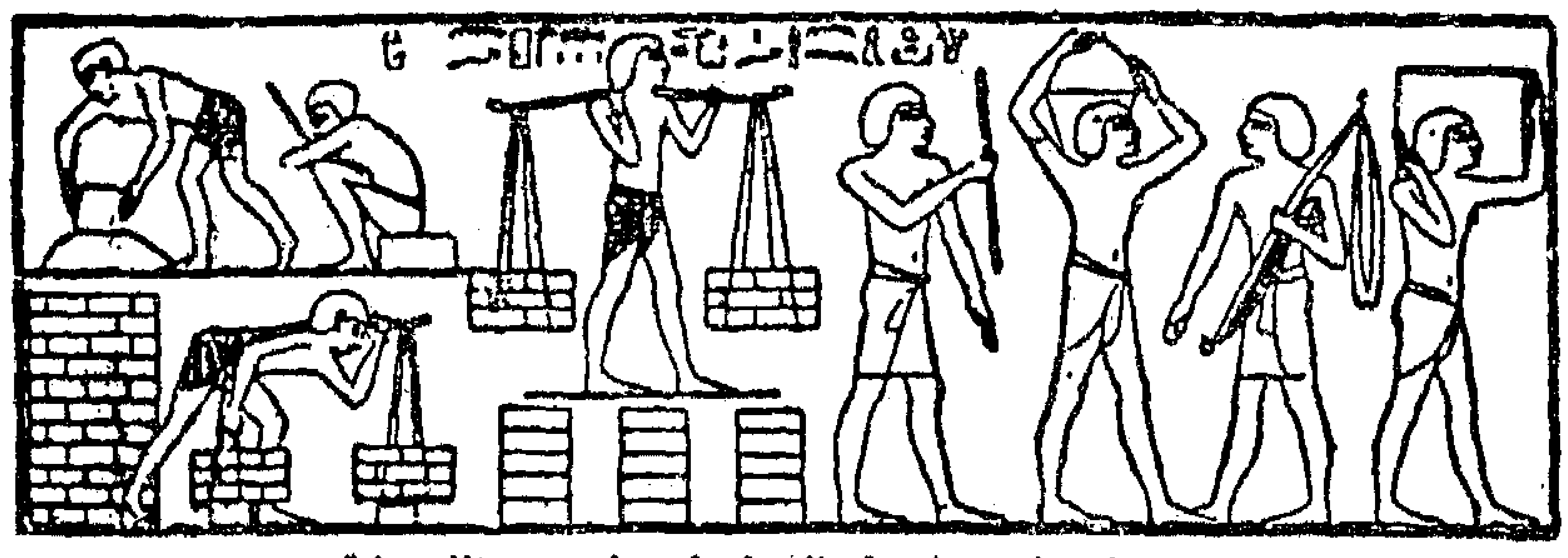
رسم فرعوني لعائلة سامية تهاجر الى مصر

هذا في عهد ابراهيم ثم يعقوب. وفي المرة الاخيرة كان يوسف الصديق قد بلغ ذروة المجد في مصر، فاستدعى اليه اباه وكافة اخوته واقتطع لهم مراعي خصبة في أرض غوشن في شمال شرقي دلتا النيل . وهناك تكاثر نسل بني اسرائيل وتعاظم شأنهم حتى أنفرعون مصر خشيهم فقرر اضطهادهم، وهكذا استعبدهم وسخرهم في بناء القصور والمدن وشدد في ظلمهم وأمر بالقاء مواليدهم الذكور في النيل .

موسى كليم الله

في أثناء فترة الاضطهاد قام لبني اسرائيل منقذ عظيم هو موسى كليم الله . ولد موسى لابيه عمرام من سبط لاوي ، وألقي في النيل ولكن أميرة مصرية انتشلته من النيل وتبنته ، فنشأ في قصر فرعون .

ولما كبر مال قلبه الى بني قومه فتألم لعذابهم ، وقتل مصريا كان يتمادى في ضرب اسرائيلي · من اجل هذا اضطر موسى الى الهرب الى مدْين وهي بلاد النبي شعيب الواقعة بين العقبة والمدينة · وهناك صاهر النبي شعيب (يترو) ثم جاءته الدعوة للعودة الى مصر وانقاذ قومه من ظلم فرعون· هكذا عاد الى مصر لا لكي ينقذ فردا بل شعبا بكامله فيخرجه من العبودية الى الحرية ومن مصر الى بلاده الموعودة · مثل موسى أمام فرعون وطلب منه الاذن بخروج بني اسرائيل من مصر ، ولكن فرعون رفض هذا الطلب باعتباره وقاحة لا تستحق الاهتمام · ألح موسى في الطلب مقدما لفرعون الآيات والبراهين على كونه رسولا من الله · ولما توالت على فرعون وقومه الشدائد والاهوال أيقن أن يد الرب الغير منظور



رسم فرعوني يمثل أعمال السخرة في مصر الفرعونية

تلاحقه · ولكنه ازداد عنادا حرصا على كرامته وهدد موسى بالقتل ، فزاده الله عذابا حتى انكسر عوده فأمر بني اسرائيل بالخروج من بلاده ·

مازالت ذكرى هذا الخروج من بيت العبودية ترافق بني اسرائيل حتى يومنا هذا ، وقد خص بها أول عيد من أعيادهم : هو عيد الحرية ، عيد الفصح · وكان الخروج أول عمل من أعمال موسى الجليلة فقد كان يرمي الى تحقيق عودة بني قومه الى بلادهم الموعودة ولكن الاستعباد الفرعوني الطويل كان قد فت في عضدهم وافقدهم الجرأة والثقة بالنفس· وكانوا كلما واجهتهم عقبة من جوع أو عطش أو قتال — وهم في سيناء — كلما أرادوا العودة الى مصر والى نيلها ، ولذا رأى موسى ان من الضروري أن يقوي فيهم الشكيمة ويُقوّم ما اعوج في انفسهم ، وهكذا قام بدور المربي الكبير ·

تقول الرواية ان العملية هذه قد استغرقت أربعين سنة تاه موسى خلالها ببني اسرائيل في فيافي سيناء — يدربهم على التكاتف والصمود كرجل واحد أمام أهوال الصحراء واخطارها ، والتنظيم الداخلي ، والانصياع لنظام الجماعة · وكان يقمع حركات العصيان ويجعل لقومه شرائع وسننا يعيشون بموجبها في الصحراء وفي بلادهم الموعودة ·

قام موسى بهذا العبء التربوي الجسيم بمفرده دون أن يطالب بجزاء لنفسه أو لذريته ، «فقد كان اكثر تواضعا من كل البرايا على وجه المعمورة» · ونجح موسى بمهمته — فالناس الذين اخرجهم من مصر توفتهم يد المنون خلال التيه في سيناء ، الا أن أولادهم الذين ترعرعوا على شريعة موسى كانوا أشداء صناديد ·

قادهم موسى آخر الامر الى شرقي وادي العربة حيث الجبال الشاهقة ترتفع واقفة الى جانبي الوادي المعروف بوادي موسى حتى يومنا هذا ، وهناك صعد جبل نبو (لعله جبل هارون) فأطل على البلاد الواسعة الموعودة لبني قومه وهناك توفاه ربه بعد أن سلم القيادة لتلميذه يهوشع بن نون، ولم يعرف مدفنه منذ ذلك الحين ·

وقفة جبل سيناء

كان موقف جبل سيناء ذروة أعمال موسى وتاجها · من فوق هذا الجبل الثائر الذي ينفث النار والدخان وسط الصحراء أنزل موسى التوراة لبني اسرائيل ولقنهم شريعة الرب · وقد قبل بنو اسرائيل بهذه الشريعة طائعين ، وكان ذلك في الشهر الثالث لخروجهم من مصر ، واليهود يحيون هذا الحدث الجلل في عيد العنصرة منذ ذلك الحين ·

ويشار الى جبل سيناء في جنوب شبه جزيرة سيناء — حيث أنشأ الرهبان المسيحيون ديرا منذ ١٥٠٠ سنة · الا ان بعض العلماء يميلون الى تعيين مكانه في مواقع أخرى متعددة ·

جاء موقف جبل سيناء ونزول التوراة متمما لما بدأه ابراهيم الخليل — خلق شعب يدين بالتوحيد وله ثقافة ذاتية وروح خاصة ، سداها الاخلاق الحميدة ولحمتها العدل الاجتماعي · ولب الشريعة الموسوية هي

الكلمات العشر التي تجمع بين فرائض عبادة الرب الاوحد وفرائض العمل الصالح بين الناس – الا وهي :

١ – أنا الرب الـهك الذي أخرجك من مصر ٠ ٢ – لا تكن لك آلهة أخرى أمامي ٠ لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض ٠ لا تسجد لهن ولا تعبدهن ٠ لاني أنا الرب الهك الـه غيور أفتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ ٠ واصنع احسانا الى ألوف من محبيّ وحافظي وصاياي ٠ ٣ – لا تنطق باسم الرب الهـك باطلا٠ لان الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا٠ ٤ – اذكر يوم السبت لتقدسه ٠ ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ٠ واما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك ٠ لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك ٠ لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل ما فيها ٠ واستراح في اليوم السابع٠ لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه ٠ ٥ – أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الارض التي يعطيك الرب الهـك٠ ٦ – لا تقتل٠ ٧ – لا تزنْ٠ ٨ – لا تسرق٠ ٩ – لا تشهد على قريبك شهادة زور ٠ ١٠ – لا تشته بيت قريبك٠ لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك ٠

لا شك أن بفريضة تقديس السبت أصبح بنو اسرائيل أول شعب في التاريخ عين يوم راحة اسبوعي للجميع ٠ كما أن الشرائع التي فرضت على بني اسرائيل ان يساعدوا بعضهم بعضا ويعتنوا بالفقراء والايتام والارامل ، وكذلك الشرائع التي حظرت على رؤساء القوم واشرافه الترفع على اخوانهم ٠ ان هذه الشرائع جاءت معربة على مبدأ الاخوة المتكافلة بين بني اسرائيل ٠

أنزل موسى الكلمات العشر منقوشة على لوحين من حجر ٠ وهذان اللوحان المقدسان جُعلا في صندوق هو صندوق العهد الذي أصبح أقدس مقدسات بني اسرائيل طيلة اجيال كثيرة حتى اختفى ، فاحتلت محلـه

الخزانة المقدسة في كل كنيس · وبدلا من اللوحين تحفظ في هذه الخزانة خمسة أسفار التوراة مكتوبة على صفحات من الجلـد ، وفيها قصص الخليقة وآدم وحواء ونوح والطوفان وتاريخ الامة الاسرائيلية من ظهور ابراهيم حتى وفاة موسى ، وفيها ايضا كافة الشرائع والاحكام وأصول العبادة التي يقدسها بنو اسرائيل منذ ذلك الحين · وهذه الأسفار ، الى جانب قداستها ، تعتبر أول أثر في الادب العبري الواسع ، ومن أقدم الآثار الادبية للجنس البشري عامة ، واكثرها انتشارا واشدها تأثيرا في بلورة اخلاق الناس وتوجيه افكارهم واعمالهم ·

اجمـال

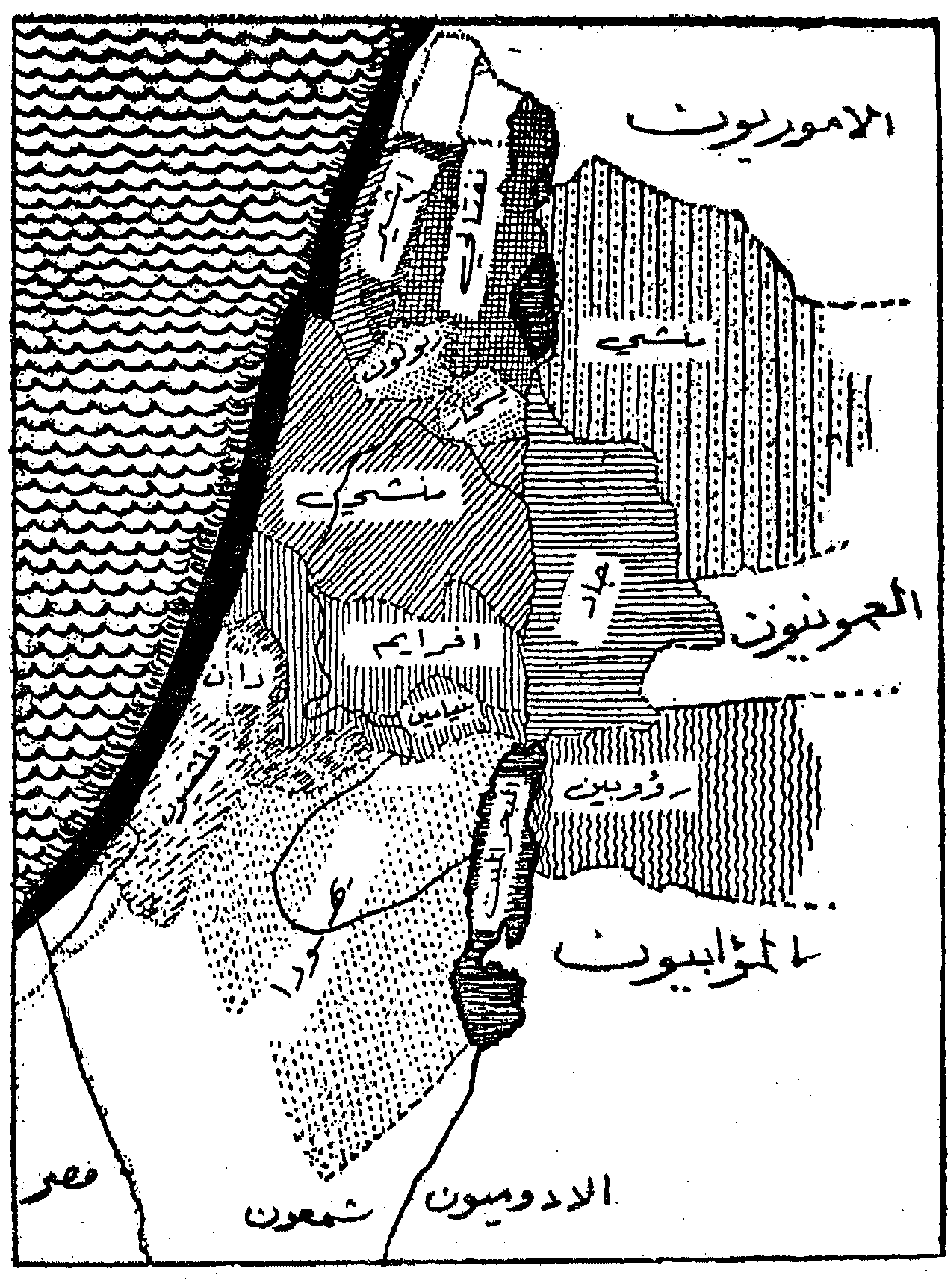
عشائر من الرعاة اصبحت شعبا ذا تأثير بعيد المدى في تاريخ البشر اجمع · تبلور هذا الشعب منذ ان اختار له وطنا وهام به هيام العاشق المتيم الذي لا يعرف اليأس · وتم تبلوره على يد شـخص عظيم كـرس حياته لانقاذ اخوانه من العبودية والاذلال ولتثقيفهم وتوجيههم ·

الفصل الثاني

الشعب الاسرائيلي يستوطن بلاده

وفى الرب الاله بوعده لاباء الامة اليهودية فمكن الاسرائيليين من الاستيطان في شرقي الاردن وغربه ٠

تم استيطان شرقي الاردن في عهد موسى ، وغربه في عهد خلفه يهوشع بن نون ٠ ولغرض الاستيطان قسمت البلاد بين اسباط اسرائيل وعائلاتها ٠ كان سبط لاوي (ليفي) وهو السبط الذي ينتمي اليه موسى السبط الاسرائيلي الوحيد الذي لم يحصل على قسم خاص به لغرض الاستيطان الزراعي ، اذ ألقى موسى على عاتق هذا السبط التفرغ لعبادة الله ، ونشر تعاليم التوراة في أوساط الشعب٠ استوطن اللاويون بين اخوانهم من الأسباط الأخرى ٠ وفي المناطق التي احتلها موسى الى الشرق من الاردن استوطن سبطا روبين وجاد ، ونصف سبط منشي ٠ أما غربي الاردن فقد استوطن سبط يهودا في الجنوب ، وشمعون في النقب ، وبنيامين الى الشمال من أورشليم ، وافرايم ونصف سبط منشي في جبال الشومرون ، ويساخر في سهل يزراعيل ، وزبولون في الغرب في الطريق المؤدي الى ساحل البحر، ونفتالي في الجليل الشرقي، وآشير في الجليل الغربي ، وحاول سبط دان الصغير التمسك بالسهل الساحلي (منطقة تل ابيب حاليا) كما مارس الملاحة على غرار ما فعل سبط زبولون ، ولكنه سرعان ما ارتد نحو الجبال واخيرا انتقل الى شمال الجليل واحتل من الكنعانيين قطاعا آخر قرب منابع الأردن (قرب قيبوتس دان حاليا) ٠ والغالب ان الكثير من أبناء هذه الاسباط بقي مقيما في اراضيه ولم ينزل الى مصر حين نزل اليها يعقوب وأولاده - كما سبق وذكرنا - وهذا الامر قد سهل العودة على أبناء يعقوب وانضمامهم الى بني قومهم ليؤلفوا شعبا واحدا ٠



المناطق التي استوطنها الاسباط

أيـام القُضـاة

منذ بدء الاستيطان ، دعت الضرورة الى الذود عن المناطق المستوطنة بقوة السلاح ، أمام خطر الكنعانيين والأموريين الذين حاولوا شن الهجمات من المناطق التي ارتدوا اليها ، وأمـام خطر القبائـل العبرانية الاخـرى (الآدوميـون والمـؤابيـون والعمـونيـون) التـي اعتـادت القيـام بغزواتهـا ابان سـيطرة الكنعـانيين على المنـاطق المستوطنة • أطلـق الاسرائيليون على قادتهم الذين أبعدوا وصدوا الغُزاة اسم «القُضاة» ، وبهذا الاسم سميت هذه الفترة من تاريخ الشعب الاسرائيلي • وقـد هزمت النبية دبوره وقائد جيشها براق بن ابينوعم الكنعانيين في الجليل والسهل هزيمة نكراء ، في المعركة التي دارت عند نهر القيشون • وتعتبر «ملحمة دبوره» التي تصف هذا النصر ومصرع القائد الكنعاني، سيسرا، أجمل وأقدم الملاحم العبرية • وأحبط ايهود بن غيرا محاولة المؤابيين التي استهدفت توسيع بلادهم على حساب اسرائيل • وأفشـل يفتـاح الجلعادي محاولة مماثلة قام بها الكنعانيون • وألحق عاتنئيل بن قناز الهزيمة بالغزاة الرُحل الذين قدموا من سهول الفرات ، في حين هزم يُروبعل جدعون بن يوئاش الرحل الذين جاءوا من أرض مدين ومن التحق بهم أثناء مسيرة الغزو ، في معركة عين حارود •

استوطن الاسباط ارجاء البلاد ، ولكن المدن التي ظلت في أيدي الكنعانيين عرقلت الاتصال بينهم • وقد أفلح القضاة في استنفار أبنـاء المنطقة المتعرضة للهجوم المباشر وحدهم ، في كل حالة • كان كل سبط يحرص على الذود عن كرامته وحقوقه ، وقد حدث أن تطورت النزاعات بين الاسباط الاسرائيلية الى حروب أخـوية فعلية • هـذا الوضع الذي أصبح فيه «كل واحد يفعل ما يروق له» جعل اسرائيل أمام خطر شديد حين ظهر عدو جديد فاق في تنظيمه العسكري الذي امتاز بالتكتل وبالطاعة كل الاعداء الذين سبقوه ـ كان هذا العدو هو الفلشتيون (من هنا ابتدع الرومان اسم فلسطين بعد مئات السنين) وهم قوم من جـزيرة كريت والساحل الغربي لاسيا الصغرى •

كان الفلشتيون على مستوى تقني عالٍ ، تشهد على ذلك الحفريات التي أجريت في عصرنا • طُرد هؤلاء الفلشتيون من بلادهـم على أيـدي

جيرانهم اليونانيين بعد حروب كانت أشهرها الحرب التي آلت الى خراب مدينة طروادة ، وهي الحرب التي أصبحت بعد قرون عدة موضوعا للملحمة الشعرية الشهيرة التي نظمها الشاعر اليوناني الكبير هوميروس. وقد حوّلت عملية الابعاد هذه الفلشتيين الى قراصنة وغُزاة ، وبعد أن صدهم المصريون عن سواحل مصر غزوا بلاد الكنعانيين الجنوبية : غزة ، وأشدود ، واشقلون ، وغات ، وعقرون . أوكلت مهمة حكم هذه المدن الى اشخاص عُرفوا باسم «الضباط» .

الحاجة الى نظام ملكي

حاول الفلشتيون بسط سلطانهم على الاسرائيليين أيضا . وحظروا على الاسرائيليين الذين احتلت مناطقهم حمل السلاح، وعلى الأخص صنع السلاح الحديدي . حاول الاسرائيليون ، في البداية ، الذود عن مناطقهم كما فعلوا حين تعرضوا لهجمات الجيران الآخرين ، وقد امتاز في معارك الدفاع هذه كل من القضاة شمغار بن عنات ، وشمشون الجبار ، وشموئيل النبي ، ولكن سرعان ما اتضح أن الفرق في التنظيم ، والتدريب والتجهيز، كان في هذه المرة كبيرا جدا . أخذ الفلشتيون في السيطرة على المناطق الاسرائيلية من الغرب ، في حين واصل الجيران العبرانيون غزو هذه المناطق من الشرق . رأى الشعب آنذاك أن الخلاص من هذا الشر المحدق رهن باقامة سلطة مركزية حازمة ذات صلاحيات كاملة ، قادرة على تجنيد كافة القوى البشرية والوسائل التي يملكها الشعب من أجل الذود عن الاستقلال وصونه . واستجابة لطلب الشعب قرر النبي الشيخ ، شموئيل ، وهو آخر القضاة الذائدين عن حياض الأمة ، تنصيب ملك على اسرائيل .

* * *

الملك شاؤول

وقع الاختيار على شاؤول بن قيش من سبط بنيامين ، وأفلح هذا في الحاق سلسلة من الهزائم بأعداء اسرائيل . كانت أشد هذه الهزائم تلك التي مُني بها عماليق ، وهو سبط صحراوي من الرحل ، تعرض للاسرائيليين لدى خروجهم من

مصر الى الصحراء.، ثم قام بغزوات متتالية على البلاد • نجح شاؤول كذلك ، في ضرب الفلشتيين مرات عدة في جبال بنيامين ويهودا ، غير أنهم اتجهوا، آنذاك ، صوب الشمال، مستخدمين المركبات الحديدية، وأفلحوا في شق ممر لهم الى سهول يزراعيل ، وبيت شان ، والأردن • حاول شاؤول التصدي لهم، ولكن هُزم في المعركة التي جرت على جبل الجلبوع• وفي هذه المعركة سقط ابناؤه الثلاثة ، وانتحر هو خشية وقوعه أسيرا في أيدي الفلشتيين •

لم يفلح شاؤول في تجميع قوى الشعب تجمعا متينا • وحين تولى الملك بقي في مدينته جبعا ، كما فضل أبناء سبطه على سواهم • كذلك ، تولاه الحسد نحو قائد متفوق في جيشه هو دافيد بن يشاي من سبط يهودا ، ومن مواليد مدينة بيت لحم • رأى شاؤول في دافيد هذا منافسا فحاول التخلص منه بقتله • الا أن دافيد تمكن من الهرب • ظل دافيد ومؤيدوه في صحراء يهودا ، واخيرا اضطر لطلب الملجأ عند الفلشتيين • ابان وجوده عندهم ، تملص دافيد من الاشتراك في معاركهم ضد الاسرائيليين ، وتفرغ لمطاردة قطاع الطرق من الرحل الذين قدموا من شبه جزيرة سيناء ، وهم الذين هاجموا الفلشتيين والاسرائيليين على حد سواء • بعد مصرع شاؤول ، اختار أبناء يهودا داود ملكا ، وما مرت سبع سنوات ونصف السنة حتى بايعه سائر اسباط اسرائيل ايضا •

الملك داود

كتّل داود الشعب ، وانقذه من تحكم خصومه فيه • ورضي الشعب بسلطانه بعد أن رأى فيه عدم تفضيله سبطا على آخر ، أو مدينة على أخرى • حين وقع عليه الاختيار ليكون ملكا على يهودا فضّل مدينة حبرون الواقعة في وسط مدن يهودا على مدينة بيت لحم مسقط رأسه ، فاتخذها عاصمة لملكه • ولما بويع ملكا على الشعب كله حال دون وجود الغيرة والحسد بين أسباط اسرائيل ومدنهم ، بأن اتخذ أورشليم عاصمة لمملكته بعد ان احتلها من اليبوسيين اسياد جبل صهيون •

حرص داود ، ومن بعده ابنه سليمان ، طيلة فترتي حكمهما على توسيع العاصمة وزيادة السكان فيها ، وجملاها بالمباني الفخمة ، وجعلا

منها مركز الحياة الفكرية والروحانية للأمة الاسرائيلية ، حتى أصبح الاسمان «أورشليم» و«صهيون» مقدسين لدى الشعب• حاول الفلشتيون الانقضاض على أورشليم ؛ ولكن داود ردهم خائبين صوب الساحل ، وأخضع بلادهم • كان داود قد تعلم الشيء الكثير من فنون الفلشتيين الحربية ، وبعد ان هزمهم ضم خيرة المحاربين منهم الى صفوف جيشه ، وأسكنهم في أورشليم ، حتى تأقلموا وانصهروا في بوتقة الشعب الاسرائيلي وأصبحوا محاربين اسرائيليين مخلصين • ولما لم تعد فلول الفلشتيين على الساحل تشكل خطرا على حرية الشعب ، أخضع داود الأدوميين ، والمؤابيين ، والعمونيين ، وقسا على اخوته هؤلاء اكثر من قسوته على الفلشتيين • حالت اعمال داود ، دون وقوع المنازعات والاصطدامات بين الأسباط ، واتاحت لها فرصة التكتل والتعايش بسلام في مملكة واحدة واسعة • وادت حروبه الى مطاردة اعدائه الجدد حتى حدود الفرات ، وبذا وصل بجيوشه الى موطن العبرانيين القدامى •

فتح احتلال بلاد الأدوميين (في النقب) أمام التجارة الاسرائيلية طريقا نحو البحر الأحمر وطرق القوافل العربية • وابان حكم سليمان كانت السفن الاسرائيلية تبحر من مدينة عصيون غابر (أطلالها قرب مدينة ايلات) الى سواحل جزيرة العرب وافريقيا ، والى أرض الذهب أوفير ، الواقعة في مكان ما عند شواطىء المحيط الهندي • وقد قدمت الى أورشليم ملكة قبيلة تجار يمانية ، هي ملكة سبأ ، لربط أواصر الصداقة مع اسرائيل •

كان لتوطيد أركان مملكة اسرائيل وتوسيعها على يد داود اثر بليغ في وضع حد نهائي لمشكلة الكنعانيين ، حيث خضع من تبقى منهم خضوعا تاما لداود• أما الدويلات المتاخمة لأرض اسرائيل من جهة الشمال فقد دفعت له الضرائب ، في حين نشأت صداقة متينة بين حيرام ملك صور الفنيقي وداود وسليمان ، فأسهم هذا بتقديم الخبراء والأخشاب ، لتطوير واعمار أورشليم، وبناء الأسطول الاسرائيلي • ومن ناحية أخرى، مكنت هذه الصداقة أبناء صور من التفرغ لتأمين وتوسيع أعمال الملاحة ، وتأسيس المراكز التجارية على شواطىء البحر المتوسط ، وجعل صور مدينتهم مركزا مشهورا للتجارة وللصناعات الفنية •

لم يكن داود رجل حرب وادارة فحسب ، وانما كان كذلك زعيما روحيا ممن صاغوا الثقافة الاسرائيلية • كان شاعرا ، تغنى بمزاميره بأمته المناضلة المطوقة بالاعداء وغير المهزومة • كان مؤمنا ، آمن بانتصار رب الحق وانهزام عباد الباطل ، لم يتورع عن الاعتراف بالخطأ والندم حينما كان يقع في خطأ • استطاع بسيرته الفاضلة وانتصاراته اللامعة كسب تقدير وولاء الشعب كله له ، حتى غدا داود رمزا للحماية والدفاع والانتصار • وفي الفترات اللاحقة ، ولما تعرض شعب اسرائيل للمصاعب وللمصائب ، تأصل فيه الايمان القوي بحتمية ظهور رجل من نسل داود، في آخر الزمان ، ليحمي حمى اسرائيل ويعيد له الحرية والسعادة الأبديتين •

هذا هو منبع الايمان بقدوم «المشيح ابن داود» • ان كلمة «المشيح» تعني ــ الملك ، ذلك أنه جرت العادة على أن يمسح النبي أو الكاهن رأس الملك بالزيت دلالة على اختيار العناية الالهية له ملكا •

اجمــال

بعد مضي نحو مائتين وعشرين عاما (ويعتقد بعض البحاثة أقل من هذا) على بدء استقرار بني اسرائيل في بلادهم تمكن داود منجعل اسرائيل دولة من أعظم الدول التي عرفها التأريخ آنذاك • كان الطريق طويلا وشاقا • لم يكن في الامكان خلق المملكة الا بعد أن أتم سيدنا موسى عملية خلق الشعب ، وبعد أن رسخ هذا الشعب في بلاده وثبتت اقدامــه في ارجائها • ان النزعــة الى الحريــة والاستقــلال هي التي منحت شعــب اسرائيل القوة التي مكنته من قطع هذا الطريق الطويل الشاق • فلقد آمن الشعب ، مثلما آمن ملكه داود بانتصار الحق ، اذ قال :

سينقذني الرب من اعدائي الاشداء ومن مبغضي سيخلصني

ويخرجني الى الآفاق الواسعة ينجيني لأن اختياره وقع علي

(سفر شموئيل ٢ ، ٢٢ ، ١٨ ــ ٢٠)

الفصل الثالث

أيـام الهيكل الأول

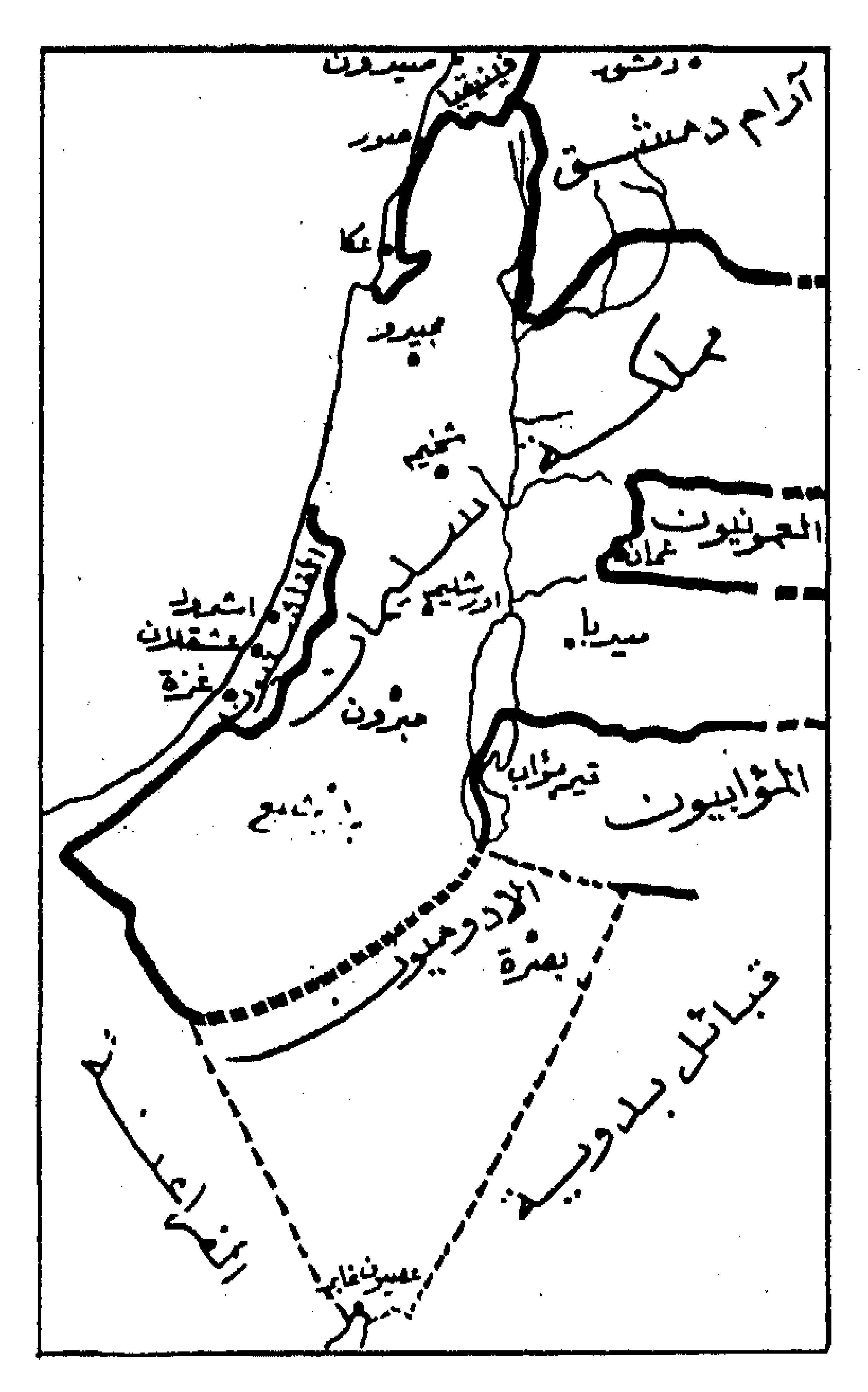
الملك سليمان

خلف الملك سليمان اباه داود ، فشيد في مدينــة أورشليم هيكلا مقدسا لوجه الرب تعالى ووضع فيه الصندوق المقدس مع الألواح • أصبح هذا البناء مركزا لتجمعات الشعب • كان على كل اسرائيلي ذكر أن يحج الى هذا البيت المقدس ثلاث مرات في السنة ، ليحتفل مع جميع أبنـاء الشعب بالأعياد القومية الاسرائيلية التي كانت في الوقت نفسه أعياد الطبيعة في الوطن • كانت هذه المناسبات الثلاث هي : عيد الفصح ، وهو عيد الربيع ، وعيد العنصرة ، وهو عيد الحصاد والبواكير ، وعيد المظلة، وهو عيد الجني• وكثيرا ما كانت تحج العائلة كلها الى أورشليم لتستمتع بجلال البيت وتتبرك به وتشارك الجماهير المجتمعـة فرحتها الـكبرى • وهكذا كانت هذه التجمعات تعبيرا محسوسا عن التكتل القومي ، كما انها حافظت على هذا التكتل •

مكانــة الهيــكل لــدى الاســرائيليين :

كان الهيكل المقدس أعلى وأقدس مؤسسة قومية لدى شعب اسرائيل• ألف الانبياء القاء مواعظهم أمام الجماهير المحتشدة في ردهاته، وفي حجراته عقد زعماء الشعب وقضاته جلساتهم • وكان الكهنة أبناء هارون يقومون بمراسيم العبادة ويساعدهم فيها اللاويون بانشاد الدعاءات والمزامير • كانت موسيقى اللاويين حجر الاساس في الموسيقى الاسرائيلية ، مثلما كان بناء الهيكل وتجميله حجر الاساس في الفن المعماري ، والرسم ، والنحت ، والصناعات المعدنية في اسرائيل •

كانت أهمية الهيكل المقدس ومكانته في تأريخ الشعب الاسرائيلي سببا في تسمية الفترة الزمنية التي قام في غضونها باسمه • خلال هذه



مملكة سليمان الحكيم بعد استقرارها وتوسيع التجارة عن طريق خليج عصيون غابر (العقبة)

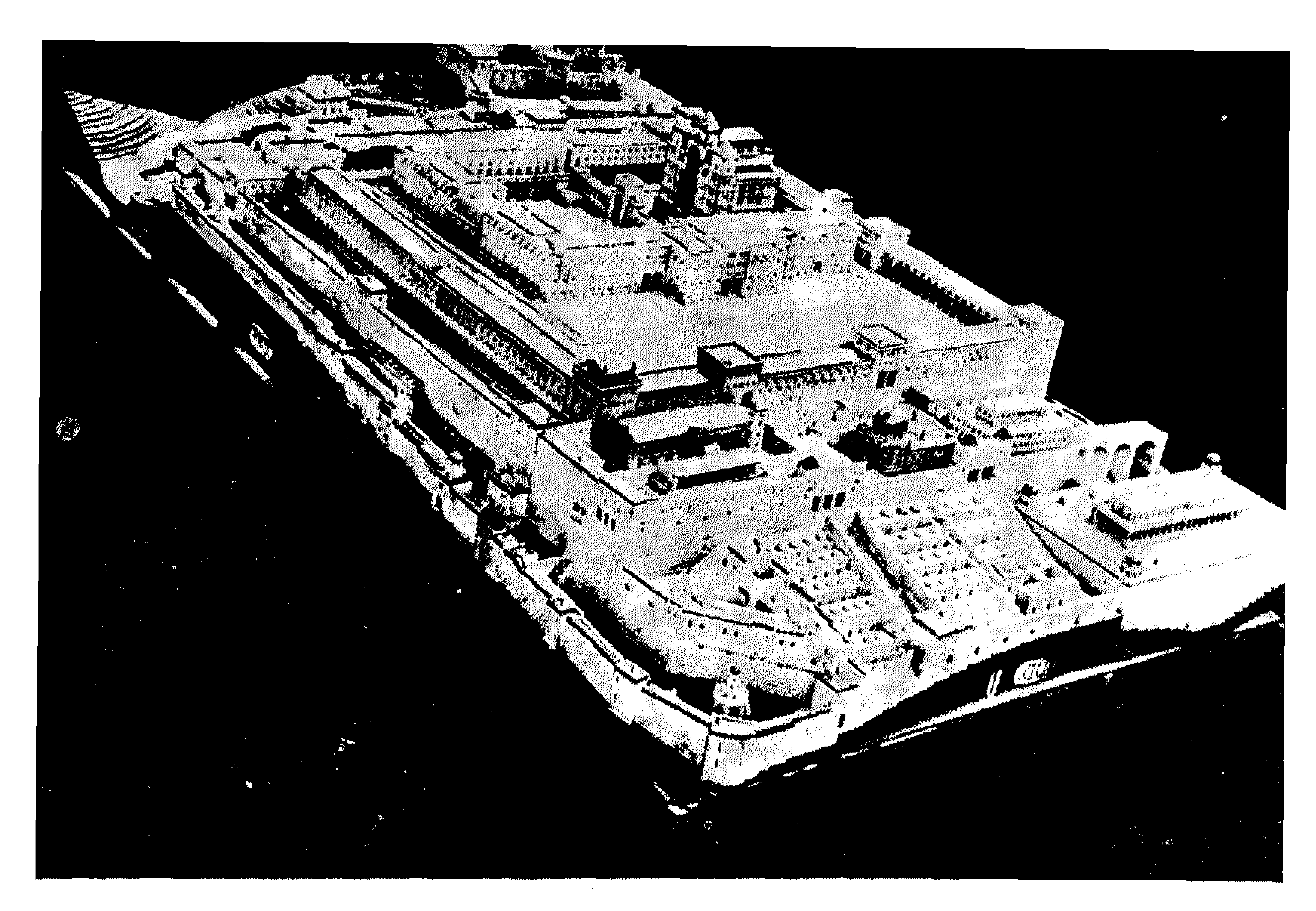
الفترة التاريخية هدم «البيت» مرة واحدة ، وكان ذلك في العام العبري ٣١٧٥ ، الموافق ٥٨٦ قبل الميلاد · ثم أعيد بناؤه · لهذا اعتاد المؤرخون أن يميزوا بين فترتين تاريخيتين هما «فترة البيت الأول» و «فترة البيت الثاني» · كان خراب البيت الاول على ايدي الغزاة البابليين· وكان خراب البيت الثاني (في العام العبري ٣٨٣٠ ، الموافق ٧٠ للميلاد) على أيدي الغزاة الرومانيين · تعمد الرومان تخريب الهيكل وتدنيسه رغبة منهم في سحق روح الشعب الاسرائيلي وتحقيره ، غير أن أعمالهم هذه زادت

من قدسية البيت المقدس بفضل الدماء التي أريقت دفاعا عنه ، فأصبح، لدى الشعب كله صرحا ورمزا للحرية القومية · وأصبح يوم التاسع من شهر آب العبري ، وهو اليوم الذي خرب فيه البيتان الاول والثاني يوم التفرغ لذكرى ألم الخراب ، والتعلل بالآمال الكبرى في الانقاذ والخلاص· وأصبح «الحائط الغربي» ، وهو من بقايا السور المحيط بالهيكل سابقا ، كعبة لابناء الشعب المصلين من أجل الخلاص طيلة الأجيال · ولكننا استبقنا الحوادث وسنعود الى فترة الهيكل الاول ·

الانقسام

لم ينزع سليمان الى الحروب بل تفرغ لتوطيد المملكة وتشييد القصور والمباني الفخمة ولاسيما منها بناء الهيكل الاول الذي تحدثنا عن عظمته وأهميته اعلاه· وكانت فترة سليمان فترة سلام وازدهار، الا انه اضطر الى ارهاق الشعب بالضرائب · ولما خلفه ابنه رحبعام تقدم الشعب اليه بطلب تخفيف العبء ، ولكنه رفض الطلب بكبرياء · ادى هذا الرفض الى تمرد غالبية شعب اسرائيل على حكم آل داود ، فانشقت المملكة الى قسمين ، ودعي القسم الشمالي منها «مملكة اسرائيل أو شومرون» والجنوبي «مملكة يهودا»· كان مركز مملكة اسرائيل موطن سبط افرايم ، أما عاصمتها فكانت على التوالي — شخيم (نابلس) ، ثم بنوئيل، وترصا، وأخيرا شومرون بالقرب من سبسطيا· تعاقبت على هذه المملكة سلالات ملوك عديدة ، وتخلل حكمها انقلابات وحروب أهلية ، واراقة دماء كثيرة · وفي عين الاثناء ظل آل داود يحكمون في أورشليم عاصمة «مملكة يهودا» ، وهي المملكة التي ضمت موطن الاسباط يهودا وشمعون وبنيامين ·

استغلت الشعوب المجاورة التي سبق أن اخضعها داود هذا الانقسام فتمردت على الاسرائيليين، وهاجمتهم المرة تلو المرة · لم يملك الفلشتيون آنذاك من القوة ما يهدد اسرائيل ، ولكن ملوك الآراميين (وعاصمتهم دمشق) كانوا على أشدهم فسددوا هجماتهم · وقد أفلح «آل عمري» وهم السلالة الاولى من ملوك شومرون ، في عقد حلف مع ملوك يهودا وصور ضد الاراميين ، وأسهمت جيوش يهودا في الدفاع عن ممتلكات



الهيكل الاول الذي بناه سليمان الحكيم طبقا للاوصاف التي وردت في سفر الملوك

شومرون في شرقي الاردن ، غير أنه لم يكن في مقدور هذا التحالف أن يطمس آثار الانقسام • تمرد ميشاع ملك مؤاب على شومرون والحق اضرارا بالغة بالمناطق الاسرائيلية المجاورة له • وقد خلد ميشاع انتصاره هذا على لوحة موجودة الآن في متحف باريس • ولم تفلح مملكة يهودا ، هي الاخرى ، في الاحتفاظ بسلطانها على الأدوميين •

أعقب حكم «آل عمري» ، حكم «آل يهو» وفي ايامهم ازدادت هجمات الآراميين • كان يربعام الثاني هو الملك الوحيد الذي تمكن من اخضاعهم واعادة معظم الاراضي التي احتلها داود في سوريا الى مملكة اسرائيل (سُمي الثاني للتمييز بينه وبين يربعام الاول ، أول ملوك شومرون بعد الانقسام) • في ذلك الحين ، حكم مملكة يهودا الملك عوزياهو ، وكان محبا للاعمار، اهتم بتوطين النقب وتمكن من توسيع حدود مملكته بفضل حروبه الناجحة ضد الفلشتيين وفي القسم الجنوبي من الضفة الشرقية للاردن • لم يدم هذا الحال طويلا، اذ ساءت العلاقات ثانية بين المملكتين، وتعرضت

مملكة شومرون للانقلابات الداخلية · ومما زاد الطين بلة ظهور عدو قوي فاقت قوته كل الاعداء السابقين ، ذلك هو ملك الآشوريين (شمالي العراق) ·

لم يستهدف الآشوريون قهر الشعوب وحسب ، وانما أرادوا كذلك اذابة الشعوب المحتلة بغية استئصال الرغبة في الحرية من نفوس ابنائها· فهدموا العواصم والمقدسات ومراكز الحضارة القومية ، كما نفوا الى دول بعيدة الزعماء والمثقفين والخبراء ورجال الجيش والجماهير مستبدلين اياهم بأقوام آخرين · حاول ملوك اسرائيل ويهودا الاستعانة بالمصريين ضد هذا العدو الجديد ، ولكن اعتمادهم على مصر كان «كمن يتوكأ على عكاز مكسور» · غدت البلاد ميدان صراع بين الدول العظمى الاجنبية ، في حين ظل الانشقاق يفت من قدرة الشعب على الدفاع · حتى انه في غمرة الخطر الأشوري تحالفت مملكة شومرون مع الآراميين لغرض مهاجمة أحاز ملك يهودا ، وهذا بدوره رشا ملك اشور وحرضه على مهاجمة آرام وشومرون معا ·

وهكذا كان الانقسام الذي نجم عن زيادة الضرائب سببا في ازدياد وطأة الضرائب كثيرا، اذ دعت الحاجة الى تمويل نفقات جيشين، وجهازي ادارة على حساب سكان المناطق التي تقلصت مساحتها بسبب تمرد الشعوب المحكومة · أوهنت الضرائب الباهظة الشعب ، وتحول كثير من الفلاحين والملاكين الى عمال زراعيين أجيرين فقراء · أما الاغنياء الدائنون الذين ازداد ثراؤهم فقد أثاروا الاستياء والتذمر لما اتسمت به حياتهم من طابع الترف والفخفخة · وقد جرف تيار الترف معه رجال الدولة وضباط الجيش والقضاة الذين انتهجوا سبيل الرشوة ليتمكنوا من تغطية النفقات الكمالية الهائلة · وهكذا أصبح انقسام شعب اسرائيل انقساما اجتماعيا ، الى جانب كونه جغرافيا ·

أعمال الأنبياء

ان الطبقات الاسرائيلية العليا لم تترفع على الشعب فحسب ، بل جرت وراء مفاتن الحضارات الوثنية ومفاسدها · لم يكتف هؤلاء بمزج ديانة موسى الكليم مع عبادة الاوثان ، وانما حاولوا الغاء هذه الديانة



انقاض مدينة سبسطيا وقد عثر بجانبها على انقاض مدينة شومرون

كليا ، وتعميم عبادة الآلهة الكنعانية في مملكة شومرون ـ عبادة الالـه بعل ، وزوجته الالهـة عشتروت . جرت هذه المحاولة في أيام أحئاب ابن عمري ملك شومرون الذي تزوج ايزابيل كريمة ملك صور الفنيقي . ولما تزوجت ابنتهما ، عتاليه ، ملك يهودا تسرب هذا الخطر الى مملكة يهودا ايضا . وهنا برز دور الانبياء في تاريخ بني اسرائيل ، اذ انبرى النبي الياهو هتشبي (هو الخضر) من جلعاد الى احئاب وندد به اشنع التنديد غير هياب من سطوته ، ودعا الشعب للتمسك بديانة موسى .

جند الياهو لدعوته هذه عددا كبيرا من التلامذة والاتباع وعلى رأسهم النبي اليشاع ، فقادوا نضاله الى النصر واسقاط حكم «آل عمري» ٠

أصبح النبي الياهو الذيأنقذ اسرائيل من خطر الذوبان بين الاوثان اكبر المحبوبين عند الشعب ، حتى تبلور لدى الشعب الاعتقاد بحتمية عودة هذا النبي، في آخر الزمان، ليبشر بمقدم المشيح (المنقذ) بن داود ـ منقذ شعباسرائيل. ومنذ أيام الياهو أصبحالانبياء كتلة مناضلة دعتبدون خوف أو وجل الى اعادة حياة الشعب الى جادة الصواب ، وحاربت ضد الاستعباد الروحاني ـ ومن ثم السياسي ـ الذي حاولت الدول الوثنية المجاورة فرضه عليه ما استطاعت ، مستعينة بالطبقات العليا الفاسدة من أبنائه ٠ كافح الانبياء ضد العبادات الوثنية الدخيلة ، كما كافحوا ضد منابرها ، مدفوعين برغبتهم في الحفاظ على الوحدة القومية للشعب ، وعلى حضارته وثقافته ٠ وقد وجد هؤلاء في كهنة الهيكل المقدس حلفاء لهم في حربهم ضد المنابر ٠ طالب الانبياء حكام الشعب بأن لا يتوكلوا على الاحلاف مع الدول الاجنبية ، أو على العتاد والتحصينات ٠ وقالوا ان العامل الحاسم هو روح المقاتلين ومعنويتهم ، أي ايمانهم وتوكلهم على الرب تعالى ٠ حذر الانبياء من مغبة المغامرات المتسرعة ، ومن منازلة الدول التي بلغت الذروة في قوتها ٠ غير أنهم أوضحوا مرارا وتكرارا بأن شعب اسرائيل الصغير لا بد له أن يشهد هزيمة اعدائه الأشداء اذا احتفظ بصلابة روحه وحرص على استقلاله المعنوي الذاتي في الداخل ٠

كرس الانبياء مواعظهم من اجل النضال المتواصل لبلوغ أنظمة اجتماعية صالحة في أوساط شعب اسرائيل ٠ كافحوا الرشوة والسكر والغش ، والتطفيف في الميزان ، والتزييف ، وتأخير أجر الأجير ، واكل أموال اليتيم والأرملة ، وغصب حقوق الفلاحين ٠ اكد هؤلاء ، مرارا وتكرارا ، بان الايمان والعدل الاجتماعي هما الامتحان الحاسم للشعب ولحكامه ، وأن عدم الصمود أمام هذا الامتحان المصيري يعني فقدان كل أمل في بقاء الأمة٠ لم يخشوا شيئا : سموا الزعماء «عصابة من اللصوص» ودعوا الوجهاء ـ «ضباط سدوم» ٠ اعتادوا الوقوف في ابواب الهيكل

والتحذير من ارتكاب المعاصي ، كما مثلوا أمام الملوك وهددوهم بالموت وضياع الملك ان لم يكفوا عن الظلم والطغيان • كان عملهم هذا سببا في ملاحقة الملوك لهم ، فأميت قسم منهم ، وضربوا وسجنوا ، ولكن هذا كله لم يحل دون تغلغل دعوتهم الى نفوس ابناء الشعب •

السامريون والأسباط العشرة

لم يفلح الانبياء في الحيلولة دون خراب الدولتين الاسرائيليتين ، ولكن كان لهم الفضل في عدم استحالة خراب الدولتين الى خراب شعب اسرائيل ، اذ انهم علموه كيف يمكنه مواجهة المحن برباطة جأش ودون انحلال • حصل خراب مملكة شومرون على أيدي الأشوريين قبل أن تتأصل جذور الدعوة الروحانية للانبياء في أعماق الشعب • وبخرابها (في العام العبري ٣٠٤٥ ، الموافق ٧٢٢ قبل الميلاد) نفى الأشوريون رجال الجيش، ووجهاء الشعب، والمثقفين ، وأتوا الى جبال شومرون بمستوطنين من شعوب أخرى • امتزج هؤلاء المستوطنون بمن تبقى من الاسرائيليين ، وهكذا قامت طائفة مختلطة سميت «السامريون» • يؤمن السامريون بديانة موسى ، غير أنهم لا يقدسون باقي الانبياء وأورشليم • والمكان المقدس عندهم هو جبل جرزيم القريب من مدينة شخيم (نابلس) • وما زالت هذه الطائفة حية حتى اليوم، وهي تحرص على هويتها وعلى انتسابها لأسباط افرايم ومنشي ، ولاوي •

أما أبناء مملكة اسرائيل المنفيون فقد ذاب جانب منهم في محيطهم ، ومنهم من حافظ على هويته حتى حصل نفي ابناء «مملكة يهودا» فيما بعد، فامتزج الاخوة في المنفى بعد شقاق، وأصبح اسم «اليهود» ـ أي من هم من سلالة سكان مملكة يهودا ـ يطلق الان على شعب اسرائيل كله • لقد شق على اليهود التسليم بذوبان غالبية ابناء شومرون ـ وكانوا ينتمون الى عشرة من اسباط اسرائيل ـ ومن هنا تبلور مع مرور الزمن الاعتقاد بان «الاسباط العشرة» مازالت قائمة تعيش في مكان ما خلف نهر العجائب ـ سمبطيون • تقول الأسطورة أن هذا النهر يظل هائجا مائجا طيلة ستة أيام في الأسبوع ، ولا يهدأ الا في اليوم السابع وهو يوم السبت • ومن المتعذر المساس بقدسية السبت، وهكذا، وفي كلا الحالتين يتعذر الاتصال

بالاسباط العشرة . ولكن ومع مقدم المَشيِّح (المنقذ) بن داود سيهدأ نهر سمبطيون وتتاح للأسباط العشرة امكانية العبور، والانضمام الى اخوانهم اليهود في وطنهم المعـاد .

الأنبيـاء الكُتّـاب

حدث خراب مملكة يهودا بعد أن تأصلت تعاليم الأنبياء في نفوس أبناء الشعب ، فأكسبتهم مناعة ضد الانصهار في الشعوب الأخـرى . وكان الانبياء قد مارسوا الكتـابة ايضا ، فأصبحوا من ابرز كتّـاب اسرائيل : أخذوا هم أو تلاميذهم يدونون تعاليمهم وخطبهم وأحوال ايامهم وينشرونها في أوساط الشعب. كان جل عملهم في يهودا قبل خرابها. وقد بقيت لنا سجلات الانبياء الذين تنبأوا بخراب «مملكة شومرون» قبل أن يحل بها الخراب بزمن طويل . فهـذا النبي هوشع بن بئـيري رأى في مصيره الشخصي ــ اذ خانته زوجته في حين بقي على حبه لها ــ اشارة الى مصير شومرون التي ضلت عن طريق الله ، في حين لم يتحول الله بحبه عنها . وذهب النبي عاموس ، وهو راعي غنم في يهودا الى زعماء شومرون، وأنبهم على «بيعهم بائسا معوزا مقابل حذاء» وعلى القسوة ، والرشوة اللتين سادتا الدولة ، وعلى انعدام العدالة الاجتماعية .

وتوصل النبيان من يهودا ــ يشعياهو بن أموص، وميخا همورشتي في سياق دعوتهما الى اصلاح المجتمع ، الى التنبؤ بصيرورة العالم الى سلام دائم : «لا ترفع أمة على أمة سيفا»، وبانتشار العدل والحق في كل الدنيا، اذ «تنطلق التوراة من صهيون ، وصوت الله من أورشليم» . وواصل صفانيا بن كوشي جهود سابقيه بامانة واخلاص . وأصبح يرمياهو بن حلقياهو الذي أعتقل وعذب اكثر من مرة رمـزا لتفاني النبـي في اداء رسالته . وعبر ناحوم الألقوشي عن فرحة يهودا بسقوط دولة أشور (والتي سرعان ما ورثت مكانها وأحابيلها مملكة بابل) . أما النبي حبقوق فلم يتضح ان كان قد عاش ابان عهد الهيكل الاول أو الثاني .

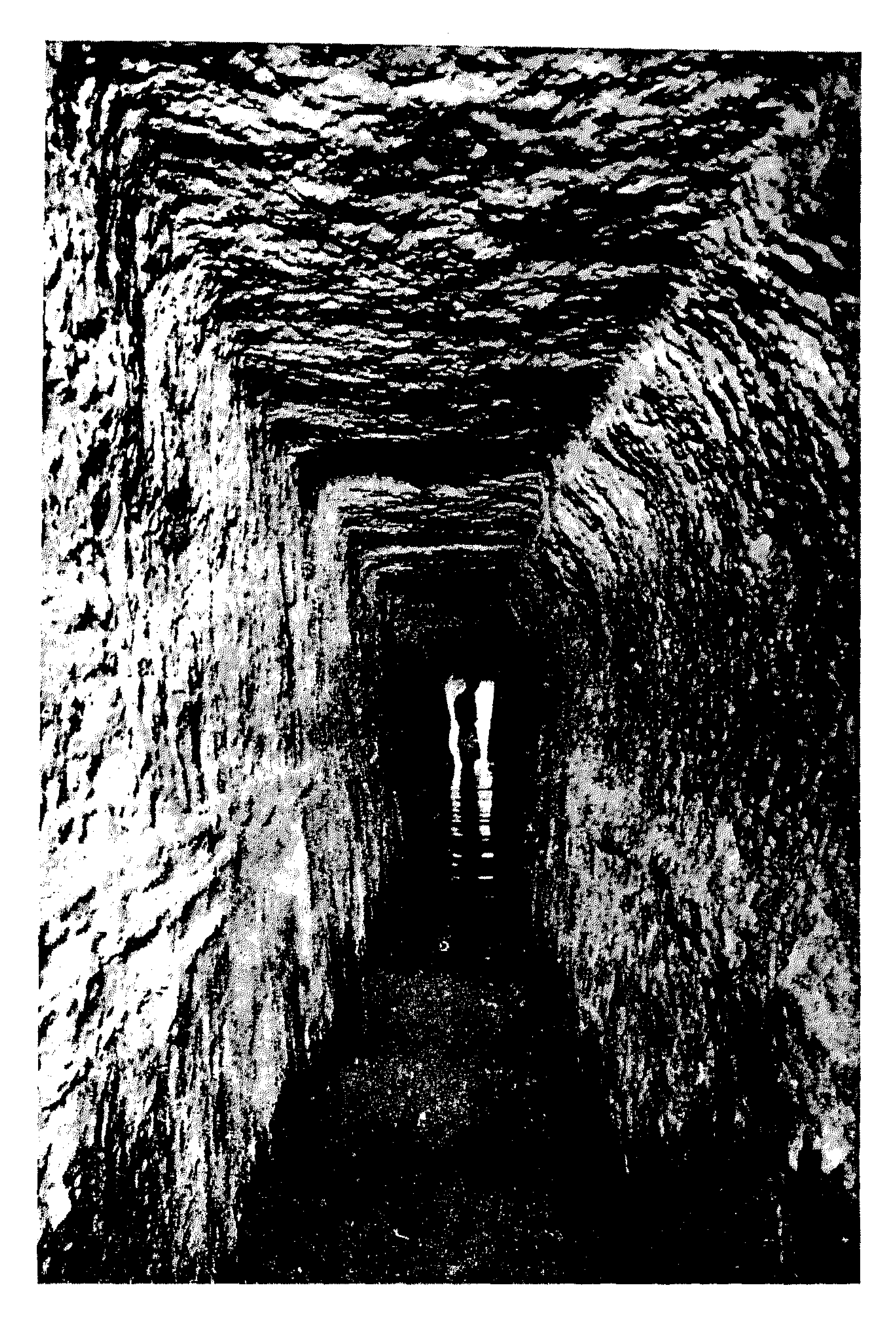
حصل خراب مملكة يهودا على أيدي البابليين في غمرة عمل الانبياء ، وواصل هؤلاء دعوتهم في أوساط اللاجئين والمنفيين . كان يرمياهو في عداد اللاجئين الى مصر . وعمل عوفاديا على تشجيع أولئك الذين انتشروا

في ربوع لبنان ، وفي أماكن أخرى قريبة من البلاد • ولكن غالبية وجهاء الشعب ، ومثقفيه ، وجنوده نفوا الى أرض بابل ، حيث قام هناك النبي يحزقيل بن بوزي الكاهن ، لم يكتف هذا بالتأنيب على مساوىء الماضي ، وبالتفاؤل بخصوص المستقبل ، وانما حاول وضع خطة لحياة قويمة للشعب حين يعود الى بلاده •

الملوك الأواخر يؤيدون الانبياء

ازداد تأثير أنبياء يهودا في حينه على أبناء الشعب بفضل تعضيد من الملكين حزقياهو ويوشياهو وما بذلاه في مكافحة العبادات الوثنية والمنابر ، وحثهما الشعب على الحج الى الهيكل المقدس ، ودعم مكانة أورشليم كمركز روحاني للشعب كله • وقد اشتهر حزقياهو بحفر نفق شيلوح (السلوان) لتزويد أورشليم بالمياه وقت الحصار • وفي هذا النفق عثر على لوحة سجل عليها هذا العمل الهندسي الجليل ، هي «لوحة هشيلوّاح» الموجودة حاليا في متحف استانبول • بسط يوشياهو سلطانه على جبال الشومرون أيضا ، مستغلا فرصة أفول نجم الدولة الآشورية • ولكن ، وبعد أن وقع في أيدي غزاة مصريين ، بدأ نجم دولته هي الاخرى في الأفول • وقد بقيت لنا من أيام الحرب الاخيرة مع البابليين «وثائق لخيش» (مدينة محكمة التحصين صمدت وقتا طويلا) وهي عبارة عن رسائل قواد الجيش أثناء الحصار ، وقد كتبت بالحروف العبرية القديمة •

بعد سقوط المملكة وخراب الهيكل المقدس ، جرت برئاسة جدالياهو بن أحيقام محاولة لاقامة نظام حكم ذاتي في يهودا ، واعادة بناء الدولة بحماية البابليين ، غير أن هذه المحاولة فشلت على أثر مصرع جدالياهو على أيدي جماعة من اليهود المتطرفين ، لم يغفروا له خطيئته المتمثلة في موافقته على أن يكون مندوبا مفوضا من قبل البابليين • تملك اليأس روح الشعب : «أصبح موطننا ملكا للدخلاء ، وبيوتنا للغرباء ، واظلمت الدنيا في أعيننا ، وعلى جبل صهيون الذي خرب عاثت الثعالب فسادا» • ولكن ، وبتأثير الأنبياء ، سرعان ما أخلى اليأس مكانه للثقة بالمستقبل • أقام منفيو بابل المتشردون جاليات منظمة ، وكنسا كانت مراكز للعبادة وللحياة العامة • وأخذ هؤلاء ينسخون تعاليم التوراة



نفق الشلوح القائم حتى اليوم ، وفي مخرجه طيف لاحد الناس .

والأنبياء، وينشرونها بين اخوانهم، وهكذا غدا سبيلهم بمثابة فترة اعداد روحاني من أجل بعث يهودا ٠

اجمـــال

عندما أقيم البيت المقدس الأول ، كانت مملكة اسرائيل قد بلغت ذروة القوة السياسية ، والتوسع الجغرافي ٠ حين خرب البيت (استمر قيامه نحو اربعة قرون) لم يبق من معالم السيادة شيء ٠ وبقيت فلول الشعب كسيرة في أماكنها ، وأصبح جانب منه منفيا صامدا في بلاد بابل ، حين أن من سبقه الى النفي في بلاد الاشوريين قد ذاب أغلبه ٠ وهكذا نرى ان نتائج الانقسام كانت وخيمة ، ولكن الانبياء أنقذوا الجوهر ، وهو رغبة الشعب في كيان ذاتي وفي ممارسة الحرية الروحانية والفكرية معا ٠ أنقذ الأنبياء تركة النبي موسى ، وبفضلهم أصبح الخــراب والاســتعباد والنفي أزمات عابرة فقط ٠

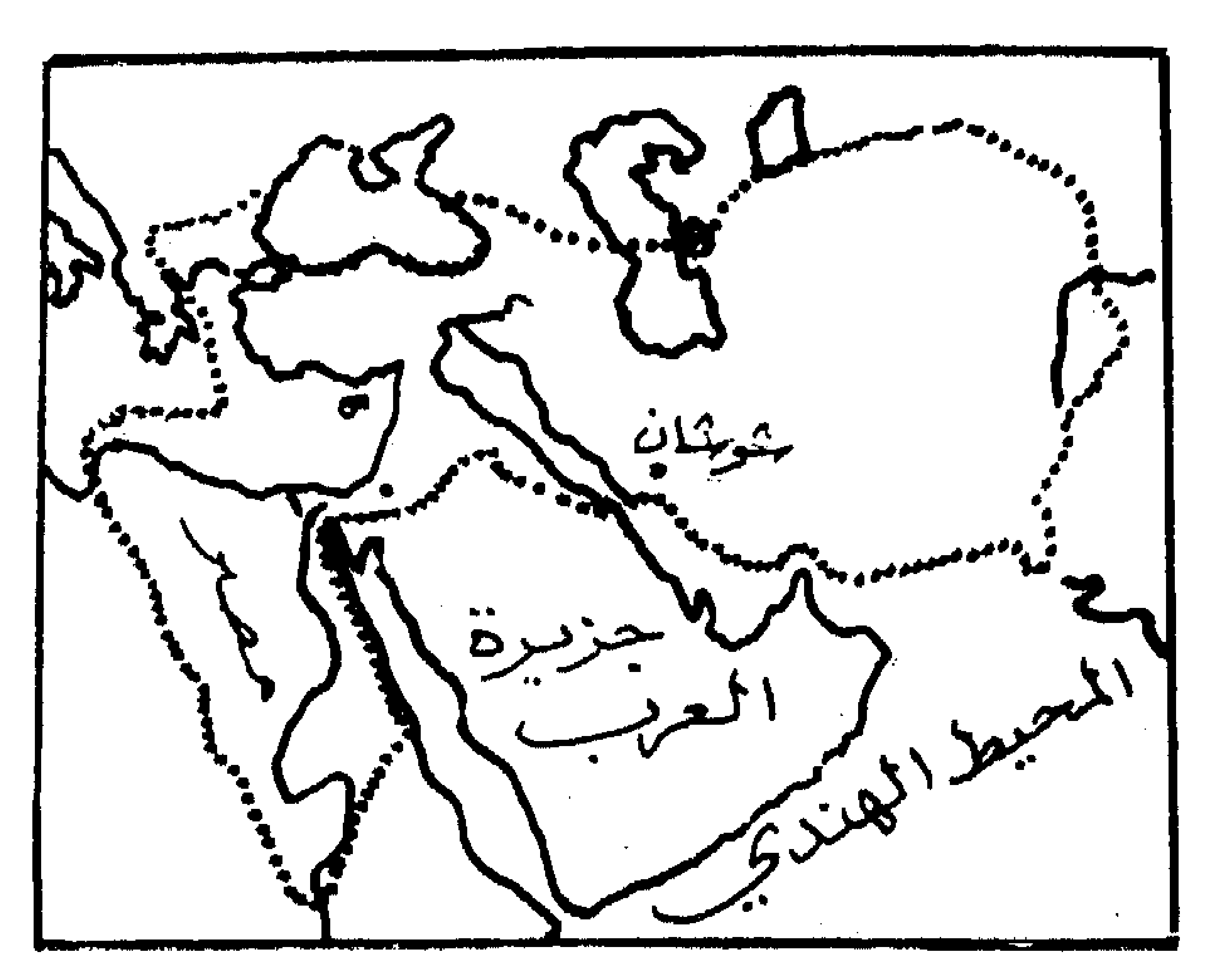
الفصل الرابع

عودة صهيون والهيكل الثاني

الهيكل الثاني

في عام ٥٨٩ قبل الميلاد سقطت بابل في أيدي الفرس الذين لم يكن قد مضى طويل وقت على اقامتهم لدولتهم القومية • ورث كورش الفارسي مملكة بابل الكبرى، وسعى الى اكتساب تقدير وولاء الشعوب التي اضطهدها البابليون ابان حكمهم الغاشم ، لكي تخلص له هذه الشعوب وتسهم في بناء مملكته • اعتاد الاشوريون والبابليون أن يدنسوا ويخربوا مقدسات الدول التي احتلوها ، فعكس كورش الآية ودأب على احترام وتقدير مقدسات كل شعب وزعماءه الروحانيين • أعتبرت كل عبادة ضمن حدود مملكة فارس وكأنها عبادة الملك اياه ، واقتطعت تكاليفها من حساب الضرائب العامة المحلية • واعتبر كهنة الطوائف زعماء لطوائفهم ، فشجعوا طوائفهم على تأدية الفرائض الدينية • تمشيا على هذه القاعدة أصدر كورش بيانا سمح فيه لليهود بالعودة الى بلادهم واعادة بناء بيت المقدس •

كان هذا التصريح من جانب كورش بداية عهد جديد في تاريخ الامة اليهودية ، عهد الهيكل الثاني • امتد هذا العهد على فترة زمنية أطول من عهد البيت الاول ، فقد استمرت نيفا وستة قرون • طيلة معظم سني هذه الفترة ظل اليهود خاضعين للحكم الاجنبي ، غير أنهم مارسوا الحرية في شؤونهم الداخلية ، تبعا لما سار عليه كورش بالنسبة للديانات الاخرى • رأس القوم الكهنة وفي مقدمتهم الكاهن الاكبر الذي اشرف على العبادات والمراسيم والقرابين في الهيكل • كان هؤلاء الكهنة ينتمون الى الكاهن صادوق الذي عاش ابان حكم الملك سليمان ، ثم خلفتهم جماعة أخرى من الكهنة ، تنتمي لبيت الحشمونائيم •

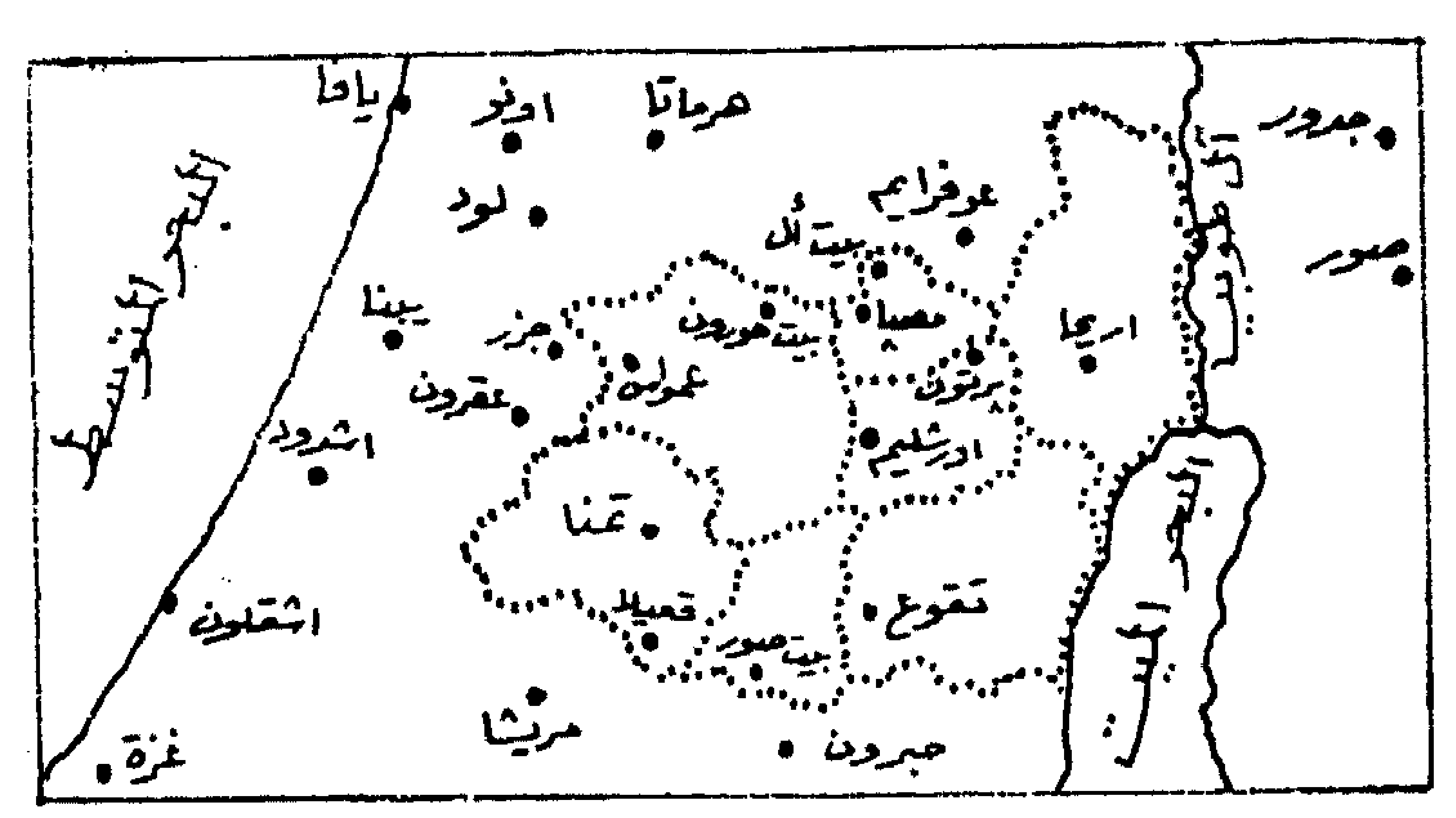


يشير الخط المنقط الى امبراطورية الفرس في اوج اتساعها ·

وسنتحدث الان عن القسم الاول لهذه الفترة التأريخية وهو الذي يتضمن عودة صهيون (وصهيون هو الجبل الـذي قامت عليه أورشـليم آنذاك ، وقد أصبح رمزا للامة اليهودية وبلادها قاطبة) ويتضمن ايضا فترة زعامة الكهنة من آل صادوق· حين سمح كورش لليهود بالعودة الى بلادهم، كان بين العائدين واحد من نسل داود ، هو زروبابل بن شئالتئيل الذي عين مندوبا على يهودا من قبل الملك الفارسي · لـم يفلح هـذا في توريث منصبه السامي لابنائه أو أحفاده بسبب تخوف الفرس من آل داود وظنهم انهم عقدوا العزم على تجديد استقلال المملكة· بعد اقصاء آل داود أصبح الكهنة الكبار هم الزعماء الطبيعيون للطائفة اليهودية ، وان حرص الفرس في البداية على تعيين مندوبين مفوّضين الى جانب الكهنة · وصلتنا المعلومات الموثوق بها عن واحد فقط من هؤلاء المفوضين ، هو نحاميا بن حخاليا ، وهو أحد الشخصيات اليهودية البارزة ·

الحلم وخيبـة الأمـل

حين حصل اليهود على تصريح كورش ، لم يكن حد لفرحتهم · خيل اليهم أنهم حظوا أخيرا بالفكاك التام · وحين كان اليهود يذكرون تلك الأيام



المنطقة التي استوطنها العائدون في بادىء امرهم ، وتقسيماتها الداخلية • وكانت لعائلة آل طوبية إمارة في شرقي الاردن •

في وقت لاحق ، قالوا : «لما أعاد الربُّ صهيون ، كُنا كالحالمين ، حينذاك امتلأت حناجرنا ضحكا ، ولهجت ألسنتنا بالفرح» (المزامير) •

ولكن سرعان ما كانت خيبة الأمل ، اذ اتضح لجمهور العائدين ان الملك الفارسي منحهم فرصة العودة وبناء الوطن من جديد ، غير أن عملية البناء ومسؤوليته القاها على عاتق الشعب العائد وحده • أخذ الشعب على عاتقه القيام بهذا العمل مدفوعا بالاعتقاد بأن «من يزرع بالدموع ، سيحصد بالفرح» • وبعد برهة ، اتضح لهم أنه حتى أعمال الحراثة والزراعة ليست ميسورة ، اذ دأب المستوطنون الغرباء في الشومرون ، والأدوميون الذين سيطروا على جنوب يهودا ، والعمونيون الذين احتلوا موطن سبط جاد ، وفلول الفلشتيين وبوادر العرب سكان الصحراء — دأب هؤلاء كلهم على التعرض لليهود العائدين ، وعرقلة اعمالهم ، والوشي بهم لدى حكام الفرس • زاد الفرس وطأة الضرائب على العائدين اليهود ، حتى تكوّن عند هؤلاء الاعتقاد «بأنهم اليوم عبيد» في بلادهم • كان نقل الاخبار الملفقة عن اليهود ، والتي قالت بأن هؤلاء يتأهبون للتمرد على الحكم الفارسي ، سببا في تأخر اكمال بناء الهيكل المقدس وسور أورشليم الذي ظل ناقصا حتى جاء نخاميا ، واعاد بناءه •

تحطمت آمال العائدين على صخرة الواقع الجديد • كانت مصاعب الحياة والعيش في البلاد المهدمة كثيرة وكبيرة• انجرّ البعض وراء أهوائهم الشخصية ، ومصالحهم الفردية ، حتى قادهم هذا الى التحالف مع الجيران المتربصين ، على حساب العائدين البُناة ، وكونوا «طابورا خامسا» في وسط الشعب العبري العائد • كثرت الزيجات المختلطة أيضا ، وازداد عدد الذين أصبحوا يتكلمون لغات أجنبية• أدت مصاعب الاستقرار الى بطء سير تيار العودة الى صهيون • أفلح العائدون في استيطان القطاع المحيط بأورشليم فقط : من بيت إيل (قرب رام الله حاليـا) في الشـمال حتى بيت صور (شمالي الخليل) في الجنوب ، ومن اللد في الغرب حتى أريحا في الشرق •

حتى اليهود الذين بقوا في المهجر لم يسلموا من الاذى ، فقد وجد في الاوساط الحاكمة في فارس وبابل من أبغضهم لتمسكهم بدينهـم • ولعـل قصة استير وهـامـان يعـود تاريخهـا الى هـذه الفتـرة • تقول هذه القصة ان أمرا قد صدر ابان حكم الملك أحشويروش بابادة جميع الرعايا اليهود القاطنين في مملكة فارس • كان هذا الأمر التعسفي نابعا من كراهية وحقد تأصلا في نفس الوزير هامان لليهودي مردخاي • وقد تيسر انقاذ اليهود بفضل تدخل الملكة إستير التي ظلت تخفي أصلها اليهـودي حتى يوم صدور هذا القرار التعسفي• وتخليدا لهذه الذكرى يحتفل اليهود كل عام بعيد بوريم •

المُرشـدون

كان من حسن حظ العائدين أن قام من بينهـم معلمون ومرشـدون كبار • نعم ، ان النبي الذي حث اليهود في بابل على العودة الى وطنهم بعد اعلان تصريح كورش كان كذلك شريكا لآمال ابناء جيله في الانقاذ العاجل والكامل • لم يُحفظ اسم هذا النبي ، فجرت العادة على تسميته باسم «يشعياهو الثاني» ، وذلك بسبب اضافة ما حُفظ من أقواله الى سفر يشعيا الاول هو بن أموص الذي عاش ابان عهد الهيكل الأول • ولكن ايام المحن التي أعقبت العودة أولدت أيضا أنبياء آخرين عملوا على بث روح التشجيع في أوساط العائدين الى صهيون • حث النبيان حاجاي وزخاريا

الشعب على اكمال بناء الهيكل بالرغم من كل المصاعب ، وحذر ملاخي من تجاهل احتياجات بيت المقدس ، ومن الزواج المختلط ٠

ولكن ساعة الانبياء مالت الى الزوال ، اذ لم تعد ثمة حاجة للكفاح والنضال من أجل ادخال قيم شريعة موسى الى نفوس أبناء الشعب ، بعد أن تأصلت هذه القيم طيلة سبي بابل ٠ كان الشعب في البلاد بحاجة الى التنظيم لا الى التلقين ، وكانت الحاجة تدعو الى نوع آخر من الزعماء — الى زعماء يجمعون بين موهبة التأنيب النبوية ، وبين موهبة العمل والجد ٠ وقد قام مثل هؤلاء الزعماء في موجات جديدة من العائدين ٠

كان عزرا الكاتب أحد هؤلاء الزعماء ، وقد عاد الى البلاد على رأس جماعة من العائدين من أرض بابل ٠ أثار عزرا حركة واسعة وحازمة ضد الزواج المختلط ، وأراد أن يجعل من التوراة دستورا رسميا يستند اليه الحكم في منطقة يهودا كلها ٠ ثم شهدت البلاد زعيما آخر ، أكثر حزما وجرأة ، ذلك هو نحاميا ، الذي أشغل منصبا هاما في البلاط الفارسي في العاصمة شوشان (أطلالها كائنة في الجهة الجنوبية الشرقية من ايران)٠ وصل نحاميا البلاد مزودا بصلاحيات المندوب ٠ وكانت باكورة أعماله حث الناس على بناء سور أورشليم ٠ جرت أعمال البناء في ظل الخوف الدائم من الجيران، فكان كل بنّاء «يبني بيده الواحدة، ويحمل السلاح بيده الأخرى» (نحاميا ٤ ، ١١) ٠ وقد أثر موقف نحاميا الحازم على موقف الجيران المتربصين للعائدين اليهود ، حتى اكتفى هؤلاء بالتهديد ، وبالاستهزاء ، وبمحاولات استهدفت الاساءة الى سمعة نحاميا عند الحكام الفرس ، وعند السكان معا ٠ ولكن نحاميا بشجاعته وموقفه الصامد أحبط كل هذه المحاولات ، وضاعف من تقدير اخوته وابناء جلدته له بعدم استغلاله منصبه لأغراضه الخاصة، وبتغطيته كافة النفقات المتعلقة بمنصبه من ماله الخاص٠

بعد إصلاح السور أوكل نحاميا مهمة رعاية وحراسة أورشليم لسكانها ، وحول اهتمامه نحو تطوير المدينة بأقصى سرعة ممكنة : أمر بنقل عُشر سكان يهودا الى أورشليم ليعيشوا فيها ، نظرا لقلة سكانها ٠ وقد عمل وجود مدينة محكمة التحصين في قلب يهودا على تحسين الوضع الأمني في يهودا كلها ، الا أن نحاميا أدرك أن روح الشعب أهم حتى من



ضريح العزير (عزرا الكاتب) على حافة نهر الدجلة في العراق

التحصينات ، لهذا ادخل في نفس كل مواطن الشعور بأنه انما يعيش في وطنه ، وبين اشقائه • قضى على عادة الاستيلاء على ملك الفقير أو على ابنائه في حالة عدم وفائه للدين الذي عليه (وهي عادة سرت بين الشعوب الاخرى في ذلك العصر) • عوّد نحاميا الشعب على الطاعة القومية ، وعلى الالتزام بدفع الضرائب ، واعالة القائمين على شؤون الهيكل المقدس ، واحترام قدسية يوم السبت • وقضى كذلك على ما تبقى من حالات الزواج المختلط التي لم يفلح عزرا في القضاء عليها •

أيـام «الكنيست الكبرى»

بمساعدة نحاميا ، تحمس عزرا للعمل • جعل قراءة التوراة في المناسبات الدينية وفي السبوت واجبا على الجميع ، وهكذا تعرف كل فرد على شرائع شعبه وثقافته • تلا عزرا التوراة ، للمرة الاولى ، وامام الشعب في رأس السنة ، وفي عيد المظلة ، وتخليدا لذكرى فرحة الشعب بتلك

الأيام ، جرت العادة على الاحتفال سنويا بعيد التوراة في نهاية عيد المظلة ·
في أعقاب تلك القراءة الاولى ، جرى اجتماع حافل ، وقع في ختامه المجتمعون على وثيقة تنص على وجوب صيانة شرائـع التوراة · اكتسـبت هـذه الاجتماعات منذ ذلك الحين شكل مؤسسة ثابتة ، وضعت لها هدف تسيير حياة الشعب بروح التوراة ، وحل المشاكل المترتبة على ذلك · عرفت هذه المؤسسة باسم «الكنيست الكبرى» (نسبة اليها سمي البرلمان الاسرائيلي باسم «الكنيست» وعدد أعضائه ١٢٠ كعدد أعضاء «الكنيست الكبرى») ·

ظلت حياة يهودا هادئة طيلـة الفترة التي خضعت فيهـا للحـكم الفارسي ، وقام الكهنة الكبار بتمثيلها في الخارج ·· ونظمت «الكنيست الكبرى» شؤونها في الداخل ·· ومارست جماهير الشعب أعمالها ، وخاصة الأعمال الزراعية · كرّس يوئيل ، وهو نبي ظهر في يهودا آنذاك ، دعوته لدعم روح الشعب، وتشجيعه، وخاصة حين تعرضت يهودا لغزو الجراد · وبفضل العمل الدائب المخلص تأصل في نفوس ابناء يهودا الشعور بالثقة وبالارتياح · قالوا يصفون أنفسهم : «طوبى لك اذ تأكل من عرق جبينك · زوجتك كدالية مخصبة قُدّام بيتك ، وابناؤك كأغـراس الزيتون حـول مائدتك» (مزامير ١٢٨ ، ٢ ـ ٣) ·

هكذا ازداد السكان ، وازدادت مع ذلك الثقة والشعور بالأمن · كان اليهود على استعداد للذود عن أنفسهم عند الحاجة ، كنشوب اضطرابات في مملكة فارس · وعُرف عن اليهود ، بما فيهم يهود المهاجر ، كونهـم محاربين اشداء · وقد بقيت لنا وثائق من حامية يهودية عسكرية ، قامت في مدينة يبب في جنوب مصر · وكان قد أوكل الى هذه الحامية أمر الحيلولة دون تسرب القبائل السودانية الى مصر وكانت آنذاك خاضعة للمملكـة الفارسية ·

بعد مضي نحو قرنين على سقوط بابل في يد كورش ، سقطت مملكة فارس في يد الاسكندر المقدوني · كان المقدونيون الذين سـكنوا شمالي اليونان شعبا محاربا · لم تكن لهم حضارة خاصة بهـم ، فقد اقتبسـوا الحضارة اليونانية التي بلغت آنذاك ذروة ازدهارها وانتشارها · والأطلال والتماثيل وكتب العلوم والشعر اليـونانية القديمة مـا زالت تبعث على

الاعجاب والتقدير حتى يومنا هذا · اعتز اليونانيون بحضارتهم ، واعتبروا أنفسهم أصحاب حضارة لا تضاهى في العالم كله · كانت الشعوب الاخرى متخلفة في نظرهم ، ولهذا استهدف اليونانيون وضع هذه الشعوب تحت جناحي الحضارة اليونانية ، مثلما فعلوا مع المقدونيين · رأى الاسكندر المقدوني نفسه ممثلا لهذه الحضارة فعمل دائبا على نشرها في مملكة فارس المحتلة ، ولكنه حرص على عدم اثارة حفائظ الشعوب بأن ابتعد عن المعاملة السيئة التي تحمل طابع التحقير ·

على هذا النمط سار قواده من بعده، وهم الذين قسّموا بينهم المملكة الواسعة بعد وفاة الاسكندر الكبير · وأصبح هؤلاء القواد فيما بعد آباء لسلالات حاكمة · خضعت يهودا في بادىء الأمر للسلالة التي حكمت مصر، من آل تلمي (البطالسة)، وكانت عاصمتهم الاسكندرية· وهنا قامت جالية يهودية كبرى تكلمت اليونانية كسائر ابناء المدينة ، وسيّرت حياتها الثقافية اليهودية بهذه اللغة · وفي يهودا ذاتها سارت حياة الشعب في شكلها السابق ، وكان شمعون الصّالح (وهو ابرز الكهنة من آل صادوق) واحدا من أعضاء «الكنيست الكبرى» ، ومعلّم المخلصين للتوراة في الاجيال اللاحقة · الا أن عدد الضليعين في الحضارة اليونانية والمنجذبين اليها كان كبيرا حتى فييهودا ذاتها· وحين انتقلت السلطة علىأرض يهودا الى السلالة المقدونية الثانية أي السلوقيين الذين حكموا سوريا من عاصمتهم انطاكيا، (في تركيا ، قرب الحدود السورية) حظي المتيوّنون (المتشربون بثقافة اليونان) في يهودا بالتأييد الفعلي التدريجي من جانب السلطة ·

كان الاصطدام بين المتيوّنين وبين المخلصين للتوراة مثلثا : كان قوميا – لأن المتيونين انصهروا وكانوا على استعداد لتذويب شعبهم في البوتقة اليونانية · فقد تكلم هؤلاء اليونانية ، وغيّروا اسماءهم ، واتبعوا عادات اليونانيين ، ونادوا بالكف عن الاستعانة بالتوراة كقاعدة للحياة في يهودا · وكان الاصطدام دينيا – لأن المتيونين المتطرفين حاولوا ابطال الايمان بالوحدانية الالهية لصالح الآلهة اليونانية· وكان الاصطدام اجتماعيا – لأن المقدونيين منحوا حقوق الرعوية الحقة فيممالكهم لاولئك الذين انصهروا في بوتقة الحضارة اليونانية ولغتها من سكان المدن ، في حين كان سكان

الفرى (الذين حافظوا على لغتهم، وعلى تقاليدهم) مستعبدين لهؤلاء• كان المتيونون في يهودا هم أبناء أورشليم الذين اكثروا من الاتصال بالأجانب بحكم مشاغلهم ومراكزهم ، وحاول هؤلاء تحويل أورشليم الى مدينة يونانية نموذجية واستعباد اليهود سكان القرى •

إجمال

بعد مضي ٣٧٢ عاما على بدء عودة صهيون، بلغ التصادم بين المتيونين والمتمسكين بأهداب التوراة ذروته • لجأ الحكم الأجنبي الى استخدام قوة الاخضاع ، ليجعل النصر في كفة المتيونين • وكما حدث في ايام أحئاب ، بُذلت محاولة للقضاء على الدين الخاص باليهود ، ولكن هذه المحاولة دُعمت في هذه المرة بجيش أجنبي • غير أن سكان يهودا لم يكونوا هذه المرة مثل أولئك العائدين ــ الحالمين القليلي العدد ، الذين عادوا مع تصريح كورش• ان جهود الاجيال ودعوات الانبياء وجهود رجال «الكنيست الكبرى» وعبرة حزم نحاميا ، ومعرفة التوراة المتأصلة في نفوس الجماهير ــ هذه العوامل كلها تجمعت وجعلت من يهودا قوة عددية واقتصادية وروحانية قادرة على مجابهة المارقين والخوارج ومؤيديهم من الأجانب •

الفصل الخامس

الحشمونائيم ، وبيت هوردوس

حكم أنطيوخوس

كان الصراع بين المتيونين والمتمسكين بالتوراة في يهودا سببا تذرع به انطيوخوس ابيفانس ملك سوريا لالغاء الحكم الذاتي في يهودا • عيّن هذا كهنة كبارا من المتيونين المخلصين له • في عام ١٦٧ قبل الميلاد حدثت في أورشليم موجة احتجاج شعبية عارمة ضد الكاهن الكبير مينيلاوس (لا يعرف اسمه العبري) ، وفي أعقاب اخماد هذه الحركة الاجتماعية سعى انطيوخوس الى اضطهاد المتمسكين بالتوراة وتحقيق مطالب المتيونين المتطرفين • وهكذا أصبح الهيكل المقدس معبدا للاله اليوناني الكبير زفس• حصل أبناء أورشليم المتيونين على امتيازات سكان المدن اليونانيين من الملك ، وعلى حقهم في حمل اسم «الأنطاكيين» (كأبناء عاصمة الملك) • بقي في أورشليم أبناء هذه الجماعة فقط ، وبعض اليونانيين • كان هؤلاء أقل من أن يملأوا الاحياء المهجورة ، ولهذا أشعلوا النار فيها ، وتركزوا في الجزء المحصن «حقرا» •

وُزعت أراضي يهودا منقبل الملك على «الأنطاكيين» فتحوّل المزارعون الى أُجراء وأُمروا بالعزوف عن ديانة موسى • الا أن قناة الشعب لم تلن، وروحه لم تنهزم • تشكلت حركة سرية هي حركة «الحسيديم» التي دعت سكان يهودا الى التمسك بالتقاليد وبالقيم القومية والدينية • أُلّفت كتب بهذه الروح ، مثل كتاب دانيال الحكيم الذي تمسك ابان حكم البابليين والفرس بعقيدة آبائه بالرغم من كل ما تعرض له من الملاحقة، والاضطهاد، وتنبأ بما سيفعله انطيوخوس ، وبعملية الانقاذ التي ستعقب ذلك • وسرعان ما انتقل «الحسيديم» من مرحلة الايضاح والدعاية الى الثورة الحقيقية • أعطى اشارة الانطلاق لهذه الثورة متتياهو ، من عائلة

الحشمونائيم وهم كهنة استوطنوا قرية موديعين شرقي اللد · وقد تمكن متتياهو هذا من اجتذاب الاف الفلاحين من أبناء المناطق المجاورة الى ثورته·

ثورة الحشمونائيم

دامت الثورة خمسا وعشرين سنة وانتهت بنجاح تام : فقد اعترف الملوك السلوقيون باستقلال يهودا· وفي غضون ذلك تعاقب قواد الثورة· فبعد وفاة متتياهو الذي رأس الثورة في بدايتها ، جاء ابنه يهودا همكابي ، وهو أحد القواد الاكفاء الملهمين الذين عرفهم الشعب الاسرائيلي · قاد يهودا الثوار الى الجبال المحيطة بأورشليم واستعان بطبيعة المنطقة الجبلية في شن حرب عصابات (حرب غريلا) لقطع خطوط المواصلات بين أورشليم وبين القواعد السورية القريبة من يهودا ، وخاصة على الساحل ·

حاول السوريون استقدام النجدات من قواعدهم الى أورشليم مستخدمين طرقا عدة، الا أن هذه النجدات فشلت في كل الحالات في الوصول الى أهدافها ، فقد أنزل بها الثوار المكابيون الضربات الكاسحة كلما دخلت منطقة الجبال · تمكن يهودا المكابي بفضل سيطرته على ضواحي أورشليم من احتلال المدينة المحاصرة باستثناء قلعة حقرا ، قبل أن يمضي عامان على اندلاع نار ثورته· طهّر الجنود اليهود الهيكل المقدس، وجدّدوا تدشينه· وتخليدا لذكرى تطهير البيت وتدشينه يحتفل الشعب في كل عام بعيد الحانوكا (عيد الأنوار ـ حانوكا تعني تدشين باللغة العبرية)·

في أمسيات العيد الثماني ، يوقد اليهود الشموع تخليدا لذكرى المعجزات التي حدثت لآبائهم في تلك الايام · تقول الاسطورة أن الكهنة وجدوا في الهيكل كوزا صغيرا واحدا فقط احتوى زيت انارة لم يدنسه السوريون ، ولكن حدثت المعجزة واشتعل الزيت أياما ثمانية ·

حين اتضح للسوريين عدم قدرتهم على قمع الثورة ألغوا اجراءات انطيوخوس ، وأعدموا الكاهن مينيلاوس في محاولة لتهدئة خواطر ذلك النفر من «الحسيديم» الذين لم يثوروا الا بسبب الاجراءات المناهضة للدين · انسحب هؤلاء من صفوف جيش يهودا المكابي ، وعادوا الى قراهم مدفوعين بالاعتقاد بأن أهداف الثورة قد تحققت · أما يهودا المكابي فقد

واصل الحرب في سبيل الاستقلال الكامل· بقي معه عدد قليل من المحاربين ولهذا هُزم وقتل في المعركة · انسحبت فلول جيشه من الجبال الى صحراء يهودا وعلى رأسها أخوه يونتان · لم يكن انهزام المكابيين سوى ظاهرة عابرة ، اذ رفض هؤلاء الاستسلام، ومددوا الحرب حتى اندلعت اضطرابات في مملكة سوريا · هذه الاضطرابات صرفت انظار الحكام السوريين عن مقاومة الثورة المكابية ، وراح المتنافسون على الحكم في سوريا يستميلون المكابيين اليهم مقابل امتيازات وحقوق وعدوهم بها · تمخضت هذه الحال عن اعتراف السوريين بيوناتان ككاهن أكبر وايكال أمر ادارة يهودا اليه · وأفلح شقيقه شمعون ، الذي خلفه ، في احتلال قلعة حَقْرا ، ، واحراز الاستقلال الكامل ليهودا· اختار الشعب بواسطة «كنيستالشعب» شمعون رئيسا وقائدا عاما وكاهنا أكبر ، وأصبحت هذه المناصب الثلاثة ، تنتقل بالوراثة ، الى ابنائه ·

استعان الرئيس بمجلس رؤساء الشــعب ، الذي ســمي فيما بعد «سنهادرين» (كلمة من أصل يوناني، معناها «مجلس الشيوخ» أي الوجهاء). كان هذا المجلس يبت في الشؤون المختلفة للدولة والشعب ، وكان كذلك بمثابة محكمة عُليا · وعلى المصكوكات النقدية التي صكها الحشمونائيم ورد الى جانب اسمهم ، عبارة «جماعة اليهود» ، ويعتقد معظم الباحثين بأن المقصود بهذا هو مجلس السنهادرين ·

توسع الدولة الحشمونائية

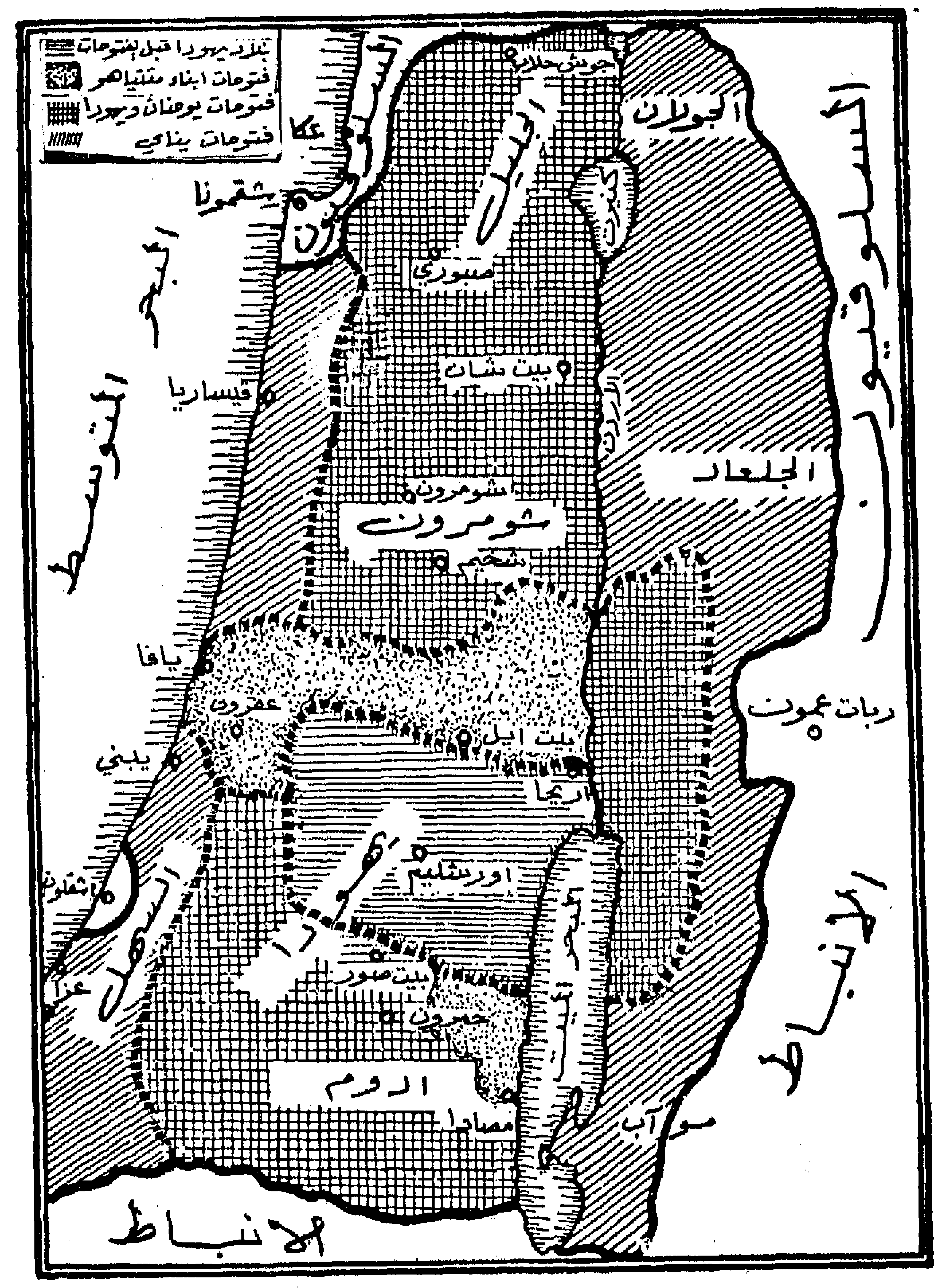
واصلت الشعوب اطلاق اسم «يهــودا» على دولة اليهود المتجددة ، ولكن هذه الدولة سمت نفسها (على المصكوكات النقدية) باسم «اسرائيل»· وبالفعل ، عمل شمعون ، ويوحانان هورقانوس ، ويهودا ارستوبولس ، والكسندر يناي ، على توسيع رقعة الدولة حتى شملت معظم أرض اسرائيل التاريخية · كان احتلال جبال الشومرون احتلالا عسكريا فقط ، ذلك ان هذه الجبال استوطنها السامريون الــذين توترت العــلاقات بينهم وبــين اليهود · أما في الجليل فكان الوضع على خلاف ذلك ، اذ لم تلعب هذه المنطقة حتى ذلك الحين أي دور هام في تأريخ شعب اسرائيل · (باستثناء حروب مع الكنعانيين أيام حكم يهوشع والقضاة) · كان الجليل ، آنذاك ،

قطاعا تكسوه الأدغال، ويقل فيه السكان. أما في أعقاب احتلال الحشمونائيم لمنطقة الجليل تكاثرت فيها القرى والبلدان اليهودية .

مع مرور الزمن أصبح للجليليين ميزات شخصية خاصة بين أبناء الشعب اليهودي: شخصية طلائعية، ربيت على مكافحة الطبيعة الجبلية وعلى الصمود في وجه الغزاة ، وامتازت بجرأتها وبثباتها . الا أن بُعد الجليليين عن أورشليم مركز الحياة الروحانية والسياسية للشعب ، فضلا عن أن المنطقة السامريّة عزلت الجليل عن سائر يهودا ، قد كان له اثره في الجليليين . ومع مرور الزمن تبلور لدى الجليليين اعتقاد مؤداه أن أبناء أورشليم يحتقرونهم ، بوصفهم قرويين بسطاء لا يلمّون بالتوراة ، ولم يظهر منهم نبي واحد . ازاء هذا ، نظر الجليليون الى أبناء أورشليم كرجال مُدلّلين ليّنين . وقد برزت نتائج هذا الامر جيدا في أخريات أيام البيت الثاني ، حين أصبح الجليل مركزا للحرب ضد سيطرة الغرباء المتجددة .

احتل الحشمونائيم ، كذلك ، جزءا كبيرا من الاراضي الواقعة شرقي الاردن، وهنا أيضا واكب الاحتلال استيطان، وخاصة في الجلعاد والجولان كان الاستيطان هنا أقل كثافة مما كان عليه الاستيطان في الجليل . غير أن المناطق اليهودية في شرقي الاردن لم تحتل تلك المكانة التي كانت لجبال الشومرون كالجسر الموصل بين يهودا والجليل . وكرس الحشمونائيم جهودا كبرى لاحتلال ساحل البحر واستيطانه ، وجددوا عهد الملاحة الاسرائيلية . وكان السهل الساحلي مأهولا بالمدن الناطقة باليونانية وقد انصهر فيها من تبقى من الفلشتيين والكنعانيين . لهذا لم يصبح الساحل يهوديا مثلما صار الجليل .

لغرض حماية الحدود الشمالية والجنوبية فرض الحشمونائيم التهود على غير اليهود القاطنين ضمن حدود الدولة . كان أولئك المتهودون هم أبناء قبيلة اليطوريين في شمالي الجليل ، والأدوميين في النقب الشمالي (لم يكن النقب الجنوبي ، آنذاك ، في أيدي الحشمونائيم) . وسرعان ما انصهر اليطوريون في جمهور المستوطنين الكبير القادم الى الجليل . ولكن الأدوميين المتهودين ظلوا فئة خاصة لم تحمل معها البركة الى شعب اسرائيل كما سنرى في وقت لاحق. كانت نتائج احتلالات الحشمونائيم تتقرر تبعا



مملكة الحشموناثيم ، والحدود الداخلية تبين توسعاتها

لمدى الاستيطان اليهودي الذي أعقب الاحتلال · منذ أيام الحشمونائيم اتسع نطاق الري في الزراعة اليهودية ، واشتهرت بشكل خاص زراعة التمور والنباتات العطرية في غور أريحا ، كما اشتهرت الحقول المروية في سهل غينوسار ، عند ساحل بحيرة كنيرت ·

التدهور الداخلي

ولكن ، ومع تطور الدولة واتساع رقعتها ، شرع رؤساؤها في محاكاة الملوك المقدونيين المجاورين، وانفوا اعتبار انفسهم زعماء لشعب من القرويين. أطلقوا على أنفسهم أسماء يونانية (مثل هورقانوس ، اريسطوبولوس ، الكسندر) الى جانب اسمائهم العبرية · وفي وقت لاحق صكوا على العُملة عناوين باليونانية وسموا انفسهم «اصدقاء اليونانيين» · سخروا بلقب «الرئيس» الذي منحهم اياه الشعب ، ومنذ عهد يهودا أرسطوبولوس توّج هؤلاء أنفسهم بلقب الملوك ، وبهذا أثاروا حفيظة الشعب الذي آمن بأن المُلك مُعد لواحد من آل داود ، لا لأحد سواه ·

لم يكفر الرؤساء واتباعهم بالتوراة، غير أنهم رفضوا قبول رأي الحكماء (الفقهاء) الذين تمرسوا في التقاليد والنصوص والشرائع شفهيا ، وهي التي تفسر وتكمل هذه التوراة · هذه الفئة من الحكماء التي حظيت بتأييد غالبية الشعب ، سميت باسم الفروشيم (الفريسين) · في حين عُرف مؤيدو الملك، وهم أثرياء وذوو مناصب عالية باسم فئة الصدوقيم · ابان حكم الكسندر يناي استحال التناقض بين الفئتين الى حرب أهلية · وساندت أرملة الملك، وهي الملكة شلومصيون (أو شلوميت) الكسندره ، والتي خلفت زوجها في الحكم ، جماعة الفروشيم الا أنها أخفقت في احداث تغيير جذري في شكل الحكم ·

نشأ من «الحسيديم» الذين ثار اسلافهم في حينه على انطيوخوس نفر ممن حاولوا أن يروا في هذا العالم عالم الخطيئة · لهذا قرروا الابتعاد عنه · هؤلاء هم الأيسيون איסיים · عاش هؤلاء في مجموعات تعاونية ، وخاصة على امتداد السواحل الصحراوية للبحر الميت ، وكرسوا كل وقتهم للعبادة والعمل · كان مجلس السنهادرين حلبة صراع بين جماعتي الفروشيم والصدوقيم ، وظل الايسيون في منأى عنها · عاش الايسيون

عيشة التقشف ، وحرموا على انفسهم تناول اللحم والخمور ، كما انقطعت معظم جماعاتهم عن الزواج • ومعنى اسماء هذه الكتل الثلاث ليس واضحا حتى اليوم ، ولكن الاعتقاد السائد لدى معظم الباحثين هو أن اسم «الأيسيين» هو تحريف لكلمة «الحسيديم» ، والفروشيم (المعتزلة) سموا كذلك لاعتزالهم عن الأجانب الوثنيين وعن المستهينين بشرائع التوراة • أما الصدوقيم فقد سموا بهذا الاسم لان الكهنة من آل صادوق أورثوهم بعض ميول المتيونين المعتدلة •

اجتاحت العائلة الحشمونائية الحاكمة ذاتها منازعات عنيفة حول كرسي الحكم • وبعد موت الملكة شلومصيون دارت حرب بين ابنيها هورقانوس وارسطوبولوس على الحكم • واشار المستشار الادومي المتهوّد انطيباتروس على هورقانوس الاستنجاد بالمملكة الرومانية التي اشتدت آنذاك ، وكانت منهمكة في فرض سيطرتها على الدول الكائنة على امتداد ساحل البحر المتوسط • هذا الاستنجاد وضع حدا لاستقلال اليهود ، اذ فرض الرومان كامل اشرافهم على الدولة بالتدريج وقضوا بعنف على ثورات أبناء العائلة الحشمونائية ، حتى أقصوهم أخيرا عن كرسي الملك ، وسلموه الى هوردوس ابن انطيباتروس ، مكافأة له على تزلفه وتملقه • امتدت فترة حكم الحشمونائيم، منذ اندلاع ثورة متتياهو حتى تنصيب هوردوس ملكا، على نحو مائة وثلاثين سنة : منها خمس وعشرون أنجزت الاستقلال، أعقبتها تسع وسبعون في ظل الاستقلال، ثم ست وعشرين سنة درجتالبلاد خلالها تحت الاشراف الروماني •

آل هوردوس

لم ترض غالبية الشعب الاسرائيلي عن حكم هوردوس لاسباب عدة ، منها انه لم يكن من سلالة داود ولا من سلالة الحشمونائيم ، ومنها انه نُصّب من قبل الرومانيين وخدم أغراضهم ، ومنها انه مال الى العظمة والترف والتجبر والتيوّن • الا ان يهود الجاليات في بابل وفي الاسكندرية وسائر انحاء الامبراطورية الرومانية ، وخصوصا العائلات الكبرى منهم ، كانوا أميل الى تأييده • وقد اسند اليهم هوردوس مناصب هامة •

تـزوج هـوردوس من مـريم الحشـمونـائيـة ليبـدو أمـام الشعب وكأنه الوريث الشرعي للحشمونائيم • ولكن مخاوفه وسوء ظنـه وطغيانه دفعته الى اعدام زوجته وأبنائه الذين ولدوا له منهـا • خـلافا للحشمونائيم ، لم يتمكن هوردوس من الاضطلاع بمنصب الكاهن الاكبر لانه لم يكن من سلالة الكهان مثلهم • لهذا اعتاد اسناد هذا المنصب الى الكهان الذين دأبوا على التزلف والتملق له ، والذين كان يستبدلهم بين الحين والاخر • كره الشعب الملك والكاهن الاكبر معا ، وكان «الرئيس» الحقيقي في نظر الشعب هو كبير حاخامي جماعة الفروشيم . كان ذلك هو هليل الشيخ الذي قدم من بابل ، وأجمل اراءه بالكلمات التالية : «كن محبا للسلام ، ناشدا للسلام ، محبا للبرايا مقربا اياها من التوراة» • وهو القـائل ايضا : لا تفعـل لجـارك ما تكرهـه لنفسـك • بفضل هـذه المبادىء حمى نفسه من الملاحقات، وأورث مكانته فيأوساط الشعب لذريته من بعده طيلة أربعة قرون ونصف القرن تقريبا •

ضم الرومانيون مناطق غير يهودية في السهل الساحلي وفي الباشان والحوران الى حكم هوردوس • ولذا سعى هوردوس الى اعلاء شأن ذاته لدى الاجانب الوثنيين ، فشيد المباني الفخمة في المدن اليونانية القاصية والدانية • ولتحقيق هذا الغرض أثقل بالضرائب على كواهل الشعب • حتى المدينة ـ الميناء الكبرى التي أقامها في مملكته ، جعل منها مدينة أجانب وأسماها «قيسارية» على اسم القيصر الـروماني • كان العمـل المعماري العظيم الذي عمله هوردوس من أجل اليهود هو ترميم وتوسيع الهيكل المقدس • امتد حكم آل هوردوس حتى سنة ٣٨٦٠ عبرية الموافقة ١٠٠ للميلاد • ولكن الرومان ، كعادتهم ، سـمحوا لخلفاء هـوردوس باقتسام ملكه بغية اضعافهم • لم يواصل خلفاؤه أعمال البناء بسبب افتقارهم الى الامكانات ، ولكنهم ورثوا عنه صفات أخرى • ومنهم من ولاه الرومان على اقضيته في سوريا ، وأرمينيـا ، وآسـيا الصغرى ، وانصهروا مع الوثنيين •

شذ عن هذه القاعدة الملك أغريباس ، حفيد هوردوس ومريم ، والذي بسط ملكه لسنوات قليلة على مملكة هوردوس كلها • كان هذا مشبعا بالروح اليهودية الحقة ، ومال الى الفروشيم ، وحاول تدعيم تحصينات



نموذج للهيكل المقدس (البيت الثاني) كما بناه الملك هوردوس

بلاده وأمنها ، غير أنه أخفق في احداث تغيير حاسم في وضعها فبقيت بلادا مكتظة بالسكان، ذات زراعة مزدهرة، ولكنها خاضعة لرقابة أجنبية طاغية، وتعاني من تناقض اجتماعي شديد بين ثراء الأقلية وفقر الأكثرية • ازداد هذا التناقض منذ أخذ ملوك الحشمونائيم والمقربون اليهم في الابتعاد عن الشعب ، وتضاعف ابان الاشراف الروماني • وقاد الدولة الى الانفجار • أخذ الكثيرون يغادرون البلاد ، وأخذت المهاجر الاسرائيلية تنتشر في كل مكان• ولكن ابناء المهاجر حرصوا على العيش طبقا لشرائع شعبهم، وأكثروا

من الحج الى أورشليم والتبرع للهيكل المقدس ، وبهذا أقاموا روابط متينة مع ملوك البلاد · تكلم الكثيرون منهم اليونانية · تلوا التوراة بترجمتها اليونانية التي تمت في مدينـة الاسكندرية المصريـة ، وسميت الترجمـة السبعينية ·

اجمـال

انطلق الحشمونائيم نحو حرب الحرية كزعماء لفـلاحين متمسـكين بأهداب تقاليدهم وقيمهم القومية ، ضد المتصهرين سكان المـدن الأثرياء الذين دعمتهم السلطة الأجنبية · ولكن ، وحين انتصر هؤلاء ، تحولوا الى اثرياء متصهرين وابتعدوا عن جماهير الشعب وعن قيمه وحضارته · لهذا كله ، لم يفلح هؤلاء في المحافظة على الاستقلال الدائم لدولتهم · ومع هذا علينا ان نذكر أن الحشمونائيم أنقذوا كيان الشعب بفضل ثورتهم ، اذ رفعوا عنه حتمية التيوُن وجددوا الحلف التاريخي بينه وبين بلاده كلها (وليس بينه وبين يهودا وحدها) ، وهكذا ظل الجليل يحتل منذ عهدهم مكانة لائقة في تاريخ شعبنا ، كما ظلت ذكرى ثورتهم من ابرز الذكريات التي أوحت بمعاني البطولة والتفاني في اسرائيل · ولقد جلبت هذه الثورة معها بعثا روحانيا وأدبيا ايضا ، اذ ان الحشمونائيم جمعوا المخطوطات الاسرائيلية المقدسة وانقذوها من الضياع – ومنها يتألف الكتاب المقدس وهو أساس الحضارة القومية الاسرائيلية دائما وأبدا ·

الفصل السادس

الصراع بين اسرائيل وروما

بداية الصراع

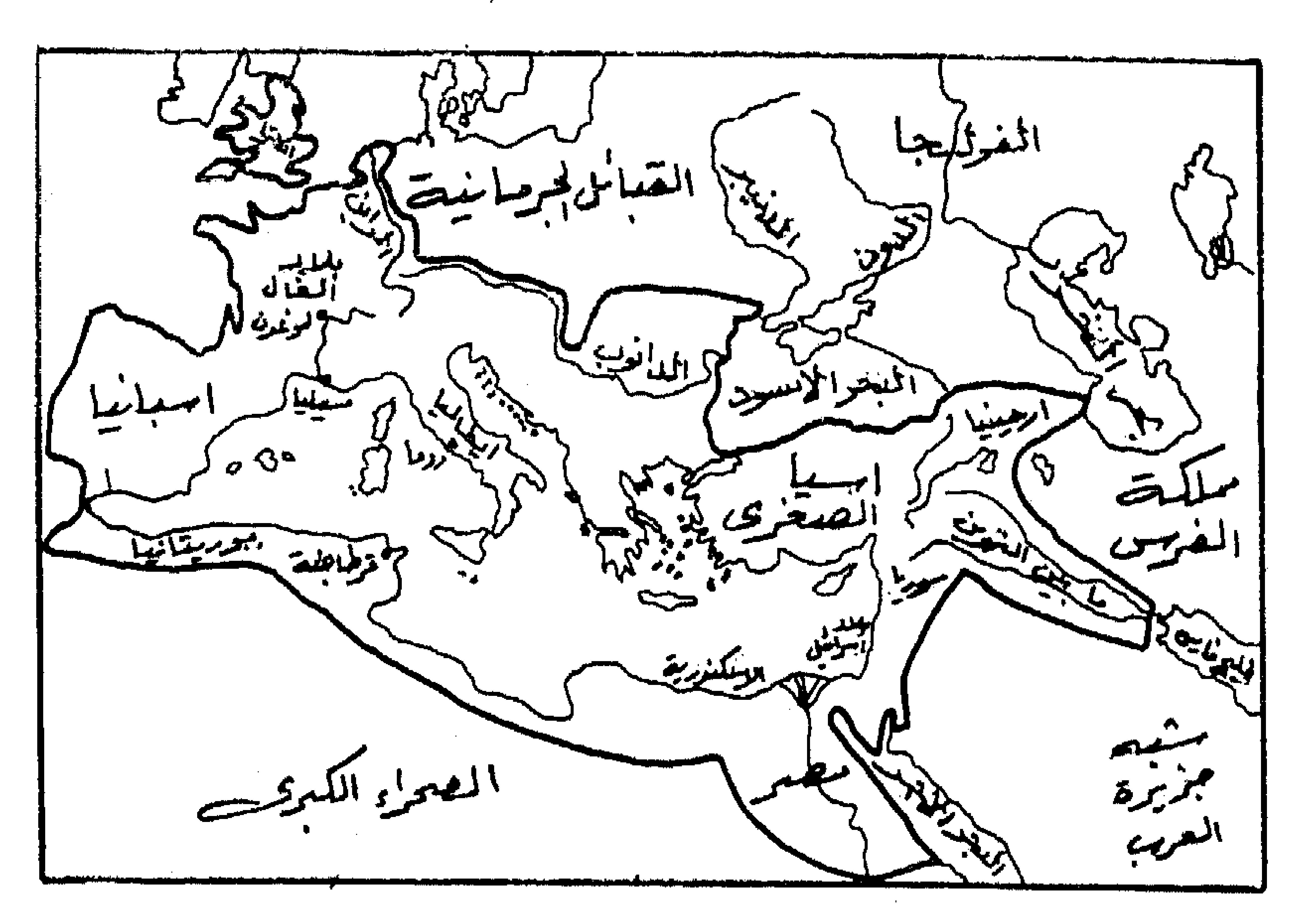
بدا الصراع الاسرائيلي ضد روما ووثنيتها مع قدوم الجيش الروماني للبلاد الاسرائيلية ، لكي ينتصر لاحد المتنافسين على الحكم ، الا انه تخللته هدنة ابان حكم هوردوس • كانت تلك ثلاثا وثلاثين سنة من الحكم البوليسي الظالم ، المركز ، الذي لم يتورع عن قمع أي اضطراب أو محاولة للتمرد • ثم تغيرت الظروف : ظل الحكم غاشما كما كان ، ولكنه كان أقل تركيزا وتنظيما ، ذلك لان البلاد قسمها الرومان بين عدة حكام من آل هوردوس ، ومن المفوضين الرومانيين • تعاقب المفوضون على الحكم ، فحكم كل منهم فترة وجيزة ، ولهذا حصر كل همه في ابتزاز أموال البلاد ونهب خيراتها ليخرج منها بعد ذلك ثريا • وهكذا أذكى هؤلاء بسلوكهم نار الثورات بدل العمل على اخمادها •

كانت السنوات السبعين الفاصلة بين وفاة هوردوس وبين اندلاع الثورة الكبرى ، عام ٦٦ للميلاد ، سنوات نضال مستمر تقريبا • حدثت الثورات من حين لآخر ، الا أن ابرز الظواهر آنذاك كانت نشوب حرب العصابات التي مارستها جماعات صغيرة ، وخاصة في الجليل • وفي الوقت نفسه ، ازدادت حوادث اغتيال الاشخاص المقربين للسلطة • تكونت جماعة كان النضال أساس حياتها وعملها ، وهي المعروفة باسم «هقنائيم ـ الغيورين» • لم تنتظم هذه الجماعة على مدى قطري ، وذلك بسبب عزل الجليل عن يهودا بواسطة المنطقة السامرية • واتسم النضال بطابع اجتماعي ايضا، نظرا للتناقض الكبير بين الثراء الفاحش والفقر المدقع سيما وان الاثرياء كانوا من انصار الحكام • وكان ممن اشتهر بمحاربة الأثرياء، اناس حملوا اسم «السيقاريقيم» أي «حملة الخناجر» وقد تدرب هؤلاء على أعمال الاغتيال •

ظهـور المسيحية

تطلع القنائيون والسيقاريقيون ومن ورائهم الجماهير الى انقاذ شعب اسرائيل ، من الحكم الجائر والوثنية المقوتة ، وكان معنى هذا — تبعا لمفاهيم تلك الايام — ظهور المشيح بن داود · لهذا غمر الايمان بظهور المشيح وترقبه جميع أوساط الشعب طيلة فترة الصراع · وأدى ذلك المرة تلو المرة ، الى ظهور اشخاص ادعى كل منهم بانه هو المشيح المنتظر ، او المبشر بمقدمه · وظهرت احدى هذه الحركات المشيحية قبل اندلاع نار الثورة الكبرى بنحو ثلاثين عاما ، فكتب لها ان تؤثر في وقت لاحق على مجرى الاحداث في العالم كله· اعتبر مبشر هذه الحركة نفسه، وهو الكاهن يوحنان بن زخاريا ، انه بمثابة النبي الياهو الذي أرسل ليمهد السبيل أمام المشيح · اعتاد جمع الناس في سهول أريحا ومخاطبتهم قائلا : «توبوا الى الصواب ، فان ملكوت السماء وشيك التقدوم» ، كذلك اعتاد تغطيس التائبين الملبين لندائه في مياه الاردن ، اشارة الى تطهيرهم ، ولذا كُني فيما بعد بالمعمداني ·

كان من اتباع هذا المبشر شاب اسمه يهوشع (يشو — يسوع) من الناصرة · ولما عاد الى الجليل اخذ يدعو هو ايضا الى التوبة، ووجد له طلابا بين صيادي الاسماك في بحيرة كنيرت ، وافضى اليهم والى سائر المقربين اليه أنه هو المشيح (المسيح) الذي بشر بمقدمه يوحنان · ونظرا للظروف السائدة في ذلك الحين كان كل من يدعي بانه المشيح يجد نفسه بين حجري رحا· الفروشيم من جهة يطالبونه بالحرص على الشريعة ويتوقعون منه البراهين، والرومان يخشون كونه زعيما من زعماء العصيان· وهكذا ولما ذاع صيت يسوع وقدم مع طلابه الى أورشليم حاجا في عيد الفصح، أعدمه الحكم الروماني لادعائه انه «ملك اليهود»· أعدمه الرومان صلبا لان هذه هي الطريقة التي اتبعها الرومان في القضاء على العبيد وعلى الاشخاص الذين حاولوا امتهان الرومان· اما تلامذته فقد ايقنوا ان معلمهم قد عاد الى الحياة وصعد الى السماء ، وانه سيعود الى الارض في يوم ما ، لينهي رسالته ، بعد أن يهدم الرومان أورشليم ، ويدنسوا الهيكل المقدس ·



يشير الخط الاسود العريض حدود الامبراطورية الرومانية في اوج اتساعها ٠

انحصرت الدعوة الى الايمان بيسوع المسيح بادىء الامر بين اليهـود فقط ، ولكن سرعان ما وجهت الى غير اليهود ايضا ٠ وكانت فكرة وحدانية الخالق قد تسربت من اليهود الى سواهم في كافة انحاء الامبراطورية الرومانية، فانتشرت آنذاك بين سكان الامبراطورية ظاهرة الكفر بالآلهة الرومانيـة القديمة ، وبدأ الكثيرون يميلون الى الايمان بوحدانية الرب ، رب اسرائيل، دون ان يتهودوا ٠ ولما لم يجد المؤمنون بمسيحية يسوع أذنا صاغية بين اليهود ، حولوا دعوتهم الى غير اليهود ، فلاقوا نجاحا محسوسا ٠ قال أحدهم ــ هو شاؤول بولص الذي مارس الوعظ بين غير اليهود ــ أن اتباع يسوع هم أسمى من اليهود ، وزاد في ذلك أن شرائع موسى قد أصبحت لاغية منذ قدوم يسوع ٠ هكذا تطور الايمان بمسيحية يسوع الى ديانة جديدة هي المسيحية ٠ أما المسيحيون في أرض اسرائيل ، فقد حافظوا على كونهم طائفة يهودية ردحا طويلا من الزمن ٠

الثورة الكبرى

تمرس اليهود في ارض اسرائيل طيلة اجيال عديدة على الصراع المتواصل ضد الرومان ، وعلى ترقب انهيار حكمهم • الا ان الثورة لاجل العودة الى احضان الحرية جاءتهم فجأة ، وبدون سابق تنظيم • وهذا ما حدث : عاملت الاكثرية الوثنية في مدينة قيسارية الاقلية اليهودية معاملة سيئة فظة • وسمح المفوض الروماني فلوروس لجنوده بالاساءة الى سكان أورشليم • لم يكن في الواقع من جديد في هذا التصرف ، الا أن قسوة الرومان وفظاظتهم فاقت هذه المرة كل حد ، الى درجة وقوع الكثير من الضحايا • ثارت أورشليم غير آبهة بمحاولات الصلح التي قام بها وجهاء المدينة المسالمين • وفي أعقاب هذا التمرد وطرد الحامية الرومانية من المدينة ، شرع السكان الوثنيون في الاساءة الى اليهود في كل مكان • وهذا الامر اضطر اليهود للذود عن حياضهم وحياتهم ، وفقد الرومان سيطرتهم على المناطق التي كانت فيها لليهود اكثرية •

كانت الثورة كلها قد حملت طابع الدفاع عن النفس • وحتى حين دحر اليهود القوات الرومانية المهاجمة لم تساورهم قط فكرة احتلال المناطق القريبة منهم لكيلا تصبح قواعد هجومية للعدو • اكتفى اليهود بالتحصن والدفاع ، فكانت أيام الثورة في معظمها ايام هجمات رومانية متتالية ، وأيام معارك ضارية برزت فيها قوة الايمان اليهودي ضد القوات الرومانية المتقدمة • كانت تلك حرب بطولة خارقة، اعترف ابانها الرومان بشجاعة اليهود «الذين لا يعرفون الخوف من الموت». الا أن المبادأة كانت في ايدي الرومان دائما ، ومن هنا كان الفرق واضحا بين الثورة هذه وثورة الحشمونائيم • آنذاك كان اليهود هم الطرف المهاجم والمبادىء ، وحاولوا دائما توسيع الاراضي المحتلة • ان هذا الفرق هو الذي حدد مصير الثورة ، خاصة وان القوة الرومانية كانت اكبر بكثير من قوة السوريين اليونان أبان الثورة الحشمونائية •

لم تكن لليهود في هذه المرة قيادة مركزية تتحلى بروح عسكرية حربية • صحيح انه كان للقنائيون وللسيقاريقيون قواد ممتازون مثل يوحنان بن ليفي من غوش حلاب (الجش) في الجليل الاعلى ، وشمعون

بار غيورا من شرق الاردن ، واليعزر بن شمعون من أورشليم ، الا أن هؤلاء القواد كانوا قواد مناطق فقط ، الى درجة أنهم تصادموا وتنازعوا احيانا • لهذا لم يكن من باب الصدفة أن قيل ان خراب الهيكل الثاني جاء بسبب احقاد داخلية لا مبرر لها ولا أساس •

كان السنهادرين هو المؤسسة المركزية الوحيدة المعترف بها من قبل السكان ، ولما نشبت الثورة ركزت السلطة في هـذه المؤسسـة • ولكن اعضاء السنهادرين افتقروا الى التجارب في ادارة الحرب ، وذلك لان آل هوردوس والرومان لم يتيحوا لهذه الهيئة خلال نيف ومائة سنة فرصة ممارسة أية سلطة ، حتى انعدم نفوذها على الحكام ، وغدت بمثابة محكمة يهودية عليا فقط (وقد سلبت منها صلاحية الحكم بالأعدام) • زد على ذلك ان اعضاء هذا المجلس ، من الفروشيم والصدوقيم ، قد اعتادوا تهدئة الخواطر الثائرة ضد السلطة منعا لاراقة الدماء ، ولهذا كانت نظرة القواد منالقنائيين والسيقاريقيين الىاعضاء السنهادرين مشوبة بالتشكك• ولم يفلح حنان بن حنان ، الذي ترأس السلطة ، في تغيير هذه النظرة •

كان متوقعا ان يبدأ الرومان هجومهم من الجهة الشمالية ، لانهم اعتبروا أرض اسرائيل جزءا من ولايتهم السورية • وفعلا حاول والي سوريا احتلال أورشليم عندما ثارت هذه ، ولكنه تراجع خائبا • كان واضحا ان الهجوم الجديد الشديد سيأتي هو الاخر من الحدود الشمالية• لهذا ، ترتبت على تعيين قائد منطقة الجليـل أهميـة خاصة • أوكـل السنهادرين أمر قيادة الجليل لشاب أورشليمي هو يوسف بن متتياهو الكاهن ، من أصل عريق ، متضلع في التوراة والحكمة اليونانية ، الا انه كانت تعوزه الخبرة العسكرية • قابل القنائيون هذا التعيين بالاستياء ، ففشل يوسف هذا في كسب عطف الجماهير • لهذا وحين وصل الجيش الروماني بقيادة أسبسيانوس الى الجليل الغربي ، ارفض الجنود اليهود من حول يوسف القائد • تحصن يوسف مع من تبقى من جنوده في مدينة يودفات، وحين سقطت هذه المدينة سلم نفسه للرومان• ومنذ ذلك الحين رافق يوسف القائد الروماني اسبسيانوس ، وأصبح مستشارا له • ولما سقطت أورشليم ، كان يوسف قد استوطن روما ، وفي وقت لاحق دوّن تأريخ الحرب •

في أعقاب خيانة يوسف ، لم يعد للقيادة اليهودية المركزية وجود ٠ أدار القواد القنائيون في الجليل وحدهم معارك الدفاع المريرة في الجليلين الشرقي والاعلى ، حتى استسلموا ٠ كانت غوش حلاب (الجش) المكان الاخير الذي سقط في أيدي الرومان ٠ وقد استطاع يوسف بن ليفي ورجاله الهرب منها والوصول الى أورشليم٠ أسقط هؤلاء حكم السنهادرين في أورشليم ولاحقوا مؤيديه ، الا أن القنائيين والسيقاريقيين في يهودا رفضوا قبول سلطة يوحنان ، ومنذ ذلك الحين تعرض اليهود لحروب داخلية٠ في غضون ذلك انتقل الرومان عبر شرقي الاردن الى يهودا، وطوقوا مدينة أورشليم بعد أن قذفوا اليها جماهير اللاجئين٠ اختير اسبسيانوس امبراطورا ، فتوجه الى روما٠ وجاء من بعده ابنه طيطوس فاحتل أورشليم بعد حصار طويل واكبه تخريب المدينة ، حيا بعد حي ٠ حرق الهيكل المقدس، اعتقادا منه بأنه بعمله هذا انما يخرب مركز قوة الشعب المتشتت٠

هذه الثورة التي أغْرِقَت في انهار من الدم، كانت بالرغم من ذلك كله ، احدى الصفحات المجيدة المثيرة في سجل تأريخ شعب اسرائيل ٠ حارب اليهود اعداءهم حتى حين كان واضحا أن النصر في منأى عنهم ٠ حاربوا في البحر والبر — وكذلك في الكنيرت ، والبحر الميت ٠ ولكن ، وبعد سنوات اربع من الثورة تمكن الرومان من احتلال أورشليم ، مرت ثلاث سنوات أخرى حتى استطاع الرومان احتلال الحصن الأخير، مسادا، في صحراء يهودا ٠ سقط الحصن بعد أن مات جميع المدافعين عن الحصن وعائلاتهم ، انتحارا ، لانهم فضلوا الموت كأحرار شرفاء على الوقوع في ايدي العدو والعيش كعبيد ٠ رأى الرومان في انتصارهم على اليهود أحد انتصاراتهم البارزة ، وتخليدا لهذا الانتصار أقاموا في روما قوس نصر ، (هو «بوابة طيطوس» القائمة حتى الان) وصكوا عملة خاصة ، كان بعضها لذكرى الانتصار على «يهودا البحرية» ، أي على الملاحين اليهود في يافا ٠

التيقظ

كانت ارض اسرائيل قبل اندلاع نار الثورة مكتظة بالسكان ٠ وظل فيها الكثير من اليهود بعد اخماد الثورة، وان كان الكثيرون منهم قد قتلوا،



جبل مسادا المشرف على البحر الميت ، وتبدو على سطحه بعض آثار التحصينات التي اكتشفت مؤخرا ٠

أو أسروا ، او بيعوا في أسواق النخاسة ، وتفرقوا في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية ٠ كانت ذكرى البطولة التي ابداها الشعب ابان الثورة الكبرى معينا استقى منه من تبقى من الشعب في أرض اسرائيل الشعور بالثقة وبالكرامة ، فقادهم هذا الشعور الى الايمان بحتمية زوال فترة الاستعباد٠ وردد هؤلاء القول : «في يوم خراب الهيكل، ولد المشيح».

اشتدت وحدة الشعب وتضافرت قواه بعد أن رأوا ما آلت اليه المنازعات الداخلية • اضمحلت جماعة الصدوقيم التي كان معظم اتباعها من الأثرياء والكهنة ، مع خراب أورشليم • كذلك القنائيون والسيقاريقيون الذين اداروا الثورة ، وأخفقوا في خلق قيادة عسكرية موحدة • وتلاشت كذلك جماعة الأيسيين الصغيرة ، وتم تجمع الشعب حول الفروشيم •

اضطر الرومان الى الاعتراف برئيس الفروشيم رئيسا للسكان اليهود ، بعد أن اتضح لهم انعدام أي نفوذ لملوك آل هوردوس في أوساط الشعب ، فألغوا هذه «الملكية» • كان آخر ملوك آل هوردوس ، هو أغريباس الثاني (ابن اغريباس الاول) قد حكم جزءا من شمالي البلاد ، وهرب ابان الثورة مع الحكام الرومان • ولكنه رافق اسبسيانوس في حملاته ضد اليهود • وبعد موته لم ير الرومان جدوى في تعيين خلف له • كان الشخص الذي حظي بشرف تجديد السنهادرين والرئاسة في يبنه هو يوحنان بن زكاي ، كبير حاخامي جماعة الفروشيم في عصره ، وكان قد غادر أورشليم قبل خرابها بوقت ما • لم يكن من سلالة «هليل» الشيخ ، ولذا بقي رئيسا بالوكالة حتى يوم وفاته ، وحينذاك عادت الرئاسة الى ايدي آل هليل •

أدت صيرورة الرئيس الفروشي زعيما رسميا للشعب ، وصيرورة السنهادرين مؤسسة فروشية الى التوسع الكبير في تطوير سنن الفروشيم أو ما دعي «التوراة الشفهية» • واصبحت هذه السنن شريعة الحياة للمجموع والفرد • اكثر الفروشيم من عقد الاجتماعات لدرس ما جد من المشاكل الدينية والفقهية والتباحث والبت • كان الفروشيم قد انتهجوا هذا السبيل قبل خراب الهيكل ، أما الان فقد اتسع نطاق هذا العمل • وبالاضافة الى المدرسة ישיבה المركزية (بيت اللجنة) التي قامت الى جانب السنهادرين في يبنه ، أقام الحاخامون مدارس اضافية في المدن الأخرى • اتبع كل رئيس مدرسة طريقته الخاصة في تدريس التوراة الشفهية أما القول الفصل في الشريعة فكان للسنهادرين • وقد عرف الحاخامون في هذه الفترة ، وهي الفترة التي تلت خراب الهيكل الثاني ، باسم «التنائيم» أي ـ المعلمون •

الثورات الجديدة

تسلم التنائيم القيادة العملية للشعب، واضطلعوا بمسؤولية مواجهة كل مشاكله ، بما في ذلك المشكلة الأمنية • عارضوا الميل الى ثورة مجددة، ولكنهم ، وبعد أن لمسوا ازدياد التعسف لدى الحكام الرومان ، لم يروا بدأ من تجديد النضال ، ولكن بطريقة منظمة موحدة وبعد اعداد وتحضير كافيين • برز من بين من ساروا في هذا الاتجاه رابي عقيبا بن يوسف ، أشهر تلامذة الراب يوحنان بن زكاي • وحين ثار يهود ارض اسرائيل من جديد عام ١٣٢ للميلاد ، كان الشعب موحدا تحت قيادة بطل اسمه شمعون بار كوخبا • آمن الرابي عقيبا بهذا البطل ، ورأى فيه المسيح المرتقب • وكان اليهود خلال سنوات كثيرة قبل نشوب الثورة قد جهدوا في تحويل الكهوف الى حصون، والى انفاق للمواصلات، وفي جمع السلاح•

الا أن الشعب كان في هذه المرة ، قليل العدد وأضعف مما كان عليه قبل الثورة الكبرى، وكان من الصعب الصمود في وجه العدو بدون مساعدة يهود المهاجر • وعلينا أن نذكر هنا ان المهاجر كانت قد ثارت وحدها على روما قبل ثورة باركوخبا بخمس عشرة سنة • حدث ذلك حين حاول الامبراطور الروماني طريانوس احتلال ارض بابل ، وكانت واقعة تحت حكم الفرثيين آنذاك (شعب قريب للفرس) • ولكنه رد خائبا مهزوما بفضل مساعدة يهود بابل للفرثيين • حينذاك تشجعت الجاليات اليهودية التي سكنت الامبراطورية الرومانية المكروهة (في مصر وكيرنايكا المجاورة ، وافريقيا الشمالية ، وجزيرة قبرص) على التمرد • كان النصر في البداية حليف المتمردين (احتلوا الاسكندرية) ولكنهم طوقوا في النهاية وأبيدوا بجماهيرهم • أحدث هذا العصيان ضجة في اسرائيل ، غير أن الامبراطور الجديد ادريانوس أفلح في تهدئة الخواطر الثائرة بالوعود المختلفة ، ولكنه سرعان ما تنكر لوعوده • وحين توجه رابي عقيبا موفدا من قبل ثورة باركوخبا الى المهاجر ، حصل على المساعدة المالية والمتطوعين ، ولكنه لم يجد فيها تلك الجماهير الحاشدة من الشبان القادرين على تجزئة قوات العدو باعلان الثورات المنسّقة في المهاجر المختلفة •

هكذا تسنى للرومان حشد كامل قوتهم ضد باركوخبا ، وبعد ثلاث سنوات تمكنوا من قمع الثورة . كان باركوخبا قائدا حازما ، ملهما ، مهاجما ، أوقع بالعدو خسائر فادحة ، الا ان النجدات الرومانية التي أتي بها من بعيد رجحت كفة المعركة لصالح الرومان . ومع انتهاء الثورة بدأت عملية الاضطهاد الجماهيري ضد اليهود : قدر الرومان عدد الذين ذبحوا بنحو ٥٨٠ ألف يهودي . وكان الدمار الذي لحق بالمناطق اليهودية كبيرا جدا : اذ احتل الرومان ودمروا قرية بعد قرية ، وقطعوا كل أشجار الزيتون . ولاقى باركوخبا حتفه مع من تبقى من جنده عند سقوط قلعة «بيتار» قرب أورشليم ، في التاسع من آب . وفي محاولة لقمع الروح اليهودية أقام ادريانوس على انقاض أورشليم (التي كان قد حررها باركوخبا في حينه) مدينة رومانية اسماها إيليا كابيتولينا ، وأقام مكان الهيكل المقدس معبدا للاله جوبيتر ، وألغى اسم «يهودا» وأمر بتسمية البلاد «فلسطين» . جدد كذلك اجراءات انطيوخوس وحظر على اليهود ممارسة الفرائض الدينية . أقام الحاخامون حركة سرية لمكافحة هذه الاجراءات فكان جزاؤهم الاعدام بقساوة وضراوة .. أولئك هم «ضحايا السلطة العشر» وعلى رأسهم الرابي عقيبا . ولكن الشعب ظل على احترامه وولائه لهذه الجماعة ، باستثناء طائفة اليهود المسيحيين فقد انشقوا على الثورة والشعب كله ، وفضلوا أخيرا الاختلاط بأبناء ديانتهم من غير اليهود .

اجمال

اضطرت الامة اليهودية الى الذود عن كيانها وايمانها بوحدة الخالق، وهي كجزيرة في بحر زاخر من الوثنية والاستعمار المحيط بها . ناضلت في سبيل ذلك الاشوريين والبابليين واليونان السلوقيين والرومان . خرجت من الصراع الاخير فاشلة فشلا عسكريا ، وكان من نتائج النضال المستمر أن قل عدد السكان اليهود في البلاد الاسرائيلية فلم تعد

البقيـة الباقيـة منهـم (وخاصة في الجليـل) قـادرة على أن تقوم بـدور القلب المركـزي للشـعب ، وان كانت قـد بذلت كل الجهـد للابقاء على تنظيمها وحضارتها الذاتية . وبدأت فترة الجلاء في تاريخ الامة اليهودية فاستمرت حتى يومنا هذا . كانت الصكوك النقدية التي صكها باركوخبا هي آخر المصكوكات الاسـرائيلية حتى سـنة ٥٧٠٨ عبرية (١٩٤٨ م) . وهذه فترة طولها ١٨١٣ عاما ! ولكن ، اذا استطاعت الامة الاسرائيلية أن تحافظ على كيانها كأمة طيلة هذه المدة ، فذلـك بفضل ثورتها الاولى ضد الحكم اليوناني وثقافته الوثنية ، ثم ثورتها الاخيرة ضد الحكم الروماني وثقافته الوثنية ايضا ، ولم ترض ، كما رضيت شعوب كثيرة أخرى ، بحياة العبودية الاختيارية التي قادتها الى الانصهار والذوبان .

الفصل السابع

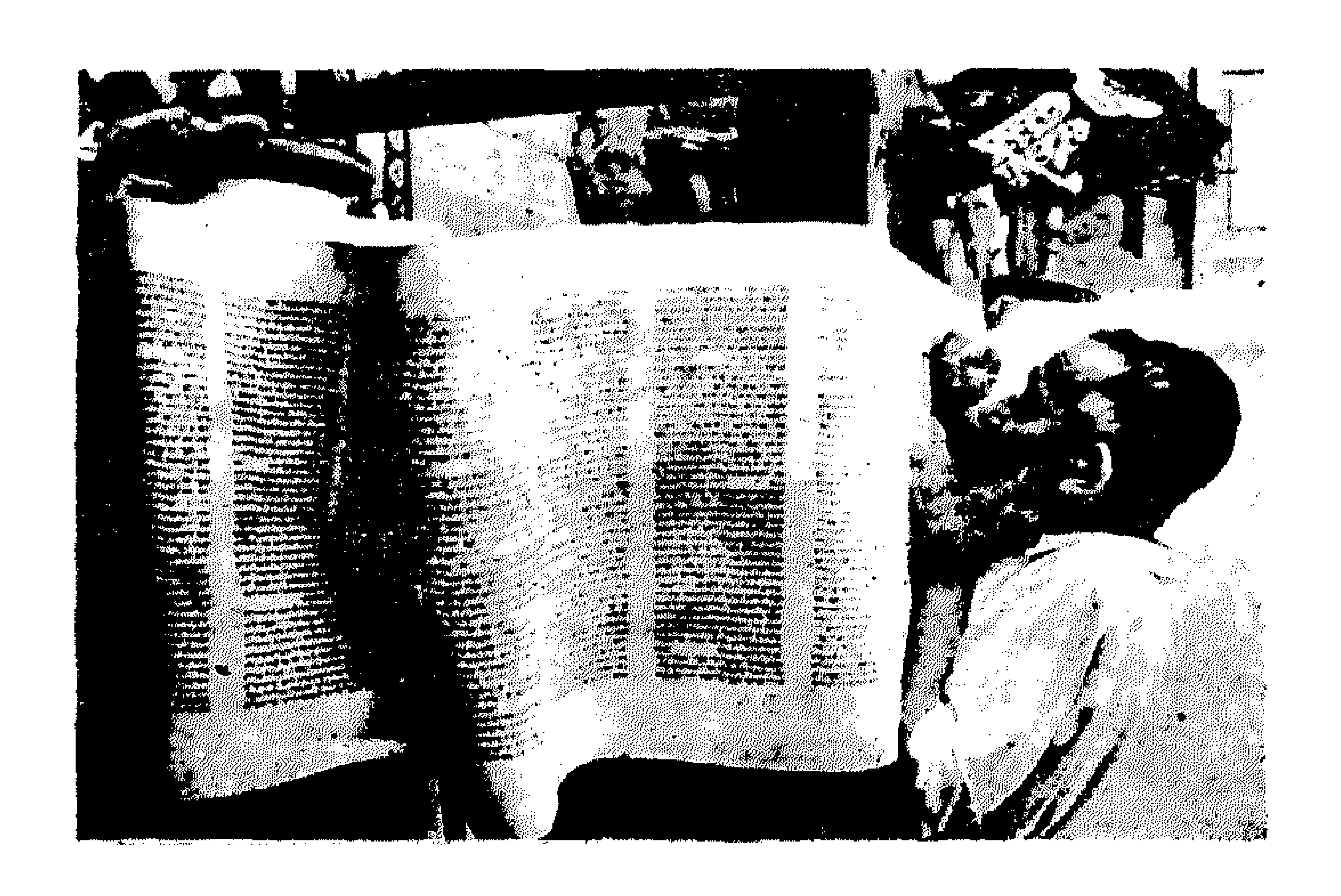
عهــد التلمــود

التـّلمـود

بعد فترة من الهدوء ألغيت اجراءات أدريانوس وسُمح لليهود في أرض اسرائيل بتجديد الرئاسة ، والسنهادرين ، والمدارس • ولكن اليهود كانوا من القلة في يهودا بحيث اضطر الرئيس والسنهادرين الى الانتقال الى الجليل • وتنقلا في أماكن مختلفة من الجليل حتى استقر بهما المقام في طبريا • اتخذت اعمال المدارس هي الأخرى شكلا آخـر • ذلك انه ابان سريان اجراءات ادريانوس خشي الكثيرون ضياع التوراة الشفهية كذلك خُشي تجدد هذه الاجراءات التعسفية ولذا رأى الحاخامون ضرورة في جعل التوراة الشفهية مسطورة• وهكذا عكفوا نحوا من ستين أو سبعين سنة على تدوينها وتدقيقها وإجمالها حتى أمكن وضع مجمل لها يحظى بقبول الجميع •

سُمي هذا المجمل «المِشْناه» ـ أي المثنى ـ مثنى التوراة ـ وحرره الرابي يهودا هناسي ، وهو ابرز الرؤساء من آل هليل • قسِمت المشناه الى اجزاء ، قسمت بدورهــا الى أبواب ثانويــة وهــذه الى فصول ، أما «الاجزاء» فهي :

أ ـ الزراعة (أصول وأحكام خاصة بالزراعة) ، ب ـ المواسم (أصول وأحكام الاعياد) ، ج ـ النســاء (الاحكام الشــخصية) ، د ـ الأضرار (الاحكام الجنائية وانظمة المحاكم) ، هـ ـ المقدسات (أحكام القرابين في الهيكل) • و ـ الطهــارة (أحكام طهارة الجسم ، والبيت ، والادوات ، والطعام) • كتبت المشناه بلغة الحاخامين التي كانت سائدة آنذاك في المدارس الاسرائيلية ، وهي عبرية تأثرت باللغة الآرامية الى حد ليس بالقليل ، وكانت هذه دارجة على لسان الشعب بدل العبرية منذ سبي بابل •



مازالت التوراة المكتوبة على صفحات من الجلد من اقدس اقداس الامة اليهودية ٠

منذ تم وضع «المشناه» كان نظام عمل المدارس كما يلي : يتلون المشناه، ويفسرون كل جملة وجملة فيها، ويتناولونها بالنقاش وبالتحليل مع كل ما يثور أثناء ذلك من تجديد وابداع ، ومع ايراد التقاليد والعادات المتعلقة بالبحث٠ يعرف حاخامو هذه الفترة باسم «الأمورائيون» אמוראים. أي «المفسّرون» ، وذلك للتمييز بينهم وبين التنائيين — المعلمين — وهم الحاخامون الذين سبقوا تدوين المشناه ٠ مع الزمن ازدادت التفسيرات الشفهية لما ورد في المشناه المسطورة، حتى دعت الضرورة الى تسجيل كل ذلك وتدوينه في نص مقبول لدى الجميع ، في مؤلف أسمه «ألجمـــارا» גמרה والمشناه والجمارا سوية تسميان «التلمود» ٠ تشكل الجمارا غالبية التلمود من حيث الكمية ، ويسمى التلمود كذلك باسم «الاجزاء الستة» ٠ ويُقسم ايضا الى اجزاء كما هو الحال بالنسبة للمشناه ٠ يوجد نصان للتلمود : احدهما — التلمود البابلي ، والاخر — التلمود الأورشليمي ، وضع «الاورشليمي» في المدرسة الاسرائيلية في طبريا ٠ أما «البابلي» فقد وُضع في المدارس التي أقامهـا تلامذة الـرابي يهودا هناسي في أوساط الجالية اليهودية في بابل ٠ ذلك انه بعد أن قل عدد اليهود في أرض اسرائيل تركز الاهتمام حول المدارس البابلية ، وأصبح

«التلمود البابلي» مقبولا أكثر من «التلمود الاورشليمي» لدى الشعب ·
خُتم هذا التلمود في عام ٤٢٦٠ عبرية ، الموافق ٥٠٠ للميلاد ·

كُتبت «الجمارا» بنصيها باللغة الآرامية ، التي أصبحت لغة الكلام حتى في حلقات الحاخامين· أجل، ان الآرامية ليست بالغريبة على العبرية مثل سائر اللغات الأجنبية الاخرى ، فالتقارب بينهما كبير واضح · حتى الكتاب المقدس يحوي فصولا آرامية (في سفري دانئيل وعزرا) ، والمشناه موضوعة ، على الغالب ، في شكل قوانين عامة ، ولكن قد ترد فيها وجهات نظر متباينة بين الحاخامين في موضوع ما · أما الجمارا فأنها تحوي الابحاث والمناقشات الخاصة بأحكام المشناه وأصول تطبيقها ، ولهذا فهي بمثابة محضر للأبحاث القانونية ، ولكنه يشمل الى جانب ما قيل عن الاحكام ذاتها اقوالا وقصصا ورد ذكرها في المدارس اثناء البحث · سُمي الحاخامون الذين عملوا ، فيما بعد ، في استخلاص النتائج المترتبة على هذه الأبحاث باسم الباتين פוסקים · وفي وقت لاحق ، وُضعت مؤلفات تناولت مجمل الأبحاث والأحكام الملزمة، وكان اكثر هذه المجملات قبولا على الأمة هو مؤلف «المائدة المصفوفة» שלחן ערוך الذي وضعه الرابي يوسف قارو ، وعاش في صفد قبل نحو أربعة قرون ·

أهمية التلمود

أطلنا الحديث عن التلمود ، لا لانه مؤلف هام يمثل ثمرة المجهود الروحاني الاسرائيلي خلال قرون طويلة وحسب ، وانما لان التلمود كان الى جانب ذلك عاملا قويا في تجميع الشعب وتكتيله· فخلال سني الصراع الطويل المرير مع روما ازداد الشعور بالتكتل ، وتلاشت الكراهية والانفصالية الكتلوية · ولكن ، ومنذ خراب الوطن الاسرائيلي ، أصبح متعذرا الحفاظ على وحدة الشعب بواسطة مؤسسة عليا مقبولة لدى الأمة، فقد تضعضعت مكانة المؤسسات القومية في اسرائيل بتضعضع مكانة الوطن كله · ثم ان الحكام المستعمرين قد الغوا السنهادرين ورئاسة آل هليل في عام ٤١٨٦ عبرية (٤٢٥ للميلاد) ، عشية ختم التلمود الاورشليمي · وفي الحين ذاته لم تكن الجالية اليهودية البابلية التي أصبحت المركز الديني الرئيسي للشعب قد حظيت بتقدير الجاليات

اليهودية الأخرى لها مثلما حظي بذلك المركز اليهودي في ارض اسرائيل ، ولم يكن في مقدور الجالية البابلية فرض طاعة مؤسساتها على جميع اليهود. وهكذا، وطيلة سني المهجر الطويلة ظل الشعب اليهودي مشتتا، تعوزه السلطة القومية العليا ، ولكنه بالرغم من ذلك كله لم يندثر ، وكان الفضل في ذلك للتلمود الذي أحدث هذه المعجزة .

شملت أحكام التلمود المفصلة جميع نواحي الحياة الخاصة والعامة لليهودي ، وبهذا حافظت على وحدة الحياة اليهودية في المهاجر ، بما في ذلك الاداب العائلية ، وانظمة ادارة الجمهور ، والمعاملات ، والعادات وطرق التفكير . كان التلمود طيلة أيام المهجر موضوع الدراسة الأول بالنسبة لليهودي ولهذا كان للمهاجر، على اختلاف أماكنها، تعليم موحد. كانت الجمارا التي صيغت على شكل مناقشات تتطلب حدة في التفكير ، سببا في شحذ الافكار لدى الطلاب الذين لم يحاولوا تعقب هذه المناقشات فحسب ، وانما عملوا على تقليدها أيضا . كان التدرب على شحذ الفكر واضح الأثر على اليهود المنتشرين بين الامم المختلفة ، والذين واجهوا حرب كيان شاقة .

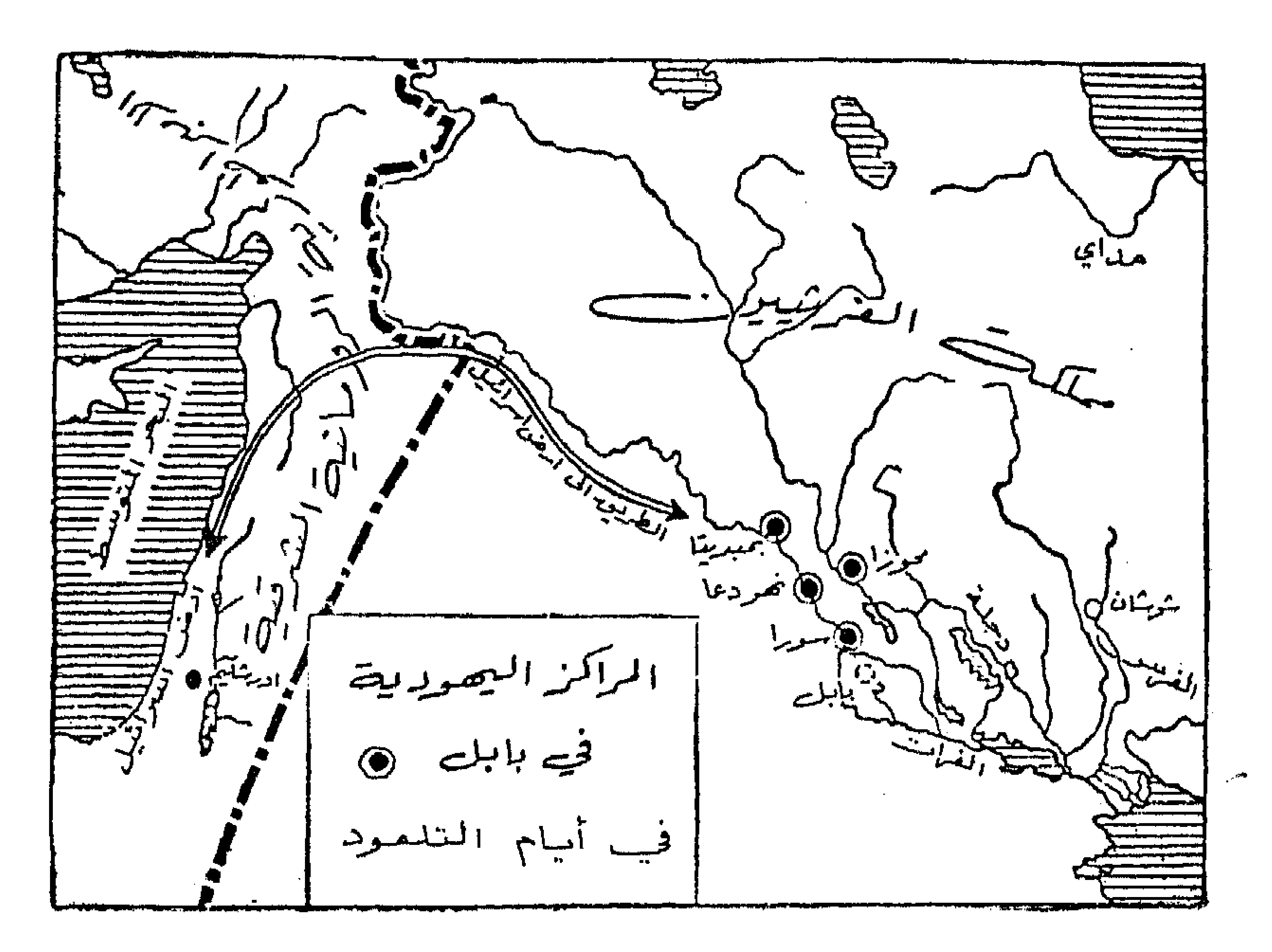
نمّى هذا التعليم في نفوس اليهود الشعور بالكرامة القومية ، وبالسمو الثقافي على الجماهير الاجنبية التي عاشوا بين ظهرانيها ، وبهذا أنقذهم تعليمهم من الوقوع في شرك الشعور بالنقص الذي يقود الى الانصهار. وقد عملت ضرورة تعلم لغتين هما العبرية والارامية (بالاضافة الى اللغة الثالثة ـ المحلية ـ المستعملة في الدول التي لم تتكلم الارامية) على تكوين عادة تعلم اللغات العديدة لدى اليهودي ، وهو ما عاد عليه بالخير في تجواله وتشرده . ومهما كان موقف انسان الجيل الحاضر من التلمود ، فانه لا يمكنه ، أبدا ، تجاهل حقيقة الدور الكبير الذي لعبه في الحفاظ على كيان الشعب في المهجر . ولم يكن من الغريب أن يؤول الى الاضمحلال مصير جماعة عارضت التلمود (القرائيون) ، بعد مضي نحو مائتين وستين عاما على ختمه ، ولم يبق منها الا فئات قليلة حتى يومنا هذا .

المدارس الجديدة

الحلقتان أو بالاحرى المدرستان اللتان تبلور فيهما التلمود البابلي هما : مدرسة مدينة سورا ، ومدرسة نهاردعا ثم فومبديتا . كانت سورا آنذاك مقر «رئيس الجالية» ، أي رئيس يهود بابل . انتقل هذا المنصب، بالوراثة ، في وسط ذرية داود ، أما رؤساء المدارس فقد جرى انتخابهم من بين الحاخامين . كانت هذه المدن الثلاث واقعة في منطقة الفرات في العراق ، ولكنها اندثرت بسبب ما جره تهدم قنوات الري من دمار على البلاد . كانت نهاردعا في الشمال ، والى الجنوب منها فومبديتا (قرب الفالوجة حاليا ، وبالقرب منها تقطع السيارات نهر الفرات في طريقها من بغداد الى الاردن) . كانت سورا الى الجنوب منهما ، قرب مدينة الحلة حاليا ، وقرب اطلال بابل القديمة .

ظلت مدرستا سورا وفومبديتا مركزين ثقافيين لليهود حتى بعد ختم التلمود. اهتم الحاخامون في هاتين المدرستين ، في البداية ، بتفاصيل وضع الصيغة النهائية للتلمود وتدقيقه ، وبايضاح تفاصيل مضمونه . سمي حاخامو هذه الفترة «السابورائيون» סבודאים . وبعد هذه الفترة وجه الحاخامون جهودهم الى تدريس التلمود في حلقاتهم ، وباصدار الردود (الفتاوي) على الاسئلة المتعلقة بالاحكام المختلفة التي وجهها اليهم يهود المهاجر. كان اللقب الرسمي الذي أطلق على رؤساء الحاخامين في هذه الفترة هو الغاؤونيم גאונים . وباسمهم سميت هذه الفترة . استمر قيام هاتين المدرستين نيفا وثمانية قرون : منها ثلاثة قرون برز خلالها الأمورائيون ، ونحو نصف قرن برز خلاله السابورائيون ، في حين رأس الغاؤونيم الفترة المتبقية نحو ٤٥٠ سنة . (في أخريات أيام عهد الغاؤونيم انتقلت المدرستان الى المدينة الجديدة بغداد، واليها انتقل رئيس الجالية، أيضا .)

انتشرت هذه المدارس، التي كانت طبق الاصل للمدرسة الاسرائيلية الاولى ، في جميع أوساط الشعب اليهودي ، ومازالت قائمة حتى الان . ولم يسمح بالتدريس أو بالقيام بمهمة حاخام (راب) الا لمن تأهل في مدرسة معروفة . وقد عمل واجب التأهيل هذا على دعم الروابط بين



المهاجر ، اذ قدم الكثيرون من جميع المهاجر الى المدارس المشهورة لغرض الحصول على تأهيل فيها • بعد اغلاق الحلقتين في سورا وفومبديتا ، حافظت المدرسة الاسرائيلية (في أرض اسرائيل) على البقاء زمنا طويلا (انتقلت الى أورشليم ، ثم الى صور ودمشق) • تأسست في بغداد مدرسة جديدة ، استمرت قرونا طويلة ، ولكن رؤساءها لم يحظوا من التقدير والنفوذ بمثل ما حظي به رؤساء مدرستي سورا وفومبديتا ، بالرغم من أنهم حملوا ، هم الاخرون ، لقب «غاؤون» • مع اغلاق حلقتي سورا وفومبديتا انتقل المركز الثقافي للشعب من الشرق الى أوروبا • وفي أوروبا برزت ، في أزمان مختلفة ، مدارس اسبانيا ، وفرنسا ، والمانيا ، وهولندا ، وبولندا ، وأخيرا ليطا (لتوانيا) •

الجاليات اليهودية الاخرى

حين كانت الجالية اليهودية في بابل تتمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي وتتفرغ لترسيخ نظم الايمان والثقافة والحياة اليهودية بين دفتي

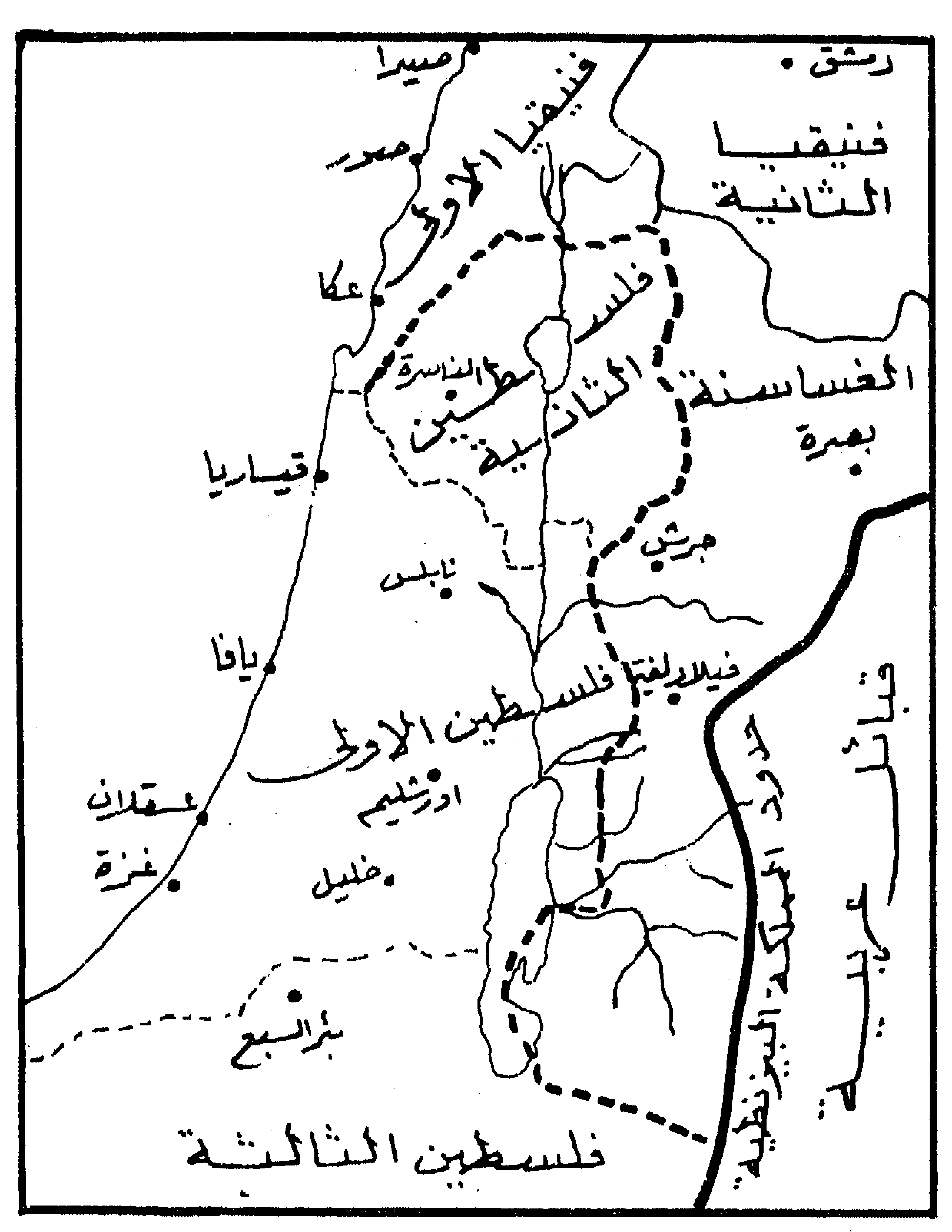
التلمود متممة بهـذا ما بـدأ به الحاخامون في البـلاد المقدسة ، كانت الجاليات اليهودية تنمو وتنتشر في باقي انحاء العالم القديم ، وتستمد الهامها الروحي من المركزين المذكورين أي بلاد اسرائيل وبابل ، دون ان تؤخذ بمفاتن الحياة والثقافة الوثنية ، بل بالعكس ، كانت كالخميرة الممهدة لاختمار العالم الوثني لتقبل دين التوحيد ٠ وقد تهود الكثيرون فعلا ، سواء في روما العاصمة أو في الاسكندرية أو في اليمن أو في ارمينيا (مملكة حذييب) ٠ كذلك أخذ الكثيرون يتعودون بعادات اليهود مفضلين اياها على العادات الوثنية ٠

ويمكن حصر هذه الجاليات في ثلاث مناطق :

١ ـ بلاد البحر الابيض المتوسط (مصر وسواحل افريقيا الشمالية، سوريا ، ولبنان ، وآسيا الصغرى وقبرص) وكانت خاضعة لروما ، وكان لها نصيب من الازدهار وساهمت بعضها في الصراع اليهودي الروماني الى جانب يهود البلاد المقدسة ، وكان نصيبها بالتالي أن تعرضت للاضطهاد وتضاءلت كلها من جراء الصراع ٠

٢ ـ بلاد بابل وفارس اللتان كونتا آنذاك مملكة واحدة هي مملكة الفرثيين ٠ في هذه المملكة لم يتمتع اليهود بحريات كاملة ، بل تحملوا اعباء الضرائب الباهظة ، الا أن وضعهم كان على العموم أحسن من وضع أولئك الذين وقعوا تحت حكم الرومان ، واصبحت بابل المركز الرئيسي للسكان اليهود والحضارة اليهودية كما سبق وذكرنا ٠

٣ ـ المناطق التي لم تكن خاضعة لأي من هاتين المملكتين الكبيرتين المتنافستين ، وكانت هذه المناطق موزعة بين قبائل وممالك صغرى (شبه الجزيرة العربية ، وجبال افريقيا الشمالية ، وجبال أرمينيا ، والقفقاس والقرم) ٠ هنا ، في الصحارى ، وعلى رؤوس الجبال الشاهقة ، لم يتمكن اليهود من الاستيطان باعداد كبيرة مثلما فعلوا في سهول الفرات الخصيبة ٠ الا ان من استوطن منهم هذه المناطق ، حصل ، احيانا ، وتدريجيا ، على الحرية السياسية المنشودة ، اذ تحولت



الديار المقدسة وتقسيماتها الادارية خلال الحكم البيزنطي

قرى وقبائل كثيرة الى مجتمعات حرة مستقلة نظرا لعدم وجود سلطة مركزية حازمة • ومما يلفت النظر في هذه المناطق تهود الكثيرين من أبناء الديانات الأخرى بسبب تفوق اليهود في حضارتهم عليهم •

ظل هذا التقسيم الثلاثي قائما طيلة خمسة قرون تقريبا بعد ثورة باركوخبا ، ولم تطرأ عليه سوى تغييرات طفيفة جدا ، أخلى الفرثيون كرسي الحكم في العراق وفارس للفرس الذين جددوا سلطانهم ، الا أن هذا لم يؤثر كثيرا على وضع اليهود •

في هذه الفترة كانت المسيحية تنتشر في هذه الربوع ببطء ، وكان تصيب الجماعات المسيحية الاولى الاضطهاد من قبل الحكام الرومان • وقد تغيرت هذه الحال حين أصبحت المسيحية دين الدولة الرومانية في القرن الرابع بعد الميلاد ، وانسلخ القسم الشرقي من هذه الدولة عن غربيه ، وقامت فيه مملكة خاصة هي بزانطيا ، وكان العنصر السائد فيها يوناني الحضارة • ولا شك ان الصراع بين اليهودية والوثنية اليونانية الرومانية، وكذلك الصراع بين اليهودية والمسيحية لعدم اعتراف الاولى بمسيحية يسوع الناصري ، قد أولدا اضطهاد المسيحية لليهود منذ أن اشتد ساعدها ، وتوارثت الاقوام الاوروبية هذا العداء لليهود طيلة القرون الوسطى والحديثة • وما اللاسامية الحديثة والعداء النازي لليهود وكذلك العداء الروسي واللاسامية المستحدثة الا امتداد لذلك الصراع القديم • وما ذنب اليهود فيه سوى تمسكهم بدينهم وثقافتهم •

الغى الحكم الروماني المسيحي رئاسة بيت هليل في الديار المقدسة، وعمل على نشر المسيحية بنشاط • ومما يرويه التاريخ ان قسطنطينوس كان قد أرسل المبشرين الى الحميريين لتنصيرهم ، ولكن اليهود الكثيرين الذين أقاموا بين الحميريين احبطوا مساعيهم ولم يعتنق الحميريون الديانة المسيحية الا بعد مرور مائة سنة ونيف من ذلك التاريخ • وفي الحين ذاته يشهد المؤرخون العرب ان العديد من القبائل العربية اعتنقت اليهودية هناك ، ومنها بنو حمير وكنانه وكنده • ومن المعروف ان العائلة الحميرية المالكة قد تهودت ايضا وكان

ملكها الاخير يوسف ذو نواس قد استقتل في صد الغزوات الحبشية عن بلاده ، الا ان الاحباش نالوا وطـرهم منه ، فاحتلوا البـلاد الحميريـة وغالوا في أعمال التقتيل والتخريب .وأرغموا أهلها على اعتناق الديانة المسيحية • ولكن انتصارهم هذا لم يضع حدا لانتشار اليهود في شبه الجزيرة العربية ، والتاريخ يحدثنا عن القبائل اليهودية التي استوطنت تيامة وخيبر ويثرب خلال مئات السنين •

يهـود أرض اسرائيل

توالت فترات العسر واليسر على يهود اسرائيل ، سيما حين اصطرع الفرس والبزنطيون على الحكم منذ القرن الثالث بعد الميلاد • وبعد أن أصبحت المسيحية دينا رسميا لدى الحكام البيزنطيين بقليل هزتهم بشرى سارة هي اعلان القيصر يوليانوس ، الذي ارتد عن المسيحية ، عن اذن لهم ببناء الهيكل • ولكن هذا الامر لم يتحقق • وفي القرن السادس جند اليهود في أرض اسرائيل جيشا كبيرا لمساعدة الملك الفارسي خسرو الثاني في طرد البيزنطيين من هذه البلاد ، فدخلوا معه أورشليم منتصرين سنة ٦١٤ م • ولكن خسرو هذا لم يحقق الآمال •

وفي عين الاثناء اسدى يهود أرض اسرائيل ، على تضاؤل شأنهم ، خدمات تذكر للثقافة اليهـودية خـلال القرون التي سبقت الفتـوحات الاسلامية ، فقد وضعوا الشروح الشعبية لنصوص التوراة مستندين في ذلك على اسلوب القصة ، فخلقوا أدب القصة الشعبية ذات العبرة الاخلاقية في الثقافة اليهودية • ولم يقعدوا عند هذا الحد بل تعدوه الى نظم الترانيم الدينية ، وهي ايضا فتح جديد في الادب العبري • وعلاوة على ذلك فقد اشتهر حاخامو طبريا حتى في عهد الغاؤونيم البابليين بلهجتهم العبرية السليمة، ولذا كان من نصيبهم تشكيل نصوص التوراة، ووضع العلامات الاولى للحركات الصوتية • وقد ظلت أرض اسرائيل كعبة اليهود قاطبة ، فاجتذبت اليها الحجاج والقادمين على الدوام •

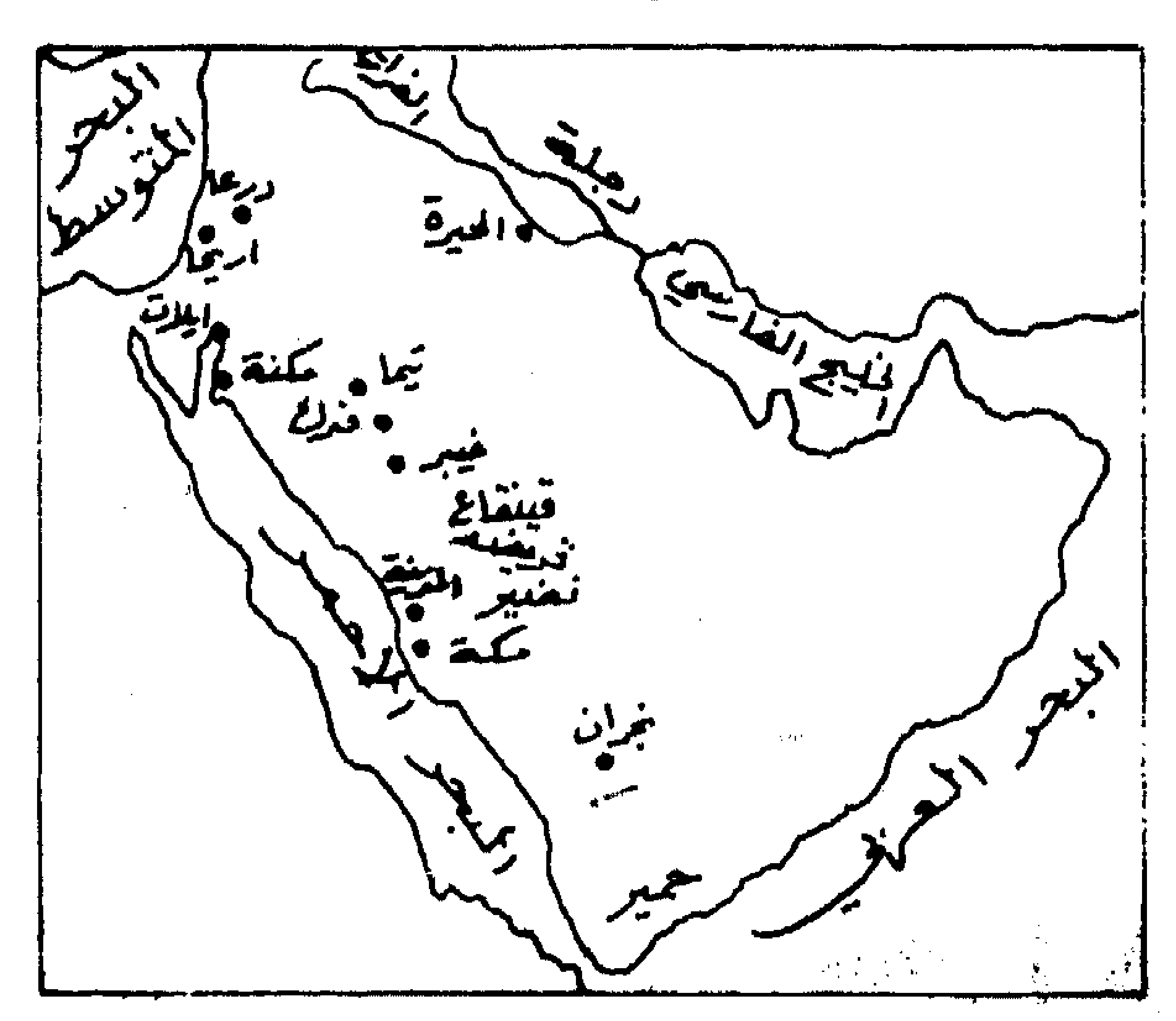
اجمـال

أصبحت الامة اليهودية بعد ثورة باركوخبا أمة مستعمرة في وطنها ، مبعثرة الاوصال في بلاد كثيرة ، ولكنها لم تفقد املها بالعودة الى الاستقلال في وطنها ، وبنت لنفسها في الحين ذاته وطنا آخر ، روحيا سداه الايمان ولحمته الحياة الاجتماعية والفردية المنسقة في شرائع التلمود • وكان انتشار اليهود قد هيأ الافكار والقلوب في انحاء الامبراطورية الرومانية وسواها لتقبل دين التوحيد ، الا ان الثمر كان من نصيب المسيحية اولا، ثم الاسلام • ولكن اليهودية لم ترض لنفسها بديلا عن يهوديتها • وحين ان بابل كانت مسقط رأس ابو الامة اليهودية ابراهيم ، ثم اصبحت ملجأ أمينا لاسرى بختنصر ، فقد عادت للمرة الثالثـة فأصبحت أول محـطة للازدهار في طريق الجلاء اليهودي الطويلة الشاقة ؛ وفيها الى جانب اعمال أبناء الوطن الواقع تحت حكم اجنبي ، تنسقت حياة اليهود في قوالب متينة اقتبستها باقي الجاليات وعاشت بفضلها •

الفصل الثامن

ظهــور الاســلام

في القرن السابع ميلادي حدث تغير كبير في الشرق الاوسط · فقد ظهر النبي محمد ودعا الى الاسلام · اقترنت هذه الدعوة باحترام اليهود ـ أهل الكتاب ـ وبعقد معاهدة مع القبائل اليهودية في يثرب ـ المدينة ـ



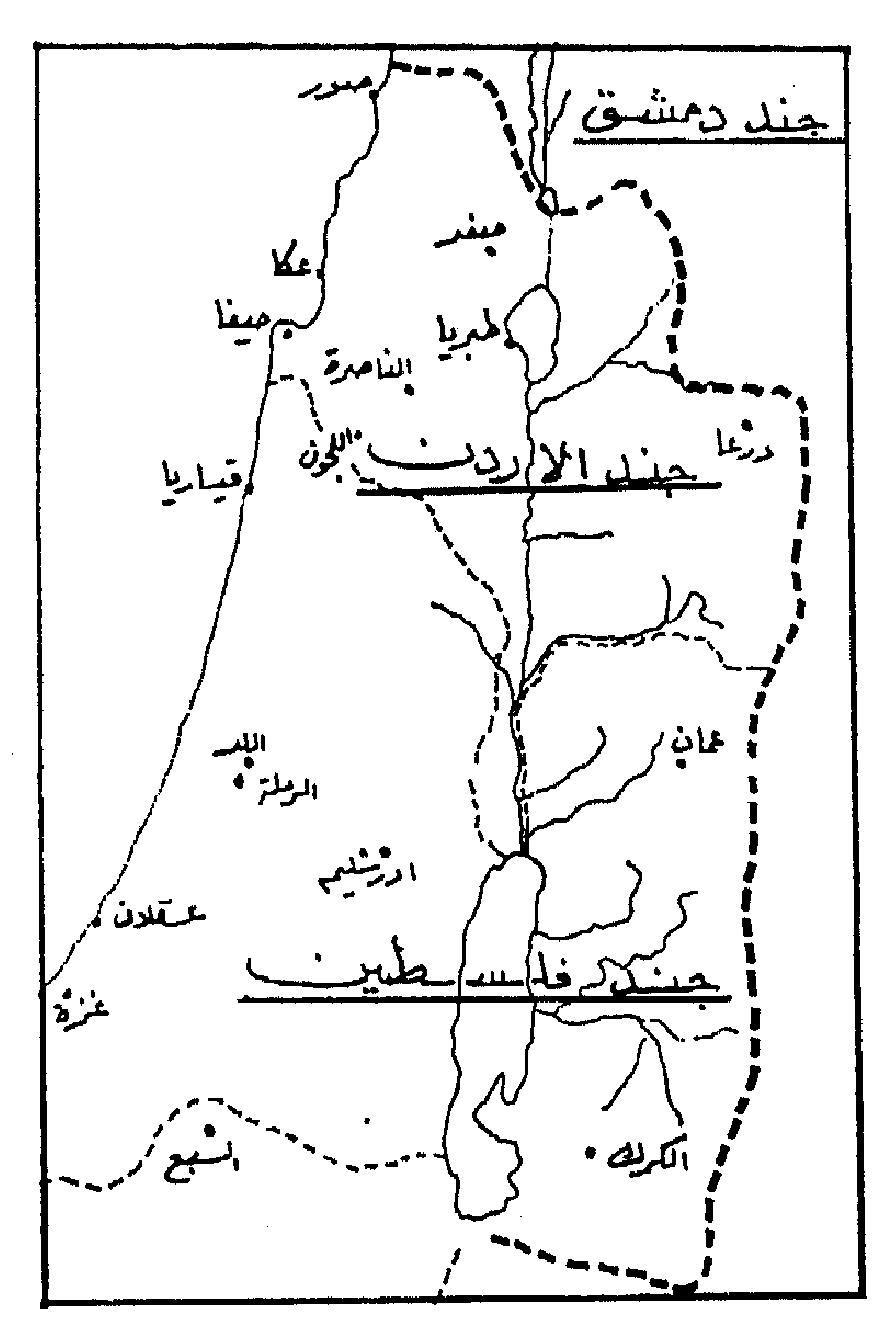
مواطن اليهود في شبه جزيرة العرب عند ظهور الاسلام ، وهي مكنة وتيما وفدك وخيبر والمدينة ونجران وحمير · يلاحظ ان نضير وقريضه وقينقاع وحمير هي اسماء مناطق لا اسماء مدن أو قرى ·

وجوارها ، ولكن المعاهدة ما عتمت ان تحولت الى اصطدام عسكري مع هذه القبائل وتشتيت شملها · الا ان الرواية القائلة بان شبه الجزيرة قد خلا من اليهود في عهد النبي وخلفائه ليست صحيحة ، بل ان السجلات التاريخية

تشهد على بقاء الكثيرين منهم في وادي القرى وخيبر واليمن الخ ·
وفي وقت لاحق وقع اصطدام عسكري آخر في شمال افريقيا ، حيث قاومت قبائل البربر جيوش العرب الفاتحين ، وكانت من جملتها قبائل اعتنقت الدين اليهودي ، وقد قاتلت بضراوة بقيادة امرأة اسمها داهية الكاهنة ·

كان اليهود في باقي ربوع الشرق الاوسط في آسيا وافريقيا قد استقروا على حال من التعايش مع السكان المجوس والحكم الفارسي في العراق وفارس ، اما الحكم البيزنطي المسيحي فكانت وطأته ثقيلة عليهم · وكان الكثيرون منهم من أهل الريف يعيشون على الزراعة ويعتنون بخدمة الارض · ولما جاءت الفتوحات العربية الاسلامية ابدى العرب والاسلام التسامح نحو الديانتين اليهودية والمسيحية ، واستعانوا باليهود والمسيحيين على ادارة دفة الحكم والاقتصاد في البلاد التي افتتحوها ، وذلك نظرا لحاجتهم الى الخبراء في شؤون الادارة والاقتصاد الزراعي والصناعي والتجاري والمالي ، كذلك استعانوا بهم كخبراء في العلوم واللغات والفنون ·

الا ان التسامح الذي أبداه العرب والاسلام نحو اليهود والمسيحيين لم يكن معناه المساواة والحرية كما نفهمها في القرن العشرين · ان العرب والاسلام اعتبروا اليهود والمسيحيين أهل ذمة (أي مواطنين من الدرجة الثانية) ، وفرضوا عليهم الجزية والخراج (الجزية ضريبة فرضت على النفوس، والخراج ضريبة على الاراضي الزراعية)· ولما ساءت حال الخزينة الاسلامية في أول القرن الثامن الميلادي ضوعف الخراج فأصبح ضريبة ثقيلة الوطء على المزارعين اليهود والمسيحيين معا ، ولذا فضل الكثيرون منهم — وعلى الاخص اليهود — ترك الزراعة والانتقال الى المدن · وقد اعقبت هذه الظاهرة ظاهرة أخرى هي انتقال الاقتصاد في العالم العربي الاسلامي من اقتصاد زراعي الى اقتصاد تجاري ، وكان لليهود شأن كبير في تحقيق هذا الانتقال كما تشهد على ذلك مخطوطات الغنيزة ، وهي كنز كبير من المخطوطات اليهودية عثر عليه في كنيس يهودي في الفسطاط سنة ١٨٩٦ م·



أرض اسرائيل بعد الاحتلال العربي (التقسيمات الادارية)

أوضاع أهل الذمة

كان مصير اليهود ابان الحكم العربي الاسلامي مرهونا بنوعية الحاكم وظروف الحكم . فحين كان الحاكم سمحا كريما وكان عهده عهد ازدهار ازدهرت الجاليات اليهودية ثقافيا وعلميا واقتصاديا واجتماعيا واشتدت أواصر الصداقة والتبادل المادي والمعنوي بينهم وبين باقي السكان ، وقد بلغ هذا الازدهار والتبادل اشده في الاندلس . والى جانب ذلك قد عانى اليهود فترات عصيبة من الاضطهاد والتقتيل عندما تسنم الحكم حكام متطرفون متعصبون ، كالخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) ، ويؤكد المؤرخون بانه هو صاحب

«شروط عمر» المعروفة باذلالها لليهود والمسيحيين. اما نسبها الى الخليفة عمر بن الخطاب فليس صحيحا . الا ان «شروط عمر» هذه كثيرا ما أهملت ، ولم تطبق الا عندما حكم ملوك متعصبون آخرون كالمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) والمقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) والحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) وبعض المماليك في القرون ١٣ - ١٥ م وعلى الاخص منهم الملك الصالح .

وقد لعب الحسد ايضا دوره في جلب المآسي لليهود في فترات معينة - مآسي لا تقل عن مآسي التعصب الديني في سواها . فالحسد هو الذي كان سببا لتحامل المسلمين على اليهود في العهد الفاطمي في مصر ، اثر توزير الوزير يعقوب ابن كليس اليهودي المسلم (ثم الوزير المسيحي عيسى النسطورياني) في أواخر القرن العاشر . وقد قيل في التحريض عليهم آنذاك :

يهود * هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو   ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم   تهودوا قد تهود الفلك .

وقد تكرر الامر في غرناطه اثر توزير شموئيل هنغيد** وابنه يوسف حيث أدى الحسد الى اثارة عامة المسلمين فلم يكتفوا بقتل الوزير يوسف ونهب قصره ، بل أغاروا على يهود غرناطة واوقعوا فيهم شر وقيعة (١٠٦٦ م) .

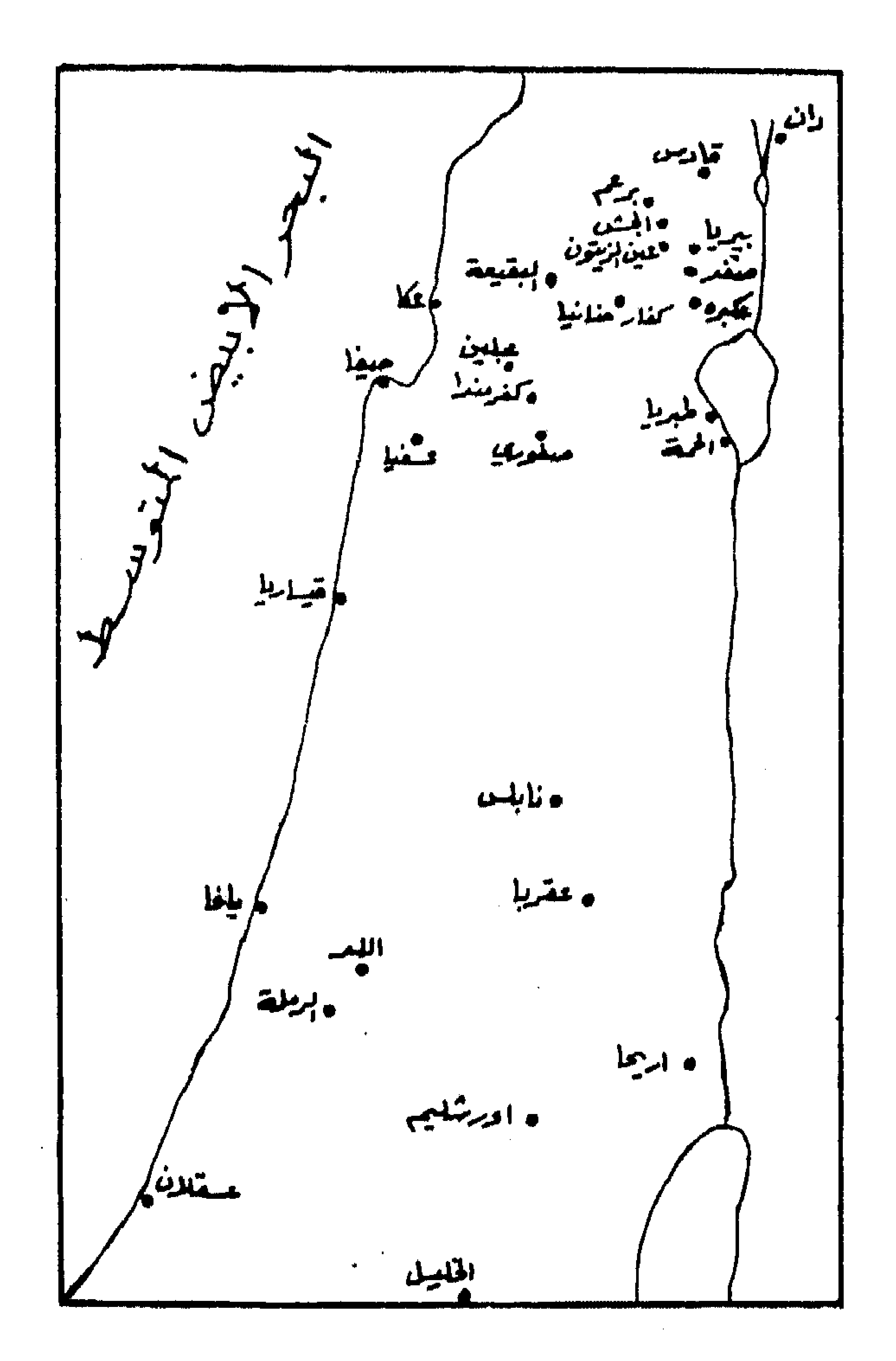
وحدث نفس الحادث اثر توزير الوزير اليهودي سعد الدولة في بغداد في عهد الملك المغولي ارغون خان (١٢٨٣) وشاعت على أفواه الناس نفس القصيدة مع بعض التحوير وجاء في خاتمتها*** .

فانتظروا صيحة العذاب لهم   فعن قريب تراهم هلكوا

* وجاء ايضا «نصارى هذا الزمان» و «تنصروا فقد تنصر الفلك» . تنسب هذه الابيات للشاعر المصري الحسن ابن خاقان وقد وردت في كتاب «حسن المحاوره» للسيوطي جزء ٢ ص ١١٨ .

** هو ابو ابراهيم اسماعيل بن النغريلة .

*** وردت في كتاب «تاريخ وصاف» ج ٢ .



مواطن اليهود في الديار المقدسة بعد الفتوحات الاسلامية

قلنا ان الحكم الاسلامي قد ادى الى تحول محسوس في الاقتصاد اليهوي ، اذ كانوا يمارسون الزراعة في بلادهم اسرائيل ، وفي مهاجرهم (ظل اليهود في الحبشة ــ وهي بلد لم يحتله الاسلام ــ يمارسون الزراعة حتى القرون الاخيرة) أما من حيث الثقافة فقد حصل تشابه عجيب بين الثقافتين اليهودية والاسلامية ، فالقرآن عند المسلمين كالتوراة عند اليهود من حيث المكانة ، والحديث كالمشناه ، والفقه كالتلمود والتصوف «كالقبّاله» ، واصحاب الطرق الصوفية كالحركة الحسيدية الاخيرة في أوروبا الشرقية . كذلك حصل تطور متواز في علوم اللغة والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية وقد بلغ هذا التطور شأوه عند يهود الاندلس .

الاحوال الادارية

لما احتل العرب بابل واطلقوا عليها اسم العراق وجدوا في هذه البلاد ــ كما اشرنا في الفصل السابق ــ مواطن يهودية كبيرة ذات نظام داخلي ديني ودنيوي متين ، معترف به من قبل الحكام الساسانيين . وقد ترأس التنظيم الدنيوي يهودي من سلالة الملك داود وكان لقبه رأس الجالوت ، وكانت له صلاحية تمثيل الطوائف اليهودية في بلاد فارس والعراق امام السلطات الفارسية . وكان من صلاحياته تعيين القضاة اليهود والموظفين الذين اداروا شئون الطوائف ، وجبوا الضرائب ، فكان يدفع جانبا منها للحكومة الفارسية ، ويختص بالباقي لتسديد نفقاته الادارية . اما الرئاسة الدينية فكانت من اختصاص رؤساء المدارس اليهودية الدينية في فومبديا وسورا . وقد اعترف الفاتحون العرب بوضع الطائفة اليهودية هذا ، كما اعترفوا بصلاحيات رؤسائها الدينيين والدنيويين . وهناك روايات تتحدث عن صداقة نشأت بين الخليفة عمر الفاروق وبين رأس الجالوت بوستناي ، حتى ان الخليفة اتخذه عديلا له بان وهبه ابنة ملك الفرس المقهور زوجة له ، حين انه اتخذ اختها زوجة له . وبالمناسبة نقول ان الخلفاء العرب قد احترموا مكانة رؤساء الطوائف المسيحية والمجوسية ايضا .

دامت الحال كذلك حتى تولى المأمون الخلافة (٨١٣ ـ ٨٣٣) فحد من صلاحيات رأس الجالوت ، ولكن هذه التحديدات ما عتمت ان زالت . وهناك شواهد تاريخية تشهد على ما كان لرأس الجالوت من مكانة واعتبار من قبل الخلفاء ، نذكر منها شهادة الرحالة الراب بنيامين من تطيلة (اسبانيا) اذ زار بغداد سنة ١١٦٨ م فوصف مكانة رأس الجالوت دانيال بن حسداي في (١١٥٠ ـ ١١٧٤) في بلاط الخليفة المستنجد بالله ، وقال ان رأس الجالوت كان يزور الخليفة زيارة رسمية كل يوم خميس ، وبأمر الخليفة كان جميع الحاضرين في حضرته ـ حتى كبار المسلمين ـ يقفون احتراما لرأس الجالوت الجالس بجانب كرسي العرش .

كانت الرئاسة الدينية والدنيوية اليهودية في بغداد معترف بها من قبل كافة الطوائف اليهودية في الخلافة الاسلامية العربية ، ولكن ، ولما نشأت الخلافة الاموية في أسبانيا والخلافة الفاطمية في القاهرة ، تحولت انظار الطوائف اليهودية في هاتين الخلافتين عن بغداد بتشجيع من الخلفاء المحليين ، اذ عينوهم ايضا رؤساء دينيين ودنيويين لرعاياهم اليهود ، فكان لقبهم رؤساء اليهود ، وفي العبرية ناغيد . وكان أول رئيس لليهود في القاهرة الراب بالطيئيل وخلفه ابنه شموئيل . وكان من صلاحيات رؤساء يهود القاهرة ان يراعوا شئون الطوائف السامرية والقرائية ايضا في مصر والشام . وقد دامت الحال على هذا المنوال في الاندلس حتى اضطربت احوالها ، وفي بغداد حتى بعد اضمحلال الخلافة هناك ، وفي القاهرة حتى احتلها الاتراك .

اجمال

صدم نبي الاسلام يهود الحجاز صدمة عنيفة لانهم لم يرضوا بالاسلام بديلا عن اليهودية كما كان يتوقع، ولكن الخلفاء والاسلام السني على العموم كان سمحا مع اليهود والمسيحيين ، مع اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية . وقد حصل بين الديانتين ـ اليهودية والاسلام ـ

تطور متواز ، كما حصل تبادل في الافكار والعادات • وكان اليهود عنصرا اقتصاديا نافعا ، كما نشأ منهم رجال فكر وادارة وسياسة اسندت اليهم وظائف عالية رغم ان الاسلام يحرم منح سلطة على المسلمين لمن ليس مسلما • وعلى وجه العموم كان نصيب اليهود في العالم الاسلامي كنصيب المسلمين : الازدهار حيث ازدهروا والانحطاط حيث انحطوا • ولكن المساواة لم تشملهم بتاتا ، بل كان نصيبهم ولا سيما الجماهير منهم ــ المهانة والاحتقار ، وكانت «شروط عمر» مخبأة لهم تتهددهم بمزيد من الاحتقار والمذلة كلما شاء الحكّام • وقد بقيت هذه الشروط نافذة المفعول على صرامتها في المغرب الاقصى واليمن •

الفصل التاسع

اليهـود في أسـبانيـا والانـدلس

بداية يهود اسبانيا

سبق للجاليات اليهودية أن استوطنت أوروبا الجنوبية والغربية منذ أيام الحكم الروماني في أرض اسرائيل • كان معظم هؤلاء اليهود من اسرى الحرب الذين أبعدوا عن بلادهم ، أو من أولئك الذين غادروا البلاد بمحض رغبتهم بسبب مشاغلهم • آنئذن لم يفلـح الرومان في اخضاع القبائل الجرمانية في أوروبا الوسطى ، وهذه القبائل شددت هجماتها على الامبراطورية الرومانية في وقت لاحق ، فقوضتهـا • وأخذت القبـائل الجرمانية الفاتحة عن الرومان المغلوبين ديانتهم النصرانية وعداءهم لليهود وان كان هذا العداء قد اختلف في مداه من بلد الى آخر • ففي ايطاليا سمح لليهود بممارسة حياتهم الدينية والثقافية وتوطدت الروابط بينهم وبين اليهود في أرض اسرائيل (الحج ، وارسال التبرعات ، واستيراد الكتب) • لهذا ازدهر هنا ايضا أدب المواعظ والاشعار• وأثر يهود ايطاليا بدورهم وبروحهم هذه على الجاليات اليهودية الكثيرة التي كانت في فرنسا اما في اسبانيا فقد مضت قبيلة الغـوط الغربيين التي احتلت البـلاد في اضطهاد اليهود ، ومحاولة اكراههم على التنصر •

في غمرة هذه الاضطهادات اقتحمت الجيوش الاسـلامية اسبانيـا قادمة من افريقيا الشمالية، وساعد اليهود هذه الجيوش على احتلال البلاد• لم يفلح المسلمون في احتلال البلاد كلها ، ولم تضع الحرب أوزارها في القسم الشمالي الجبلي منها • لهذا خشي المسلمون خلال فترة طويلة اضطهاد السكان كيلا ينضموا الى العدو • وليس هذا وحسب ، وانمـا قربوا اليهم اليهود ، بشكل خاص ، بسبب المساعدة التي قدمها هؤلاء لهم أثناء الاحتلال • وخـلافا للقانون الاسـلامي تسنم اليهـود مناصب

سامية هامة في الحكومة ، وارتقى بعضهم الى مناصب وزارية • ولما كانت دول الشرق متفوقة في حضارتها على الدول الاوروبيـة التي عاش فيهـا المحتلون الجرمان فسادا ودمارا ، فقد ادى الاحتلال العربي لاسبانيا الى تقدمها وازدهارها • وجعلت الصناعات ، والحرف ، والفنون ، والعلوم التي أتي بها العرب من الشرق ـ جعلت بلاد اسبانيا اكثر دول أوروبا تطورا وتقدما ، وازدهارا خلال عدة قرون •

وعبر اسبانيا انتقلت الصناعات ، والفنون والعلوم من الشعوب الشرقية الى أوروبا المسيحية • لعب اليهود المهاجرون من الشرق واليهود من مواليد اسبانيا دورا كبيرا هاما في هذا المجال• وبهذا تطورت الحضارة العبرية ذاتها أيضا • تكلم اليهود الذين استوطنوا اسبانيا الاسلامية اللغة العربية ، في حين تكلم أولئك الذين استوطنوا الشمال المسيحي ، والمناطق المجاورة لفرنسا لغات أخرى • واراد الادباء اليهود في اسبانيا الاسلامية لاشقائهم ما وراء الحدود ان يفهموهم ويطلعـوا على احوالهم فوضعوا مؤلفاتهم بالعبرية ، كما ترجمت لهم المؤلفات التي وضعت في العربية • وهكذا حدث أمر نادر في تاريخ الامم : ان أقلية يهودية تعيش بين جيران كثيرين وتتشبع بثقافتهم لم تذب ولم تنصهر في حضارة هؤلاء، بل طورت حضارتها القومية الخاصة بها •

أهمية «عهد اسبانيا»

يتكلم الاسرائيليون اليوم ويكتبون العبرية، في الجيش والكنيست، وفي المعامل والمختبرات وفي الملاعب الرياضية • ولقد نشأت حركة بعث واحياء اللغة العبرية كلغة الحياة اليومية منذ عقود زمنية قليلة • وقبل زمن ليس بالبعيد وقف الكثيرون يتساءلون متشككين : كيف يمكن للغة الكتاب المقدس التي كف اليهود عن التكلم بها قبل ألفي سنة أن تتكيف لمقتضيات الحياة العصرية ؟ كان لهذا الادعاء ما يبرره لو ان تطور اللغة ونموها قد توقف فعلا خلال ألفي سنة • الا أن المتشككين لم يعلموا بالذي حدث للغة العبرية طيلة كل هذه الفترة ولم يأخذوا في الحسبان مـدى استعمالها الواسع في تدريس التوراة والصلاة ، وباستعمالها الدائم كلغة ارتباط بين اليهود من الدول المختلفة، وعلى الاخص لم يأخذوا في الحسبان

مدى تطور وازدهار هذه اللغة في «العهد الاسباني» • نعم ان الأدب العبري الذي أنتج في اسبانيا لم تبلغ شهرته شهرة الكتاب المقدس ، ولكنه كان ولا يزال مهما جدا للشعب اليهودي •

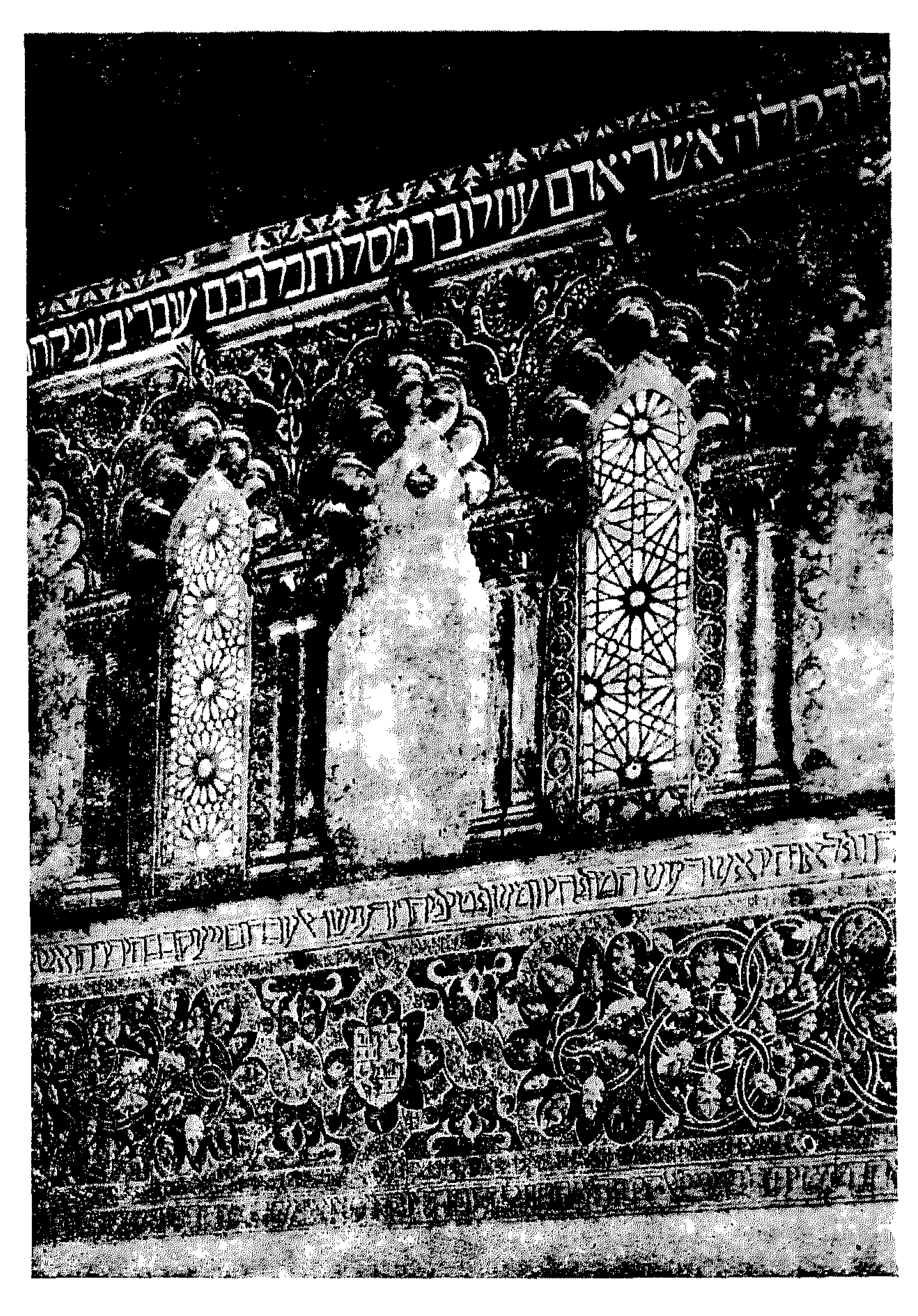
اصبحت العبرية عند يهود اسبانيا لغة العلوم الطبيعية ، فضلا عن علوم الفقه التي حواها التلمود قبل ذلك أيضا ، وذلك جنبا الى جنب مع اللغة العربية • كان اليونان هم الذين طوروا العلوم في العصور القديمة (في أيام البيت الثاني) ومؤلفاتهم ما زالت هي القاعدة التي يقوم عليها العلم الحديث • وابان عهد الهيكل الثاني كثر اليهود الذين ألمّوا بالحكمة اليونانية ، وكان منهم من ألف في العلوم وخاصة في اسكندرية مصر ، وقد كانت آنذاك مدينة يونانية • ولكن كتابة هذه المؤلفات باليونانية كانت سببا في اهمالها عند اليهود • وفي أيام التلمود كان يهود بابل معزولين تماما عن جيرانهم • وفي أيام «النوابغ» وحين اصبحت العراق خاضعة للحكم العربي ترجمت مؤلفات علمية يونانية كثيرة الى العربية وتضلع بعض اليهود ايضا في العلوم ، ولكنهم كانوا قلة بسبب عدم اتاحة الفرص لليهود للتقدم والارتقاء الى المناصب الهامة • أما في اسبانيا فقد مُنح اليهود للمرة الاولى فرصة التقدم وتحصيل العلوم ، وهناك بدأوا في كتابة المؤلفات العلمية والفكرية باللغة العبرية كما في العربية •

اهتم حاخامو اسرائيل في اسبانيا بعلم اللغة ، وبهذا سهلوا عملية الكتابة بالعبرية ، بحيث أصبحت تستجيب لكل موضوع بشكل واضح ودقيق • تجددت في اسبانيا مفردات عبرية كثيرة ، واكثر "حاخامون من الاهتمام بقواعد اللغة العبرية ، طبقا للمبادىء العلمية التي حصلوا عليها من اليونانيين القدماء بواسطة المؤلفات العربية ، ومبادىء أهل الصرف والنحو العرب • ساعد علم اللغة في وضع التفاسير للتوراة • كان مهما بالنسبة للمفسرين معرفة الوضع والمعنى الدقيقين لكل كلمة ، وتفهم المبنى العام للجملة كلها • أسهم يهود أسبانيا في أعمال التفسير والشروح الخاصة بأصول الديانة اليهودية ، لكي يصونوها من حملات الاجانب • بهذا سار يهود اسبانيا في أعقاب الرابي سعاديا (وقد عرف ايضا باسم سعيد الفيومي) أحد نوابغ سورا ، وقد ترجم التوراة الى العربية (لغة بابل

ـ العراق ـ في عصره) • وضع مناحيم بن سروق أسس القواعد العبرية ، وكان الرابي دافيد قمحي (القمحي) أحد كبار الباحثين في هذا الحقل • كان من أبرز المفسرين والشارحين الرابي ابن عزرا (الطليطلي) والرابي دافيد قمحي والرابي موشي بن نحمان، والرابي ليفي بن غرشون (عاش في فرنسا الجنوبية وكانت من الناحية اليهودية امتدادا لاسبانيا) ، والرابي اسحاق أبربنئيل • وقد ساعدت مؤلفات الرابي بن عزرا ، والقمحيين (عائلة الرابي دافيد قمحي) على نشر علوم اللغة العبرية بين يهود العالم كله •

اكتسى الشعر العبري كذلك حلة جديدة تماما • فمن المعروف أن الشعر الوارد في الكتاب المقدس لا يقوم على أساس الوزن أو القافية • في حال ان الشعر العربي الأندلسي كان متطورا جدا في مبناه ـ وزنا وقافية• أخذ العرب علم القروض عن اليونان ، ولكنهم زادوا اوزانا شعرية جديدة خاصة بهم • كان قرض الشعر صناعة محترمة مقبولة لدى الجميع ، اكسبت الشاعر مكانة محترمة في المجتمع • اهتم العرب كثيرا بعلم البلاغة والبيان ، أي القدرة على التعبير عن فكرة واحدة معينة بصور شتى وباستعمال كلمات مترادفة • فكان ان تعلم اليهود في اسبانيا كافة طرق صياغة الشعر العربي وأضفوها على العبرية • وقد بدأ بذلك دوناش بن لبراط ، وكان مهاجرا من أرض بابل •

اشتهر من الشعراء العبريين في أسبانيا الرابي شلومو بن غبيرول ، (ابو أيوب سليمان بن يحيى بن غبيرول) والرابي شموئيل النغيد (ابو ابراهيم اسماعيل بن النغريلة) ، والرابي موشي بن عزرا والرابي يهودا الحريزي وعلى رأسهم جميعا ـ الرابي يهودا هليفي (يهودا ابو الحسن اللاوي) ، كبير شعراء اسرائيل • تنوعت أغراض الشعر ، فطرقت ترنيمات الصلوات ، والافكار الفلسفية ، والغزل ، والمدامة ، والود • ووصف شموئيل النغيد في أشعاره العبرية الحروب التي أدارها بوصفه قائد جيش غرناطة • في اسبانيا عاد اليهود الى التغني بالاشعار الدنيوية بعد أن ظلوا طيلة اجيال عديدة يتغنون بالترانيم الدينية فقط • أثر يهود اسبانيا في هذا الحقل على يهود ايطاليا الذين شابه وضعهم الثقافي وضع يهود اسبانيا الى حد ما، وخاصة



من زخارف الكنيس اليهودي في طليطلة ويعود تاريخه الى القرن الرابع عشر .

على الشاعر عمانوئيل الرومي • اشتهر يهودا هليفي ، بشكل خاص ، بقصيدته التي يقول في مطلعها «صهيون ، الا تسألين» ••• ، وبقصائد البحر التي قرضها وهو على السفينة التي أقلته في أخريات أيامه الى أرض اسرائيل ، محط آماله ورجائه• (ويُقال أن فارساً عربياً قد وطئه بحوافر حصانه عندما كان غارقا في العبادة قرب الحائط الغربي) •

اعتمد يهودا هليفي (اللاوي) في معيشته على الطب ، وكان بمثابة رمز لكبار رجال الفكر والأدب العبريين في اسبانيا ، وقد مارس معظمهم مهنا حرة ، فاعتمدوا في معيشتهم اما على الطب أو على مهن أخرى لها علاقة بعلوم الرياضيات • احتل علم الفلك والتنجيم مكانة هامة بارزة في ميدان العلوم • اذ أن الناس كانت تؤمن بتأثير سير النجوم على مصير الشعوب والافراد • وقد اعتاد الحكام الاستعانة بالمنجمين في معرفة سير الكواكب لاستطلاع المستقبل • وتعيين المواعيد التي يبسم فيها الحظ • وقام أحد المنجمين اليهود ، وهو المنجم المعروف ابراهام بار حيا (ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى) ، باجراء حساب بطريقة التنجيم لتعيين موعد قدوم المشيح • اكثر العلماء اليهود من تحسين وتطوير آلات الرصد وأجهزة توجيه السفن، وقاسوا الأبعاد الجغرافية ، وبهذا مهدوا للاكتشافات الكبرى (اكتشاف امريكا، والدوران حول افريقيا)، التي قام بها أسطولا اسبانيا والبرتغال، بعد انتهاء «عهد اسبانيا» في تأريخ اليهود •

استهوت الفلسفة اليونانية قلوب حكماء اليهود ، لما فيها من بحث منطقي علمي في مشاكل الكون ومقام الخالق والمخلوق في هذا العالم • وهذه الفلسفة مكنتهم من ايضاح ودعم أسس ديانتهم، وصيانتها من حملات الأجانب ، كما فعل ذلك تفسير التوراة • ولما كان المتناقشون في أمور الدين قد استعانوا لأغراض النقاش بالأدلة والبراهين المستقاة من مصادر العلوم الاخرى ، فقد كانت المؤلفات الفلسفية بمثابة مقدمة عامة تؤدي الى باقي العلوم • اجتذبت الفلسفة قلوب اليهود حتى في عهد مضى ، وفي الاسكندرية ذاع صيت الأديب الفيلسوف فيلون (يديديا) الاسكندراني • ومن حكماء بابل الذي عنوا بالفلسفة تجدر هنا الاشارة ، ثانية ، الى الرابي سعاديا غاؤون • ولكن في اسبانيا فقط تفتح أدب فلسفي كُتب باللغة العبرية •

كان من أبرز الفلاسفة الرابي شلومو بن غبيرول ، والرابي باحيا بن فقودا (وقد اشتهر في أوساط الشعب كتابه «واجبـات القلـوب») ، والرابي يهودا هليفي (مـؤلف «كتاب الـكوزاري») والـرابي حسـداي قريسقس ، وأهمهم ـ الرابي موشي بن ميمون (رمبام) (المعروف باسم ابـو عمـران مـوسـى بن ميمـون القـرطبي) وكـان من مـواليـد اسبانيا ولكنه رحل الى مصر وألف هناك كتابه «دلالة الحائرين» • ومن يهود فرنسا الجنوبية تجدر الاشارة الى الرابي ليفي بن غرشون • لم يكتب كل هؤلاء الفلاسفة مؤلفاتهم باللغة العبرية ، ولكن قام هناك حكماء كرسوا وقتهم كله لترجمة المؤلفات اليهودية من العربية الى العبرية • واشتهر من المترجمين أبناء عائلتي تيبون وقمحي • انهمك الفلاسفة الذين عاشوا في فرنسا الجنوبية واسبانيا الشمالية ، في مشـكلة العـلاقة بين الله والانسان بوجه خاص ، فوضعوا في ذلك طريقة فلسفية خاصة ، هي علم الباطنية ، لانها تبحث في الغوامض الالهية ، وتتطلع الى اتحاد روح الانسان بروح الله بطريقة غامضة • وكانوا يؤمنون بان هذه الطريقة قد انتقلت اليهم من كبار الحـكماء القدامى ، ولهـذا أسموها «القبـالـه» أي طريقة النقل • أول مؤلف وضع في اسبانيا في هذه الطريقة كُتب بالآرامية ، وهو كتاب الـ «**زوهر**» **זהר** (النور)، الى المعلم الرابي شمعون بار يوحاي ، أحد رجال الحركة السرية ابان حكم ادريانوس الغاشم • وخلافا لفلسفة موسى بن ميمون (الرمبام) التي اعطت القدح المعلى للعقل والمنطق أعطى أصحاب طريقة «القباله» القدح المعلى للعاطفة • (ويضاهيهم في ذلك المتصوفون في الاسلام) • قال هؤلاء أن العاطفة تقرب الانسان الى خالقه (أملوا في اعادة النبوءة الى اسرائيل ، وتقريب يوم الخلاص) • وحدث بالفعل ان هذه الطريقة قد اجتذبت المؤمنين وشدتهم الى الدين في أيام الاضطهادات وخيبة الامل وانعدام الأمن •

الى جانب ذلك كله انتشر تعليم التلمـود في أسبانيـا ، ووضعت مؤلفات هامة في تفسيره وشروحه • اكتسب هذا الموضوع ، هو الآخر ، صبغة جديدة في اسبانيا : فقد اهتم الحكماء بتبويب الأحكام المنصوص

عليها في التلمود وشرحها وتفسيرها بالأسلوب الذي شاع استعماله بالنسبة لسائر العلوم الأخرى. كان من أبرز هؤلاء المؤلفين الرابي اسحاق القاسي الذي قدم الى اسبانيا مهاجرا من مراكش ، والرمبام (موسى بن ميمون) الذي كان مؤلفه «مشناه ـ التوراة» משנה תורה أنموذجا



موشي بن ميمون (أبو عمران موسى ابن ميمون القرطبي)

واضحا لأسلوب يهود اسبانيا في تبويب الأحكام وبسطها . أعد هذا المؤلف ليكون مجموعة قوانين عملية للشعب ، وقد اعتادت جاليات اسبانيا والشرق اصدار الفتاوي استنادا الى نصوصه وفحواه . كان الرمبام طبيبا مشهورا في عصره ، وتبدو معلوماته في هذا الحقل واضحة حتى من خلال مؤلفاته في المواضيع الأخرى . وكانت الجاليات المشهورة في قرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، وطوليدو (طليطلة) مراكز لتعليم التوراة ، وكثرت فيها المدارس الشهيرة .

تدهور أوضاع اليهود في اسبانيا

يعود معظم الانتاج الأدبي العبري في اسبانيا الى الفترة التي تردت فيها أوضاع اليهود ٠ احتل العرب اسبانيا عام ٧١١ للميلاد ، وانقضى ما يربو على ٢٠٠ سنة حتى تطورت العلوم والفنون التي أتي بها من الشرق٠ بدأ الانتاج الأدبي العبري في التفتح والتطور في أيام الوزير اليهودي حسداي بن شفروط الذي تمتع بنفوذ كبير في حياة اليهود (كان النحوي مناحيم بن سروق سكرتيره) ٠ ولكن ، وبعد مضي عشرات السنوات (في عام ١٠١٣) تجزأت الدولة الاسبانية العربية (وكانت عاصمتها قرطبة) الى دويلات صغيرة متخاصمة ٠ وفي الدويلات ، أيضا ، احتل اليهود مكانة هامة ، اذ أصبح شموئيل النغيد رئيسا للوزراء في دولة مدينة غرناطة ٠ تعرض اليهود أحيانا لأعمال الاضطهاد ٠ وازدادت الكراهية الدينية بشكل خاص بعد أن احتلت اسبانيا جماعتان مسلمتان دينيتان قدمتا من الشمال الافريقي ، وهما المرابطون والموحدون الذين حاولوا اكراه اليهود على اعتناق دين الاسلام ٠

وفي مطلع القرن الثالث عشر اشتد ساعد المسيحيين الاسبان فاستولوا على مناطق واسعة من البلاد ، وساعدهم اليهود على ذلك مساعدة فعالة ، بغية التخلص من اضطهاد الموحدين ٠ كان وضع اليهود بعد هذا الاحتلال مريحا جدا ، ولكن الحقد الديني استفحل في وقت لاحق اذ تكاثر المسيحيون ورأى التجار وأصحاب الحرف منهم في اليهود منافسين خطرين حتى أخذوا يضايقونهم ٠ في عام ١٣٩١ حدثت اضطرابات كبرى ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الجماهير اليهودية مكرهة على التنصّر ، ففعلت ذلك صورياً في الغالب ٠ ازداد عدد «المكرهين» المتنصرين، في أعقاب صدور قانون في عام ١٤١٢ يحظر على اليهود ممارسة الطب والصيدلة والصناعة واحتكار الضرائب ٠ حُظر على اليهود كذلك حمل السلاح ، وارتداء الملابس الفاخرة ، ووضعوا في غيتوات (حارات مغلقة) ٠ شكت الكنيسة المسيحية في «المكرهين» المتنصرين ، لكون اكثرهم يتمسكون في أعماق نفوسهم بأهداب ديانتهم اليهودية ٠ وفي عام ١٤٨٢ قامت محاكم التفتيش الفظيعة ٠ بتأثير رئيس محاكم التفتيش ـ توركويماده ـ طرد في عام ١٤٩٢ جميع اليهود الذين ظلوا مخلصين

لدينهم جهرا، لكيلا يؤثر هؤلاء على المتنصرين، وتعبيرا عن الشكر والحمد لله على اكمال تحرير اسبانيا من المسلمين • توجه قسم من المطرودين الى البرتغال • ولكن، وفي عام ١٤٩٨ صدر هناك أيضا قرار بطردهم، وأكره معظم اليهود على التنصر (وقد كان هذا مصير المسلمين ايضا) •

مصير يهـود اسبانيا :

وُضع المتنصرون بالاكراه في اسبانيا والبرتغال خلال نيف وثلاثة قرون تحت اشراف محاكم التفتيش التي أقامت بوليسا سريا واسـع النطاق ، وقامت بالتحقيق مع المشتبه بهم مسـتخدمة جميع أصنـاف التعذيب ، وحكمت بالحرق على من انتهى التحقيق الى ادانتهم • وحتى اليوم يوجد في اسبانيا والبرتغال بقايا من المسيحيين المعروفين بأصلهم اليهودي ، واصلهم هذا لا يزال سـببا في احتقـارهم • ومن متنصري البرتغال من عادوا الى أحضان ديانتهم اليهودية في عصرنا هـذا • وفي السابق أيضا هاجر الكثيرون من المتنصرين بالاكراه الى دول أخرى ، حيث عادوا الى اليهودية، وقد ارسى هؤلاء المهاجرون (وخاصة البرتغاليون) حجر الأساس للجاليات اليهودية في دول أميركا ، وهولندا •

الا ان اليهود الذين طردوا من اسبانيا وتوجهوا الى السواحل الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط قاموا بدور أهم من دور اخوانهـم المذكورين في تاريخ اليهود •

اجمـال

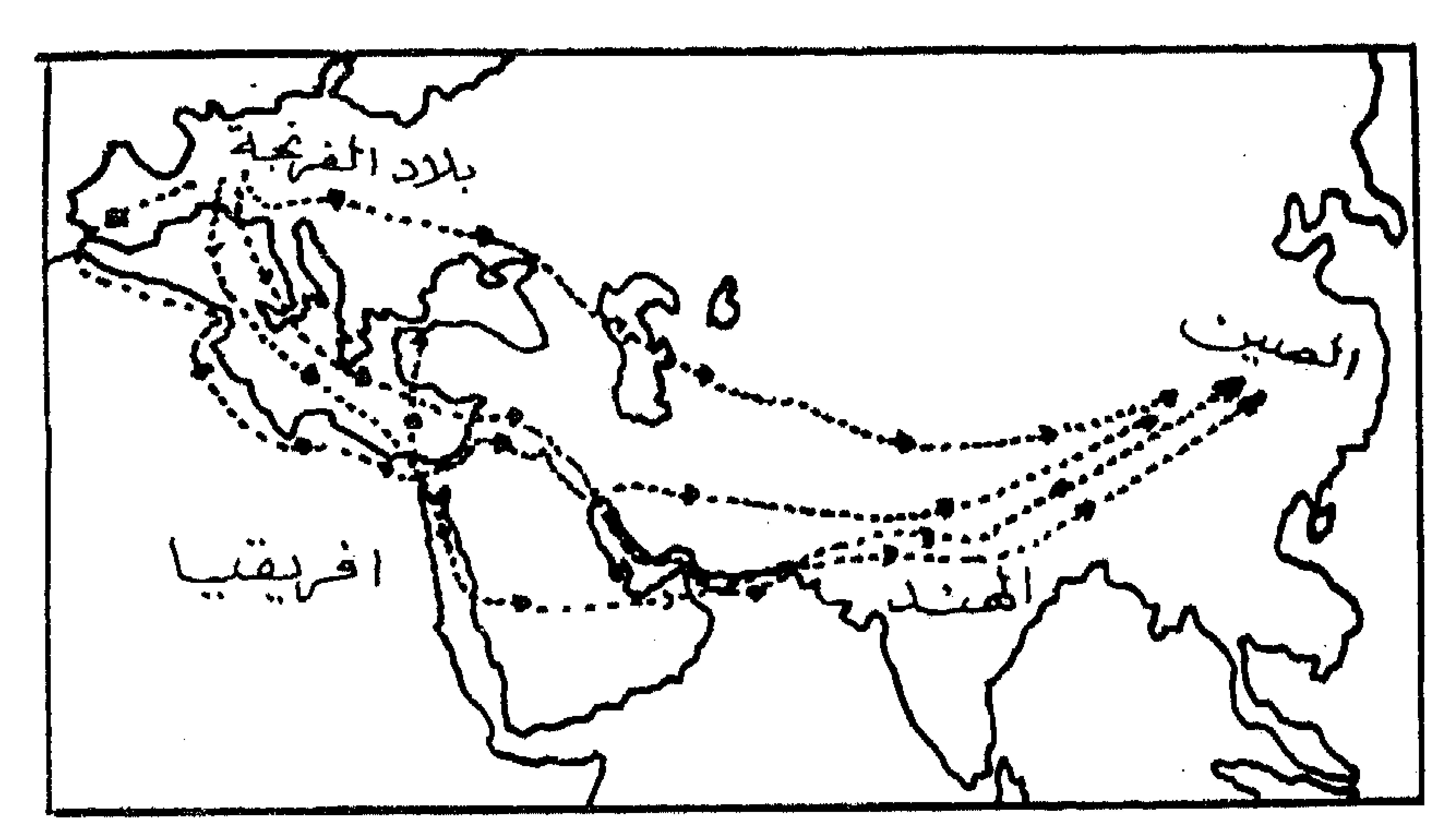
يقدم لنا تاريخ اليهـود في اسبانيا المسيحية ، ثم المسـلمة ، ثم المسيحية، صورة متكررة عن تاريخهم في غالب مهاجرهم : تسامح وازدهار ثم اضطهاد وانحطاط ، ثم تغير جذري في الاوضاع فتسـامح فازدهـار فانحطاط ••• ورغم كل هذه التقلبات لم يرض اليهود بالذوبان كحل جذري لمشكلة كونهم أقلية في كل مكان ، بل تطلعوا دوما الى يوم يتم فيه فكاكهم من الجلاء وعودتهم الى وطنهم الاوحد • والذوبان للجماعة كالموت للفرد ، ليس من الطبيعي أن تريده لنفسها ، وليس من الانصاف ان يريده لها الغير • وسنرى فيما بعد ان حتى الذوبان لم يكن في الحقيقة حلا ناجعـا •

الفصل العاشر

اليهـود في أوروبـا

ذكرنا ان اليهود كانوا قد انتشروا في ارجاء الامبراطورية الرومانية في أوروبا منذ القدم ، وتوقفوا حيث توقفت — أي عند نهري الدانوب والراين • عبر هاذين النهرين سكنت قبائل الجرمان المتوحشة في ثقافتها وحضارتها ، ولم تفلح الامبراطورية الرومانية في اخضاعها • في القرن الخامس ميلادي ، هاجم الجرمان ارجاء الامبراطورية الرومانية وخربوها، ولكنهم مع ذلك أخذوا عن الرومان دينهم الجديد ، المسيحية ، كما أخذوا بعض حضارتهم • رويدا رويدا تطور الاهتمام لدى الجرمان بالتجارة ، واخذ البحث عن بضائع لم تكن معروفة لديهم يزداد تدريجيا ، مما أدى الى اتساع رقعة التجارة في المدن الكائنة على نهر الراين (الحدود الالمانية — الفرنسية حاليا) • وأخذت المدن التجارية تنشأ تدريجيـا ، داخـل المنطقة الجرمانية القديمة وحتى في المناطق السلافية •

وبما ان اليهود كانوا قد عرفوا باختصاصهم في الحرف والصناعات والشؤون المالية والتجارة — ولا سيما منها التجارة الخارجية لما لهم من علاقات مع اخوانهم اليهود في كل مكان — أخذ الحكام الجرمان يستميلونهم ويستقدمونهم الى مدنهم عبر الراين • وعلى الاثر نشأت طوائف يهودية في ماينس وماغينسة وتراير وكلن وورمس وشباير وغيرها • الا ان هذا الاستيطان لم يتم على اساس من المساواة بل قام على نمط تلك الايام — نمط التعالي على اليهود • فقد اعتقد ملوك الألمان آنذاك بأنهم خلفاء لقياصرة روما وورثتهم ، حتى انهم سموا أنفسهم قياصرة • ادعى هؤلاء القياصرة أن اليهود صاروا عبيدا للامبراطور الروماني بوصفهم اسرى حرب بعد أن خرب الرومان أورشليم • وعلى هذا فانه يترتب عليهم البقاء كعبيد للدولة ، ومن الجهة الاخرى يقع على الامبراطور واجب الدفاع عنهم ، ويحق له جباية الضرائب منهم مقابل ذلك • ويحق للامبراطور أيضا أن



الخطوط التجارية التي طورها التجار اليهود وفي مقدمتهم عائلة الرادانيين
وقد وصفهم الجغرافي العربي ابن قرطبة

يهبهم للامراء الخاضعين له ، وللسلطات البلدية ، ليتصرفوا بهم كما يحق له هو أن يتصرف • زادت الكنيسة المسيحية هي الأخرى من وطأة هذه المهانة التي الحقتها السلطات باليهود ، اذ الزمت اليهود بحمل رقعة صفراء على ملابسهم وأضافت مهانات أخرى •

في ظروف كهذه حصل اليهود من الملك الالماني ومن كبار الاقطاعيين ورجال الكنيسة الاقطاعيين ايضا على «لائحة حقوق» حددت بموجبها حقوقهم كمنة لا كحق • وكانوا اذا تعرضوا لاعمال العنف من أي جانب هب القيصر أو كبار الاقطاعيين للذود عنهم ، وان لم يكن دائما بالنجاعة المطلوبة • ولما كان النظام الاقطاعي ونظام خدمة الارض فيه ينطويان على مضامين اجتماعية مسيحية ، فقد حال هذا دون اشتغال اليهود في الزراعة وملكية الارض •

كوارث الحروب الصليبية

دامت الحال على نمط من التعايش المقبول في اشكناز (المانيا) منذ القرن الثامن أو التاسع ميلادي الى أواخر القرن الحادي عشر ، حين فارت

في أوروبا فورة شديدة من التعصب الديني · وتفصيل ذلك ان فتوحات السلاجقة المسلمين في القرن الحادي عشر قد اثارت مخاوف الامبراطورية البيزنطيــة المسيحية ، وأخذ الحجــاج المسيحيون العائدون من الديــار المقدسة يتذمرون شديد التذمر من سوء المعاملة التي لقوها من المسلمين · فكان هذا من دواعي اندلاع الحروب الصليبية ، وأولاها سنة ١٠٩٥ م· حينئذ عن للصليبيين أن «يطهروا» أوروبا من «الكفر» قبل أن «يطهروا» البلاد المقدسة ، ولذا دعوا اليهود الذين عاشوا بين ظهرانيهم الى اعتناق الديانة المسيحية ، وخيروهم بينها وبين النهب والسلب والقتل والحرق ·

كان «الكفار» اليهود في نظر الجماهير المتطرفه الجاهلة عبدة شيطان، وقد وجد من اهتم بترويج دعاية مغرضة بين الجماهير المسيحية مؤداها أن اليهود يذبحون في كل عام عشية عيد الفصح أطفــالا نصارى ليعجنــوا



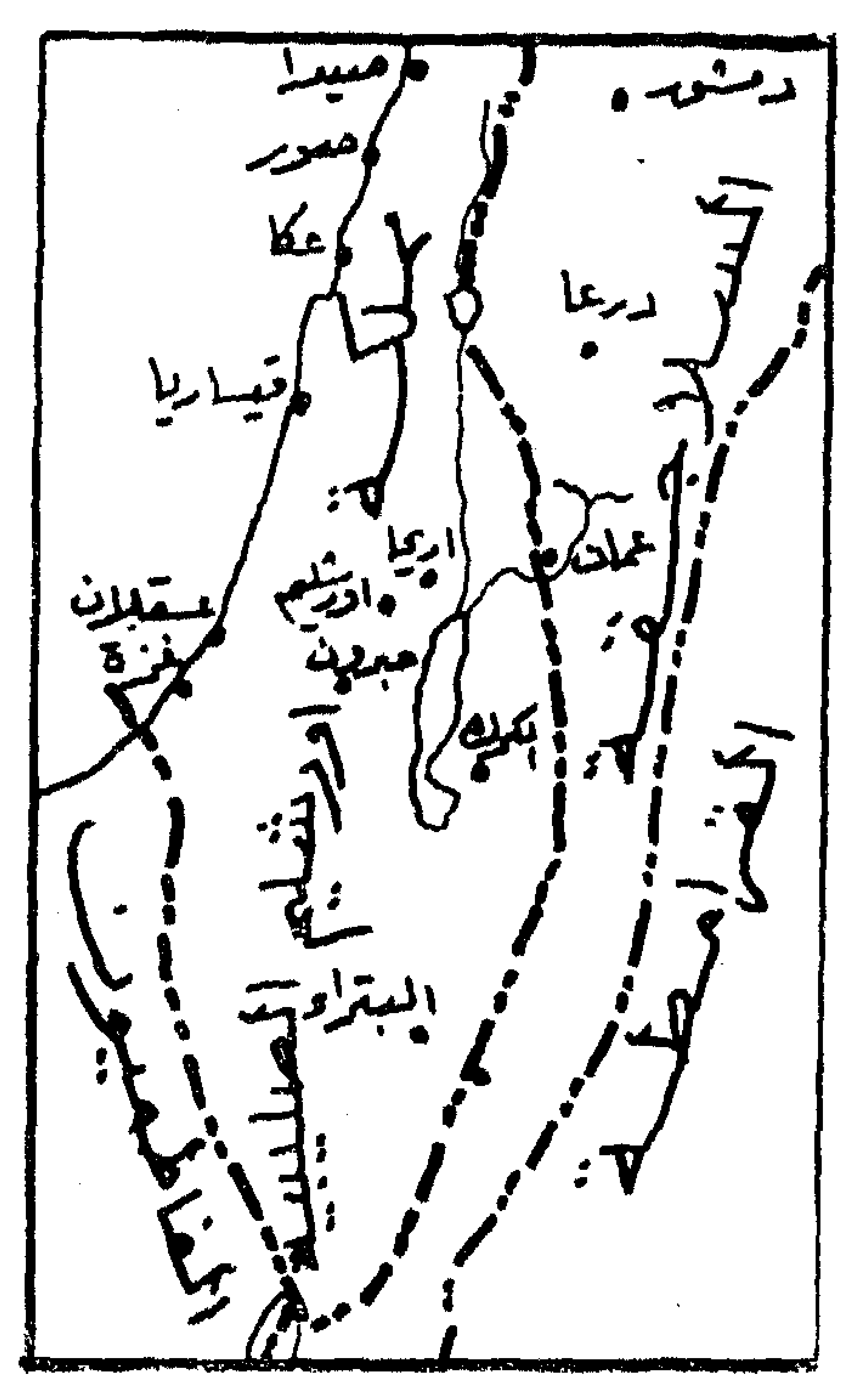
صورة قديمة تمثل اعتداء على الحي اليهودي في مدينة فرانكفورت بالمانيا في القرن السادس عشر ·

بدمائهم خبز العيد (المصّة). ظهرت «فرية الدم» هذه، للمرة الأولى فيمدينة بلوا الفرنسية سنة ١١٢١ ميلادية وأسفرت هذه الفرية عنحرقجميع يهود المدينة في ٢٠ سيوان من عام ٤٨٠١ عبرية (جعل هذا اليوم يوم صوم سنوي) • منذ ذلك الحين أصبحت «فرية الدم» سلاحا في أيدي الحاقدين على اليهود، يشهرونه متى شاءوا، وخاصة في أوروبا الوسطى والشرقية• ورغم أن كل فرية دم كانت تنتهي بتبرئة ساحة المتهمين في المحكمة ، الا ان العامة لم تنتظر صدور قرارات المحاكم بل اعملت في اليهود تنكيلا واضطهادا ، ولم يكن في مقدور قرارات المحاكم أن تستأصل هذا الاعتقاد الزائف المضلل من نفوس الكثيرين في أوروبا • (حتى في دمشق وفي عام ١٨٤٠ اثار بعض المسيحيين الاوروبيين فرية الدم • ولكن الخوف من اليهود وكأنهم أعوان الشيطان كان مميزا لاوروبا المسيحية فقط • ذلك لان الشرق الاسلامي قد تعود منذ البداية على تعدد الاديان والشيع والاقليات فيه وبالرغم من تعرض هؤلاء «الكفار» فيه للملاحقة والاهانة ، فان الجماهير لم تكن تنظر اليهم بمثل تلك النظرة المشبوهة المتشككة التي نظر بها المسيحيون الى اليهود في أوروبا المسيحية : هنا كان اليهود هم «الكفار» الوحيدون المستضعفون •)

استقتال اليهود

ثارت موجة الاعتداءات الاولى على اليهود في المانيا فور قيام الموجة الصليبية الاولى (سنة ١٠٩٦) كما ذكرنا ، ولم يرتدع فيها المعتدون عن أية وسيلة حتى وسيلة حرق اليهود الاحياء بالنار •

وكانت اكثر موجات الاعتداء عنفا تلك التي حدثت في سنوات ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ ، ابان انتشار الطاعون الأسود (الموت الأسود) ، اذ اتهم المسيحيون اليهود بأنهم السبب في نشر هذا الداء، بواسطة تسميم الآبار• وقد افلح بعض الحكام في الدفاع عن يهودهم ، كما افلح اليهود في الدفاع عن انفسهم ، اذ انهم في بعض الاحوال استأجروا الحصون وانتقلوا اليها برجالهم ونسائهم وأولادهم ودافعوا عنها دفاعا موفقا ، أو قتلوا بعضهم بعضا قبل أن يسقط الحصن في يد المحاصرين • وتنصر البعض الاخر ، ولكن الى حين فقط • وقد سجل التاريخ عن هذه الفترة المأساتية بطولة



الديار المقدسة في عهد الصليبيين

التضحية بالروح انتحارا أو حرقا في الدفاع عن الايمان بالله وتوراته ، حتى أصبح تقديس اسمه تعالى بالتضحية بالروح من أعلى المثل اليهودية منذ ذلك الحين · ونشأت خلال هذه الفترة العصيبة حركة حسيدية ثانية هي حسيدية اشكناز ، نشأت على الباطنية والتقشف ، والسلوك المثالي أمام الله والناس ·

أما في الديار المقدسة نفسها فقد كان الصليبيون عنصرا حاكما لا مستوطنا ، ولذا فقد تم اندحارهم على يد صلاح الدين الايوبي · وكان مصير اليهود في الديار المقدسة ابان حكمهم أن طردوا من أورشليم القدس فقط ، ولكن سمح لهم بالاقامة في سواها من المدن والقرى · أما عيشتهم

فيها فقد كانت عيشة نكد ، ولكنهم لن ينزحوا عن ديارهم المقدسة بتاتا ، بل بالعكس فقد انضم اليهم افراد وجماعات من اخوانهم العائدين من شتى الجاليات ٠

منذ كارثة «الطاعون الأسود» أصبح اليهود في المانيا قلة في عددهم ، وتردى وضعهم الاقتصادي ٠ سكنوا في غيتوات ، وهي احياء خاصة محاطة بسور، وسمح لليهود بالخروج من هذه الاحياء المغلقة الى الاحياء المسيحية في ساعات النهار فقط ٠ لم تتوسع الغيتوات ، ولهذا كان الاكتظاظ فيها شديدا ٠ ويحدث أن يكون الغيتو عبارة عن شارع واحد ــ شارع اليهود ــ ٠ انتشر نظام الغيتو في دول أخرى في أوروبا المسيحية أيضا (اشتقت كلمة «غيتو» من اسم معمل للمدافع كانت بقربه حارة اليهود في مدينة فينسيا) ٠ في الوقت ذاته طرد اليهود من انكلترا (١٢٩٠) ومن فرنسا (١٣٠٦ و ١٣٦١ و ١٣٩٤) ٠ وهكذا غدت الغيتوات من مميزات المدن الالمانية فقط ، وهنا ايضا كان اليهود قد تعرضوا للطرد من مدن كثيرة بسبب استفحال التنافس التجاري بين اليهود والمسيحيين ٠ اهتم المسيحيون بأن يمارس اليهود الأعمال المتهنة في نظرهم ، مثل تسليف المال بالفائض ، والمتاجرة بالملابس المستعملة ٠ عاش اليهود في المانيا في ظل هذه الظروف القاسية المهينة نيفاً وأربعة قرون ٠ وفي وقت لاحق ، حددت السلطة عدد الزيجات اليهودية ، خشية تكاثرهم ٠

الهجـرة الى أوروبا الشرقية

أطلنا الحديث عن اليهود في المانيا لسببين أولهما لان هؤلاء تعرضوا لشتى صنوف الاضطهاد ــ وهم بذلك أنموذج حي لما يجب أن يتوقعه كل شعب يفتقر الى وطن ودولة ٠ والثاني هو لانهم بالرغم من هذا الاضطهاد لم يتناقصوا بالمدى الذي تناقص فيه اشقاؤهم في سائر دول غرب أوروبا ٠ وليس هذا وحسب ، وانما لعب يهود المانيا كذلك دورا هاما في عملية المحافظة على كيان الشعب اليهودي ٠ وها نحن نرى اليوم ، أن ثمانية من كل تسعة يهود في العالم هم من أصل «اشكنازي» (أي أنهم ينتسبون الى يهود المانيا الاوائل) ٠ كيف حدث هذا كله في ظل ظروف مريعة ؟

قلنا ان الراين كان في البداية الحد الفاصل بين بلاد متقدمة عامرة في كثير أو قليل، وبين بلاد متخلفة، قليلة السكان، عديمة المدن والقرى، مكسوة بالغابات، تتطلع الى الاستيطان ۰ وبدأ الاستيطان من الغرب متجها الى الشرق ۰ وكان طبيعيا ان ينجذب الناس شرقا حيث المساحات الواسعة القليلة السكان لينشئوا فيها المزيد من المدن والقرى كلما ازدادت المدن والقرى فيمواقعهم وتكاثفسكانها۰ وهكذا توجه اليهود الاشكناز هم ايضا مع الالمان شرقا لغرض انشاء المدن الجديدة التي كان كل مستوطن فيها يعتبر عاملا من عوامل الانشاء والتطور ۰ لهذا كانت النظرة الى اليهود المستوطنين في المدن الجديدة أحسن منها في المدن القديمة ۰

وحتى حين توقف توسع المزارعين الالمان نحو الشرق بعد أن وصلوا الى حدود دول حازمة صدتهم عن التقدم ، لم تتوقف عملية انتشارالمدن الجديدة ۰ ذلك ان ملوك هذه الدول كانوا يستدعون اناسا من المانيا الى دخول حدودهم وانشاء المدن الجديدة داخلها ۰ حدث هذا في تشيخيا، وفي هنغاريا، وبولندا، ولتوانيا۰ وكانتبولندا ولتوانيا متحدتين سياسيا، ولهما مساحات شاسعة شملت آنذاك روسيا البيضاء وأوكراينا الحاليتين. ولذا كانت امكانات بناء المدن والقرى ، ومن ثم الاستيطان اليهودي ، تبدو كبيرة مضمونة في هذه المملكة ، بشكل خاص ۰

لم يأت اليهود الى بولندا ولتوانيا من الغرب ، من المانيا ، فقط ، الا أن اليهود الالمان هم الذين أضفوا طابعهم على السكان اليهود هنا ۰ لم تكن حياة يهود المانيا غنية كحياة يهود اسبانيا ، الا انهم امتازوا بغيرتهم الشديدة على الدين : فبالرغم من كل الاضطهادات لم تكد تشهد المانيا ظاهرة المتنصرين بالاكراه ۰ فقد فضل اليهود هنا الموت «من اجل قدسية الرب» على الانحراف عن الدين والتنصر، حتى ولو كان هذا التنصر ظاهريا ۰ لم يرهبهم ان يموتوا ميتة القديسين الأتقياء ۰ ولما لم يكن هؤلاء قد اختلطوا منذ البداية بالحياة العامة في المانيا ، فان وجودهم في غيتوات مغلقة معزولة لم يفت في سواعدهم ۰ لم يتمرسوا في العلوم كما تمرس يهود اسبانيا (حتى المسيحيين لم تنتشر بينهم العلوم مثلانتشارها في اسبانيا) ۰ بل كفاهم انهم تمسكوا بدينهم ، وبكتابهم المقدس ، وعليه بنوا حياتهم العائلية ، وتربية ابنائهم ، وانظمة جالياتهم ۰

الحياة الثقافية :

حين تركز اليهود في منطقة الراين ، برز منهم رجال عظام في الدين والتوراة · كان أحد هؤلاء الرابي غرشوم «مصباح المهجر» ، رجل من مغينسا ، حرم على اليهود الأشكناز الزواج من امرأتين ، وهو التحريم الذي لم يتقبله اليهود السفاراديون وأبناء الطوائف الشرقية · ومنهم الرابي شلومو يتسحاقي (راشي) الذي استوطن الجانب الفرنسي من الراين ، واشتهر بشروحه التي وضعها للكتاب المقدس وللتلمود ، والتي مازالت تحتفظ بمكانتها وبقيمتها الكبيرتين حتى الآن ، لما تميزت به من بساطة ووضوح ، وجاءت في لغة عبرية سليمة ودقيقة · وقد ساعدت هذه الشروح في نشر تعاليم الكتاب المقدس والتلمود وقيمهما ، وكذلك في تعميم القصص الاخلاقية والمواعظ الدينية في أوساط الشعب · ويعتبر «راشي» مثالا للحاخام المثابر ، المتواضع ، الذي خرّج طلابا كثيرين نابهين · وكان حفيده ابن كريمته الرابي يعقوب تام ، الذي عاش هو الاخر في فرنسا ، احد كبار أصحاب الملاحق، أي الحاخامين الذين أضافوا الىشروح التلمود، وعالجوا المشاكل التي تعرض لها · لما اشتدت الاضطهادات ضد اليهود الأشكناز، وأصبحت حياتهم كلها تطلعا الىالموت، اشتد فيهم الميل الىتأهيل نفسهم للحياة في الآخرة ، وهكذا نشر الرابي يهـودا الحسـيد «كتاب الحسيديم» الذي حاول فيه ارشاد اليهودي الى كيفية حماية نفسه من الخطيئة ، والحفاظ على كرامة التوراة والدين في كل عمل (حتى في علاقاته مع الشعوب الأخرى) ، واستعداده للموت من اجـل «قدسية الرب» لا الحياة عن طريق «تدنيس الرب» ·

لم يتمرس اليهود الأشكناز في العلوم الجغرافية مثل اشقائهم اليهود الأسبان ، ولكنهم ألفوا السفر لأغراض التجارة · وخلف الرابي فتاحيا مرغنشبورغ ، وراءه ، وصفا هاما لجولة قام بها في اسيا عن طريق اوروبا الشرقية ·

اهتم الرابي مثير من روتنبرغ بتعزيز روح اليهــود ليتمكنوا من الصمود أمام الاضطهادات فعمل على تكتيل قواهم ، وغرس في نفوسهم بذور الطاعة الجماعية وتعلم التوراة والتلمود : تلك كانت روح يهــود ألمانيا عندما توجهوا الى شرقي أوروبا ٠

كــزاريــا

وجد اليهود الألمان الذين قدموا الى أوروبا الشرقية اشقاء لهم كانوا قد وصلوا هذه البلاد واستوطنوها قبلهم ٠ كانت القفقاس والقــرم من المناطق الجبلية الفقيرة التي استوطنها اليهود من آسيا ٠ وصل هؤلاء اليهود الى وضع أصبحوا فيه فلاحين أحرارا ، وتمكنوا من نشر ديانتهم بين جيرانهم٠ وفي أيام الغاؤونيم في البلاد البابلية تكونت في أوروبا الشرقية مملكة لليهود والمتهودين ، أطلق عليها اسم «كزاريا» ، وكانت كبرى الدول من هذا النوع في المهاجر ٠ أقام ملوك قبيلــة كزار (أو كــوزار) المهودة بالقرب من مصب نهر الفولغا على بحر قزوين (الخزر) ٠ أما غالبية اتباعهم من اليهود فتركزت ، كالسابق ، في بلاد القفقاس الشمالية وفي القرم ٠

ذاع صيت هذه المملكة القوية في جميع انحاء العالم اليهودي ، حتى وصل اسبانيا ٠ وينسبون الى الرابي حسداي بن شفروط انــه تبادل الرسائل مع يوسف ملك كزاريا ، ومن المعلوم ان يهودا هليفي وضع مؤلفه «الكوزاري» في شكل حوار بين الملك الكوزاري الذي أوشك على التهود وبين الحاخام الذي تولى مهمة شرح وايضاح تعاليم الديانة اليهودية وأحكامها له ٠ أجل ، كانت تلك مملكة واسعة وقوية ، الا أن رعاياها كانوا منتشرين في الصحارى والغابات والجبال والسهول وكانت نسبة الامية بينهم عالية جدا، ولم يفلح اليهود الاصليين في تكوين مركز حضاري لهم ٠ ومنذ أن استولى الغزاة التتار الآسيويون على هذه البلاد (١٢٣٩) ترك معظم المتهودين اليهودية وأخذ عدد اليهود في التناقص ٠ وهكذا ، وخلال القرون الطويلة اللاحقة بقيت بولندا ولتوانيا المركز الاكبر لليهود في أوروبا الشرقية ، وان كان قد بقي قسم قليل من اليهود في القفقاس والقرم حتى يومنا هذا ٠

اليهـود في بولنـدا ولتوانيـا

تطورت دولة بولندا ولتوانيا وبتطورها اتسعت امكانيات استيعاب التجار وأصحاب الحرف من اليهود. هكذا قامت مدن يهودية صغيرة في جميع انحاء تلك البلاد ، كانت بمثابة حلقة الوصل بين المدن الكبرى والقرى ٠ اعتاد القرويون القدوم الى البلدة مرة في الاسبوع في يوم السوق ، واعتاد أبناء البلدة السفر الى المدينة مرة في السنة، الى المعرض التجاري السنوي٠ عاش اليهود في المدن الصغيرة ، الطليقه ، الرابضة في احضان الطبيعة ، عيشاً اكثر هدوءا وراحة من العيش في داخل غيتوات المدن الكبيرة المكتظة واسوارها ٠ عاشوا ، وتزاوجوا ، وتناسلوا ، وتكاثروا ٠ ومع مرور الزمن تبلور في هذه المدن طابع يهودي أصيل ، خلده الادباء والكتاب مندلي بائع الكتب ، وشالوم عليخم ، وبيرتس ، وشنيئور ، وأش ، وكثيرون غيرهم في قصصهم ورواياتهم٠ وتطورت اللهجة الالمانية التي تكلم بها هؤلاء اليهود وتبلورت في شكل لغة خاصة ، تختلط فيها الكلمات العبرية بالألمانية ، تلك هي الأيديش ٠

انشأ اليهود ، أيضا ، مؤسسات قطرية للادارة الذاتية : «لجنة الولايات الاربع» (في بولندا) و «لجنة ولاية لتوانيا» ٠ الولايات الأربع هي : بولندا الكبرى (قطاع وارسو) وبولندا الصغرى (قطاع كراكوف) ، ورايسن (قطاع لبوف) ووهلين ٠ كان المزارعون في الولايتين الاخريين أوكرانيين ناصبوا الحكم البولندي والاجانب عامة ، العداء ٠ استوطن هؤلاء السهول الخصبة التي احتلها التتار في حينه واستثمروها ٠ وأسهم اليهود الذين اضطلعوا بادارة مزارع الملاكين البولنديين في تنظيم هـذا الاستيطان، وتكاثر اليهود هنا بكثرة ٠ دامت الحال كذلك حتى منتصف القرن السابع عشر ٠ وفي هذا التاريخ نشبت الثورة الاوكرانية الكبرى ضد الحكم البولوني ، بقيادة بوعذان حميلنيتسكي ، فاصلت بنارها اليهود ايضا ٠ حتى ليقدر ان ١٢٠ الى ١٥٠ الف نسمة منهم قد قتلوا



في مجازر دموية. عرفت هذه المجازر باسم «مجازر عامي ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩». واعقب ذلك قيام عصابات الثوار الأوكرانيين بمجازر ضد اليهود المرة تلو المرة . ولكن البلاد كانت من الخصب وسهولة الاستيطان بحيث عاود اليهود عملية الاستيطان والتكاثر مرارا وتكرارا .

الحياة الروحية ـ الحركة الحسيدية :

لم تكن لتوانيا (شملت، آنذاك، روسيا البيضاء) خصبة كأوكرانيا، ولكنها اشتهرت بانتشار المدارس والدراسة الدينية بين يهودها، حتى لقبت عاصمتها ويلنا عند اليهود باسم «أورشليم لتوانيا». ويعتبر النابغة الفذ الرابي الياهو الويلنائي رمزا للدارس المثابر اللتواني. وبالرغم مما بلغه من حدة في التفكير ، فقد عارض اسلوب «التفلفل» الذي شاع في المدارس

الدينية اليهودية ، والذي توخى شحذ فكر الطالب في الاخذ والرد لا لغاية سوى «التفلفل» (ادارة النقاش الحاد كالفلفل) ـ وفضل عليه تعليم الكتاب المقدس والقواعد اللغوية الى جانب التلمود • وأضفى الراب الياهو من روحه الفذة على مدرسة وولوجين المشهورة التي تأسست بعد وفاته •

أدى تزايد عدد اليهود في شرق أوروبا الى اكساب التيارات الروحانية التي قامت في وسطهم صبغة الحركات الشعبية الكبرى والصغرى ، بحيث لم تعد هذه التيارات قصرا على افراد موهوبين • زادت مجازر سنتي ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩ من تطلع اليهود الى الانقاذ ، وانجر الكثيرون وراء المشيح (المنقذ) الكاذب شبتاي صفي (انظر الفصل الثالث عشر) في تركيا ، وتورط هؤلاء في معتقدات أتباعه والمؤمنين به • ثم قام زعيم احدى هذه الحركات الانفصالية ، وهو مغامر فاسد اسمه يعقوب فرانك، بهدم جميع الحواجز الفاصلة بين الحلال والحرام ، حتى وصل به الامر الى حد تحريض اتباعه على ترك اليهودية ، والتنصر • ولكن ، وازاء هذه الحركات الانفصالية ، نشأت في أوروبا الشرقية حركة حسيدية ثالثة عن يد الرابي يسرائيل باعل شم طوف (بعشط) ، فعادت على الشعب اليهودي بالخير والبركة •

كانت هذه الحركة رد فعل للقنوط الذي استحوذ على الجماهير اليهودية من جراء المجازر من جهة ، وخيبة الامل بمشيحية شبتاي صفي من جهة ثانية ، ومن جراء تمادي التلموديين في صب الحياة اليهودية في قوالب جامدة من التصلب في فرائض الدين وأحوال العبادة التي اضفت على الحياة كآبة ويبوسة كبيرة • عمل «بعشط» على بذر بذور الثقة والطمأنينة في نفوس الجماهير عن طريق اقناعهم بان الايمان بالله والاخلاص للامة اليهودية، لا المغالاة في الدرس والتعبد، هما الاساس• كذلك علمهم ان عبادة الباري يمكن أن تتم ليس فقط بالتضلع بعلوم الدين والانكباب على درس التوراة والتلمود الخ ـ الامر الذي لم يتيسر لعامة

اليهود ـ بل بالعمل الطيب ومحبة الباري بحرارة تجد التعبير عنها بالغناء والرقص الشعبي • وقد تخللت الحسيدية عناصر القبالة (المذهب الباطني اليهودي) المؤمنة بامكان التقرب المباشر اليه تعالى • (قارن بينها وبين حركة اصحاب الطريقة التي نشأت عن التصوف الاسلامي •)

حث «بعشط» طلابه على القيام بدور المرشدين للمجتمع ، وللفرد ، على حد سواء ، فكانت نظرة الناس الى مثل هؤلاء المرشدين نظرة ملؤها الاحترام والتقدير ، لانهم خالطوهم وشاركوهم اتراح الحياة واعادوا لهم افراحها ، ودربوهم على المودة والتعاون • اصبح كل تلميذ من تلاميذ بعشط «صدّيقا» له اتباعه من الحسيديم• وبلغ تقدير واحترام الصدّيق احيانا حد الافراط والمبالغة ، ولكن كان من هؤلاء الصدّيقين أشخاص ذوو مستوى أخلاقي وأدبي عال جدا يستحقون الاعجاب• ومع مرور الوقت أصبحت مواعظ هؤلاء الصديقين وأحاديثهم جزءا هاما من الثقافة اليهودية•

أثارت الحركة الحسيدية في البداية مخاوف التلموديين، وفي مقدمتهم الياهو الويلنائي، اذ خشي هؤلاء ان تؤدي هذه الحركة الشعبية الى هبوط مكانة تعلم التوراة والتلمود في أوساط الجماهير • من هنا نشأت حركة «المعارضين» للحركة الحسيدية • وقد أسهمت هذه الحركة، هي الاخرى، في ازدياد التيقظ القومي والجماهيري في أوساط اليهود • هاجر الكثيرون من اتباع الحركة الحسيدية ومن معارضيهم الى أرض اسرائيل في شكل جماعات كبيرة • وفي لتوانيا ، بلد التعلم والدرس ، اكتسبت الحركة الحسيدية شكلا خاصا : اذ عملت على المزج بين الحسيدية والتلمود • وقد عُرف هذا التيار باسم حَبَد (مشتقة من الكلمات العبرية الثلاث : الحكمة ، والفطنة ، والمعرفة) • حدثت هذه العاصفة من التشاحن بين الحركة الحسيدية ومعارضيها قبل ١٥٠ ـ ٢٠٠ سنة ، أي في غضون تلك الأيام التي حدث فيها تحول سياسي في أوروبا الشرقية ، الا وهو أفول نجم دولة بولندا ـ ليتوانيا ، وظهور روسيا على مسرح التأريخ كوريثتهما الرئيسية •

اجمـال

في أواسط القرون الوسطى ، حين أخذ نجم يهود آسيا وافريقيا في التضاؤل ، بدأ في البزوغ نجم يهود أوروبا ، ثم قامت في أوروبا ثلاثة تركيزات يهودية هامة • في أقصى الشرق الاوروبي ــ مملكة واسعة كانت اليهودية دينها الرسمي ، تلك هي مملكة كزاريا • وفي أقصى الغرب ، في اسبانيا ، كانت لليهود مكانة محترمـة ابان الحـكم العـربي • وفي الوسط ، على ضفاف الراين ، لعب اليهـود دورا هامـا في بعث حركة التجارة وتوسعها التدريجي نحو الشرق • وقف اليهود ، هنا في أوروبا ، ببسالة وببطولة نفسيتين نادرتي المثال ، في وجه الاضطهادات وأعمال العنف والتقتيل ، حتى أصبحوا بحق النواة الصلبـة المنيعـة للشعب اليهودي •

الفصل الحادي عشر

التحرر والانصهار والابادة في أوروبا

حركة التثقيف

رأينا ، انه كانت قد انتشرت في اسبانيا معرفة العلوم التي ورثتها الانسانية عن اليونانيين القدماء ، وانه قام ، آنذاك ، أدب علمي باللغة العبرية . ولكن أوروبا الغربية والمركزية خطت بعد ذلك خطوة أخرى الى الامام بعدم اكتفائها بالعلوم اليونانية وبمباشرتها البحث عن حقائق فلسفية وعلمية جديدة . غير ان أوروبا هذه كانت قد طردت اليهود ، أو اسكنتهم الغيتوات ، وحظرت عليهم الاتصال والاختلاط بالمجتمع المسيحي ، والتعلم في مؤسساته التعليمية . لهذا لم يتمكن اليهود هنا من مواكبة التقدم العلمي ، والادبي ، والفني ، والاسهام فيه . هكذا مرت مائتا سنة ، أو مائتان وخمسون دون حدوث أي تغير في أوضاع اليهود هناك .

كان اليهود ، على العموم ، يعرفون القراءة والكتابة ، في حين كان معظم المسيحيين القاطنين خارج أسوار الغيتوات أميين . ولكن اليهودي المثقف الذي أحسن قراءة لغته ، أو قراءة اللغات الاخرى المكتوبة بأحرف عبرية ، أصبح على مر الايام يقل في مستواه الثقافي ، الى حد كبير ، عن المسيحي المثقف . كان اليهودي المثقف ثقافة دينية يبدو جاهلا بالنسبة للمسيحيين المثقفين ثقافة دنيوية . لهذا انقطع عند اليهود ذلك الشعور بالتفوق الثقافي الذي كان مصدر فخر لهم ، وعمل على صيانة كيانهم القومي . ثارت في نفوس اليهود الرغبة في التساوي مع الجيران المسيحيين ومشابهتهم. وسرعان ما تبلور لديهم الاعتقاد بأن الغيتو هو مكان مبتذل، لا لأن سكانه كانوا مسلوبي الحقوق ، فحسب ، وانما لان هؤلاء السكان أصبحوا في نظر أنفسهم جاهلين يقلون في مستواهم الثقافي عن الغير .

هكذا نشأ الاعتقاد بأن على كل راغب في الارتقاء والتقدم «أن يخرج من الغيتو» • وذهب البعض الى أبعد من ذلك ، فقالوا ان التحرر من روح الغيتو يجب أن يسبق الخروج منه • كانت ايطاليا هي البلد الوحيد الذي ظل فيه الاتصال قائما بين حكماء اسرائيل والحكماء المسيحيين ، وقد أثر ذلك على نتاج أفكار اللغوي الرابي الياهو باحور ، والناقد الرابي يهودا من مودينا ، والباحث المؤرخ ، الرابي عزاريا الأدومي ، والشاعر الرابي موشي حييم لوزاتو • غير ان هذه الحقيقة لم تغير كثيرا من الوضع العام في أوروبا ، خاصة وان عدد يهود ايطاليا كان قليلا بسبب عمليات الطرد•

كانت الحروب الدينية التي دارت بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا ، في القرن السادس عشر — مقترنة بالنهضة الفكرية ، قد لقنت أوروبا درسا مفيدا ، هو واجب التحلي بروح الصبر والتسامح ازاء الديانات والاعتقادات الاخرى • وسبقت هولندا كافة الدول الاوروبية الى التحلي بمبدأ التسامح فلجأ اليها اليهود المطرودون من البرتغال • عاد هؤلاء الذين اكرهوا على التنصر في حينه الى احضان ديانتهم اليهودية، ونشدوا العيش كسائر اليهود الذين استوطنوا الغيتوات الاوروبية • طالب الرابي منشي بن يسرائيل بحق اليهود في العيش بطمأنينة (وعمل من أجل اعادة اليهود الى بريطانيا بعد ان طردوا منها) • تطورت الجالية اليهودية في هولندا وازدهرت ، وذلك بحكم ازدهار هولندا كلها ، حيث احتلت آنذاك مكانا هاما وبارزا في ميدان التجارة الدولية والملاحة • ونجد بين لوحات الرسام الهولندي المشهور رمبراندت رسوما ليهود يرتدون الملابس الأنيقة ويشف شكلهم عن الوقار والجلال • جعل اليهود من امستردام مركزا هاما لتدريس التلمود وطباعة الكتب الدينية • وكرد فعل نفساني لما تعرض له هؤلاء في البرتغال أقام اليهود بمحض رغبتهم حيا خاصا بهم (غيتو) وابتعدوا عن المجتمع المسيحي في كل ما له علاقة بالشؤون الروحانية • ولكن ظهر منهم من عارض بشدة هذا التباعد غير أن رد فعل الطائفة اليهودية كان عنيفا ، لان أبناء هذه الطائفة شددوا من تمسكهم بعقيدتهم وبدينهم ، وابدوا حساسية زائدة لكل نقد • تأثر هؤلاء ، كذلك ، بالأسلوب الذي اعتاد المسيحيون البرتغاليون استخدامه ازاء الناقدين من بينهم • وكان مصير المعارضين ان انتحر

أورئيل دا قوسطا ، بعد أن ضُرب علنا في الكنيس ، لاعتراضه على الفقه التلمودي وصرامته (١٦٤٠) وابتعد الفيلسوف باروخ شبينوزا عن أبناء الطائفة الذين قاطعوه بسبب آرائه الحرة «الكافرة» (١٦٣٢ – ١٦٧٧ م)٠

كان هذان فردين وحيدين ولكن في وقت لاحق جاء دور الكثيرين ، وخاصة في بلد الغيتوات المعروف ، ألمانيا ٠ وبرز منهم موشي مندلسون ، وهو فيلسوف معروف وان لم يرتفع الى مكانة شبينوزا ، فاكتسب شهرة واسعة بين هواة العلوم المسيحيين ٠ أما موهبته وكفاءته في نشر آرائه بين أبناء شعبه بطرق لينة لطيفة ، فقد أحلّته مكانة لم يبلغها دا قوسطا أو شبينوزا ٠ والشيء الأول الذي طالب به مندلسون ابناء شعبه كان الدعوة الى التكلم أو الكتابة بلغة الشعب الذي يعيشون بين ظهرانيه ٠ آنذاك تكلم اليهود في الغيتوات لهجة المانية – يهودية خاصة ، مختلطة بكلمات عبرية ، وكتبوها بأحرف عبرية) ٠ وتسهيلا لتحقيق دعوته ترجم مندلسون التوراة الى الالمانية بحروف عبرية ، وقام عدد من طلابه بترجمة سائر اسفار الكتاب المقدس كذلك٠ وأضيفت الى الترجمة شروح بروحها، وفعلا حققت هذه الترجمة الغاية التي شاءها لها مندلسون ، فاستطاع اليهود تعلم اللغة الألمانية بواسطتها ، وبهذا فتحت أمامهم الابواب الى الأدب الألماني ٠ جمع مندلسون حوله تلاميذ كثيرين ، وبهذا أسس حركة جديدة ، هي حركة «التثقيف» ، وأطلق المنتسبون اليها على أنفسهم اسم المثقفين ٠ كانت احدى الوسائل التي استعان بها هؤلاء في اثارة الرغبة لتعلم اللغات والآداب الأجنبية لدى اليهود ، هي نشر انتاج أدبي عبري يماثل الانتاج الأدبي الاجنبي، كالاشعار، والروايات التمثيلية، والقصص والمقالات العلمية، لكي يقف اليهود قراء العبرية من خلال هذا التقليد على مدى الثراء الروحاني والأدبي الذي سيكون من حظ متكلمي اللغة الالمانية٠ توخى «المثقفون» متعمدين نشر هذا الأدب الألماني باللغة العبرية ، وليس بلغة الغيتوات التي كرهوها وعملوا على ابعاد اليهود عنها ونسيانها ٠ كانت العبرية لغة محترمة ، وكانت نظرة المسيحيين اليها نظرة اجلال وتقدير لكونها لغة الكتاب المقدس ، وكان من بين هؤلاء من اراد تعلم العبرية ، بدافع الحب الحقيقي لهـذه اللغـة ٠ أما بالنسبة للجـاليات اليهودية الصغرى التي عاشت في غيتوات أوروبا الوسطى، فكان استخدام

العبرية بمثابة مرحلة انتقالية نحو انتشار الألمانية · ولكن ، وحين وصلت هذه المؤلفات الى ايدي السكان اليهود الكثيرين فيأوروبا الشرقية، أصبحت هناك أساسا لأدب عبري عصري أصيل ·

المســاواة في الحقــوق

اذا كنا شهودا في هذه الفترة لبداية زوال ظاهرة الغيتو ومنح اليهود حقوقا متساوية ، فان علينـا أن نذكر أن عوامـل شتى عملت في هـذا الاتجاه واتحدت لتكوّن حقيقة واحدة· في تلك الفترة تضاءل الى حد كبير نفوذ الديانة المسيحية والزعماء الدينيين · وأخذ المثقف المسيحي يرى في الدين أمرا شخصيا، يعنيه كفرد، ولا يحق لسواه التدخل فيه· وبصورة تدريجية انتشرت الفكرة القائلة بضرورة احـلال المســاواة في الحقــوق المدنية بين جميع الناس في البلد الواحد ، باعتبارهم يتكلمون لغة واحدة ، ويشكلون شعبا واحدا بصرف النظر عن دياناتهم · أبدى بعض أصحاب هذه الفكرة استعدادا لمنح اليهود حقوقا متساوية ، وتحريرهم من الغيتو، شريطة انصهار هؤلاء من الناحية القومية في الشعب الذي يعيشون بين ظهرانيه · أثرت آراء مندلسون وتلاميذه الذين حاولوا اظهار محاسن الأجنبي لليهود هي ايضا اثرها في هذا الاتجاه · ولكن العامل الرئيسي لهذا الاتجاه كان اجتماعيا ـ اقتصاديا · كانت تلك أيام تطور اقتصادي سريع في أوروبا · فتح هذا التطور السريع في الحقلين التجاري والصناعي امكانات واسعة جدا لكل ذي مبادأة· ولم يكن النشاط الاقتصادي غريباً على يهود الغيتوات ، ولهذا احتـل هؤلاء مكانة هامـة وتدريجية في عـالم التجارة والصناعة· هذه الحقيقة اخرجتهم من بين جدران الغيتو وقربتهم من الناحية الثقافية الى الأجانب · وبقدر ما تمكن اليهود من احتلال مكانة عملية هامة ، تمكنوا كذلك من اكتساب مكانة رسمية وحقوق · لهذا لم يكن الخروج من الغيتو نتيجة الحصول على حق المساواة ، وانما كان نتيجة المكانة التي احتلها اليهود ، عمليا ، لأنفسهم ·

اختلفت النظرة الى مشكلة مساواة اليهود في الحقـوق باختـلاف طبيعة النظام الحاكم وماهيته · حين اندلعت الثورة الكبرى في فرنسا ، مُنح اليهود حقوقا متساوية (عام ١٧٩١) شريطة تنازلهم عن التجمـع

القومي • ثم أصبحت فرنسا خلال السنوات العشرين اللاحقة القوة العسكرية الرئيسية في العالم ، ومع توسع فتوحاتها واحتلالاتها انتشرت في أوروبا الغربية والوسطى وجهة نظرها في المشكلة اليهودية • ومع سقوط نابليون دخلت أوروبا في فترة من الرجعية القاسية ، ومعها بدأ التراجع عن مساواة اليهود • الا أن الموجات الانقلابية في عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، اسفرت ثانية عن منح اليهود حقوقا متساوية •

قامت بين أولئك اليهود الذين رأوا في أنفسهم اناسا يختلفون عن جيرانهم بالدين فقط ، وخاصة يهود غرب أوروبا ، حركة مؤداها اصلاح الدين أيضا ، أي ابعاد كل أثر للقومية اليهودية الخاصة في الصلوات (بما في ذلك الصلوات الخاصة بالعودة الى صهيون)، والصلاة بلغة الدولة، وتقريب مظاهر العبادة الى المظاهر المعمول بها لدى الجيران المسيحيين • انتشرت هذه الحركة — حركة «الاصلاح» أو «اليهودية الليبرالية» — في أوروبا الوسطى والغربية ، الا أن الكثيرين من اليهود المتحررين راحوا الى ابعد من ذلك فأصبحوا لا مبالين أو معارضين للدين ، الأمر الذي زاد من انصهارهم في جيرانهم ، وشجع على الزواج المختلط • وكان ثمة عامل آخر ، قوى هذا الاتجاه للانصهار ، ذلك هو ان اليهود أيدوا بطبيعة الحال تلك الحركات السياسية التي أيدت منح اليهود حقوقا متساوية ، وهذه الحركات عُرفت غالبا بمعارضتها للدين • وبالفعل ، كان نصيب اليهود في الحركات الانقلابية والاشتراكية الاوروبية كبيرا • الا ان مثل هذه الظواهر لم تظهر وسط الجاليات اليهودية الكبرى فيأوروبا الشرقية•

اللاسامية العنصرية

سهّل تقلص نفوذ الكنيسة المسيحية في البداية على خروج اليهود من الغيتوات • ولكن ولما شرع اليهود في احتلال مكانة مرموقة في المجتمع العام ، انتشر الحسد والحقد تجاههم • وامام هذا التحول لم يعد اليهود مخيرين بين «التحوّل عن الدين اليهودي أو العودة الى الغيتوات» • بل وقفوا أمام امر واحد فقط هو الابادة • وتفصيل ذلك أن الاوروبي الذي تضاءلت مكانة الدين في نظره ، ظل ينظر الى اليهودي كيهودي بصرف النظر عن معتقداته، حتى ولو كان يكفر بكل دين • وليس هذا وحسب،

وانما أدرك الاوربي بأن تحول اليهودي الى المسيحية يفتح أمامه الباب للارتقاء الى أعلى المناصب في المجتمع ، وهـذا معنـاه منافسة اليهـودي للاوروبي ٠ ولقد قال اليهودي هاينريخ هايني، احد كبار الشعراء الألمان، ان تنصره كان بمثابة «تذكرة دخول الى الحضارة الاوروبية» ٠ وقد حذا الكثيرون حذو هايني ٠

غير ان الاوروبي الذي أبدى في حينه استعدادا لدمج اليهود في شعبه ابان فترة «الحقوق المتساوية» لم يكن مستعدا لتحمل اليهود كمنافسين له ٠ لهذا حرص الاوروبي على الحيلولة دون تمكين اليهودي ذي الفكر الحاد من الوصول الى المناصب العالية ، أو التغلغل الى المراكز الهامة في حقول الادب ، والصحافة ، والعلوم ، والفنون ، خاصة وأن اليهود لم يكتفوا بتعلم الموجود ، وانما تعدوه الى اجتهادات وتجديدات من عندهم أضفوا عليها طابعهم الخاص ٠ هكذا ، تكون لدى الاوروبي الانطباع بأنه يتحول تدريجيا الى «غريب في بيته» ، وبأن حضارته القومية تتحول الى حضارة يهودية ، مفعمة بروح شعب دخيل ٠ وفي الحين ذاته اصبح من المتعذر اعادة الكرّة وطرد اليهود من البلاد أو عزلهم عن الشعب بالحجة القديمة ، حجة كونهم أناسا يتكلمون لغة غريبة ويؤمنون باله آخر ٠ أو انهم صلبوا المسيح ، وانهم يستعملون دم ولد مسيحي في خبز الفصح٠ لهذا لجأ الحاقدون والمبغضون الى حجة أخرى هي حجة العنصرية ، فادعوا بأن اليهود هم من جنس غريب، لايملك القدرة والكفاءة للانصهار انصهارا حقيقيا وكاملا ، وأنهم ــ أي اليهود ــ يفسدون كل مجتمع يعيشون في وسطه ٠ وحين افترى نفر من الحاقدين العنصريين على ضابط يهودي في فرنسا ، اسمه درايفوس ، بأنه تجسس لحساب المانيا ، كانت هـذه الفرية سببا كافيا للتحريض على اليهـود في أوروبا كلها طيلة سـنوات عديدة ، واعتادوا الاستشهاد بهذه الفرية للتدليل على ما وصفوه بعدم اخلاص اليهود للدول التي تأويهم اليها ٠

قاد هذا الحقد الأعمى الى تكوّن «علم» كامل في العنصرية ! ادعى العنصريون في البداية بأن في العالم عنصرا فاسدا هو «العنصر السامي» ، وقالوا ان اليهود هم ممثلو هذا العنصر في أوروبا ٠ لهذا اكتسبت ظاهرة كراهية اليهود العنصرية اسم «اللاسامية» ، وان لم تكن في حقيقتها موجهة

ضد شعوب سامية أخرى • وبلغ هؤلاء حدا قالوا فيه صراحة أن «العنصر اليهودي» وحده هو الفاسد والمجرم ، ونادوا بالقضاء عليه • أصبحت عائلة روتشيلد الثرية ، وزعماء الثورة الشيوعية ، والنواب اليهود في البرلمانات الاوروبية، والعلماء اليهود في جامعات أوروبا ــ أصبح كل هؤلاء في نظر اللاساميين وكلاء مؤامرة يهودية سرية تستهدف بسط نفوذها وسيطرتها على العالم • قال اللاساميون ان هؤلاء اليهود يخدعون العالم بالخلافات الشكلية وبالتناقضات الموهومة بينهم ، في حين يسعون ، في سرهم ، مجتمعين متكاتفين نحو هدف واحد • وأضاف هؤلاء بأن ابناء الزواج المختلط هم «أنصاف يهود» أصيبوا بحكم الوراثة بالعدوى اليهودية المتمثلة في افساد المجتمع الغريب •

اضطهاد اليهود في روسيا

استعانت الدعاية اللاسامية في الغرب بالدور الذي لعبته روسيا القيصرية في اضطهاد اليهود • وقد ذكرنا في فصل سابق انتشار الاستيطان اليهودي في بولونيا ولتوانيا ، ثم احتلال روسيا لهذين البلدين • ومنذ ذلك الحين وحتى سقوط حكم القياصرة الروس سنة ١٩١٧ حُظر على اليهود الانتشار والاستيطان في مناطق البلاد المختلفة ، وفُرض عليهم التركز في حدود المنطقة التي سكنوهاقبلالاحتلال الروسي• لم تُتح لليهود امكانية الحصول على وظيفة حكومية ، أو رتبة عسكرية الا نادرا جدا • وكانتامكانية التعلم فيالمؤسسات العلمية الروسية محددة لليهود تحديدا صارما • وحتى في داخل المنطقة التي سمح لهم بالسكنى في نطاقها حُظرت على اليهود السكنى في القرى المسيحية • وقد حدث أن شجعت السلطة قيام قرى يهودية منفصلة ، تمشيا مع رغبة الحكام في تطوير واعمار الأراضي الخصبة في أوكرانيا الجنوبية التي احتلها الروس من الأتراك • الا أن هذه العملية توقفت أيضا • حاولت السلطة في فترة معينة صهر اليهود ونشر الديانة المسيحية بينهم عن طريق تجنيد ابنائهم الكثيرين

للجيش ، ولكنها تراجعت عن هذه الخُطة فيما بعد • اتسع نطاق كره اليهود في أوساط السلطة الحاكمة ، وقبل سقوط هذه السلطة بسنوات قليلة جرت في كيوب (عاصمة أوكرانيا) محاكمة كبرى لفرية دم د'برت ضد اليهودي مندل بيليس •

كان من الطبيعي أن يعمل هذا الوضع على توجيه اليهود ، والشبان منهم، نحو الحركات الانقلابية الروسية، في حين اتخذت السلطة من اضطهاد اليهود والاعتداء عليهم وسيلة مجربة لتحطيم هـذه الحـركات • كانت أوكرانيا مركز الاعمال العدائية ضد اليهود وفيها تكررت المجازر ضد اليهود منذ أيام حْميلنتسكي • تعرض اليهود لموجة عنيفة من الاعتداءات الدموية في أعقاب مصرع القيصر الاسكندر الثاني على أيدي الانقلابيين في عام ١٨٨١ • وبعد عشرين عاما وحين ازدادت الحركات الانقلابية توقدا ، وقعت مجزرة في مدينة قيشينوف سنة ١٩٠٣ (هي المجزرة التي أشار اليها حايم نحمان بياليك في قصيدته المشهورة «في مدينة التقتيل») بعد مضي عامين وحين اندلعت نار الثورة في روسيا ، فرافقت محاولات اخمادها أعمال عدوانية دموية ضد اليهود •

في تلك السنوات ، ابتدع اللاساميون الروس فرية جديدة ضد اليهود ، هي فرية «محاضر جلسات شيوخ صهيون» • وقد ثبت فيما بعد ان هذه البروتوكولات ما هي الا سرقة ادبية وتحوير لكتاب وضعه الكاتب الفرنسي جولي وأسماه «حوار في جهنم بين ماكيافيلي ومونتسـكيو» • ووجهه ضد نابليون الثالث • طُبعت هذه البروتوكولات المزيفة في روسيا لاول مرة سنة ١٩٠٢ ، ثم اعيد طبعها سنة ١٩٠٧ ، واعلن بطلانها رسميا في محكمة أ'جريت في مدينة برن في سويسرا سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٥ • ولكن اللاساميــن في العالم ما زالــوا يتشبثون بـهذه الفريــة التي افتراها اللاساميون الروس •

ظلت أعمال العنف ضد اليهود ظاهرة شائعة في روسيا طيلة اربعين عاما• وذاعت كلمة «بوغروم» الروسية ــ ومعناها تقتيل ــ في جميع انحاء العالم • استهدفت الاعتداءات في البداية تخويف اليهـود وحملهـم على الهجرة من روسيا• وبالفعل بدرت منهم هجرة جماهيرية الى أميركا وأرض

اسرائيل منذ عام ١٨٨٢ ٠ الا ان هذه الهجرة لم توقف اشتراك اليهود في الحركة الانقلابية ٠ وبالمدى الذي ازدادت فيه أعمال العنف وأخذت تكتسب طابع الابادة الجماهيرية ، ازداد تعلق آمال الشبان اليهود بالمعسكر الانقلابي ، وأخذت اسماء اليهود الانقلابيين تبرز اكثر فأكثر ٠

تأصلت بين الكثير من الروس الرجعيين فكرة مؤداها أن اليهود هم القوة الدافعة للحركة الانقلابية ، وأنهم القوة التي تستهدف من وراء هذه الحركة بسط سيطرتها على روسيا وعلى العالم كله ، وأن من الممكن خضد شوكة هذه الحركة بواسطة ابادة اليهود ٠ عمل هؤلاء على نشر هذه الفكرة في الغرب ٠ وقد حظي المنشور الروسي الزائف المسمى «محاضر جلسات شيوخ صهيون» بترجمات عديدة وبانتشار هائل في جميع انحاء العالم ٠ وادعى اصحاب المنشور المدسوس المزيف أن هذا المنشور هو محضر جلسة سرية عقدها زعماء اليهود ، وضعوا فيها مخططا لاحتلال العالم ٠

وحين نجحت الحركات الانقلابية في تقويض حكم القياصرة الروس عام ١٩١٧ ، وأصبحت البلاد مسرحا لحرب أهلية طيلة بضع سنوات ، تعرض اليهود للاعتداء الدموي من جانب المناهضين للحكم الانقلابي ــ السوفياتي ٠ والى جانب الجنرالات الروس الذين حاولوا تجديد حكم القياصرة ، أمعن في أعمال العنف والتقتيل ضد اليهود القومي الاوكرايني المتطرف ــ بتليورا ٠ (قتل في باريس بيد يهودي ناقم) ٠ وفي وقت لاحق أصبح اضطهاد القومية اليهودية والثقافة اليهودية من دعائم الحكم السوفييتي ايضا ٠ وهكذا تبخر وتلاشى هذا الاعتقاد القائل بان الحركات الثورية اليسارية هي الوسيلة لحل المشكلة اليهودية حلا انسانياً ٠

ظهور النازيين ووحشيتهم

في عام ١٩١٨ ، ومع انهزام امبراطوريتي المانيا والنمسا ــ هنغاريا في الحرب الكونية الاولى ، اندلعت نيران الثورات في هذه الدول فقوضت حكم القياصرة ، مستبدلة اياه بالحكم الجمهوري الانتخابي ٠ واعقب ذلك ظهور اسماء يهودية بين كبار رجال الحكم الجديد ٠ لم تفلح

الانظمة الجديدة التي قامت بعد الهزيمة العسكرية ، في اصلاح ما افسدته الحرب ، ولذا انتشرت بين الجماهير التي عانت من الضائقة فكرة تقول بأن الانقلابات لم تكن في الحقيقة سوى مؤامرة يهودية . وزاد من رواج هذه الدعاية المغرضة قيام الشيوعيين بمحاولات استهدفت تسلم زمام الحكم ، في الوقت الذي برزت فيه اسماء يهودية في الهيئة القيادية لروسيا السوفياتية والشيوعية العالمية .

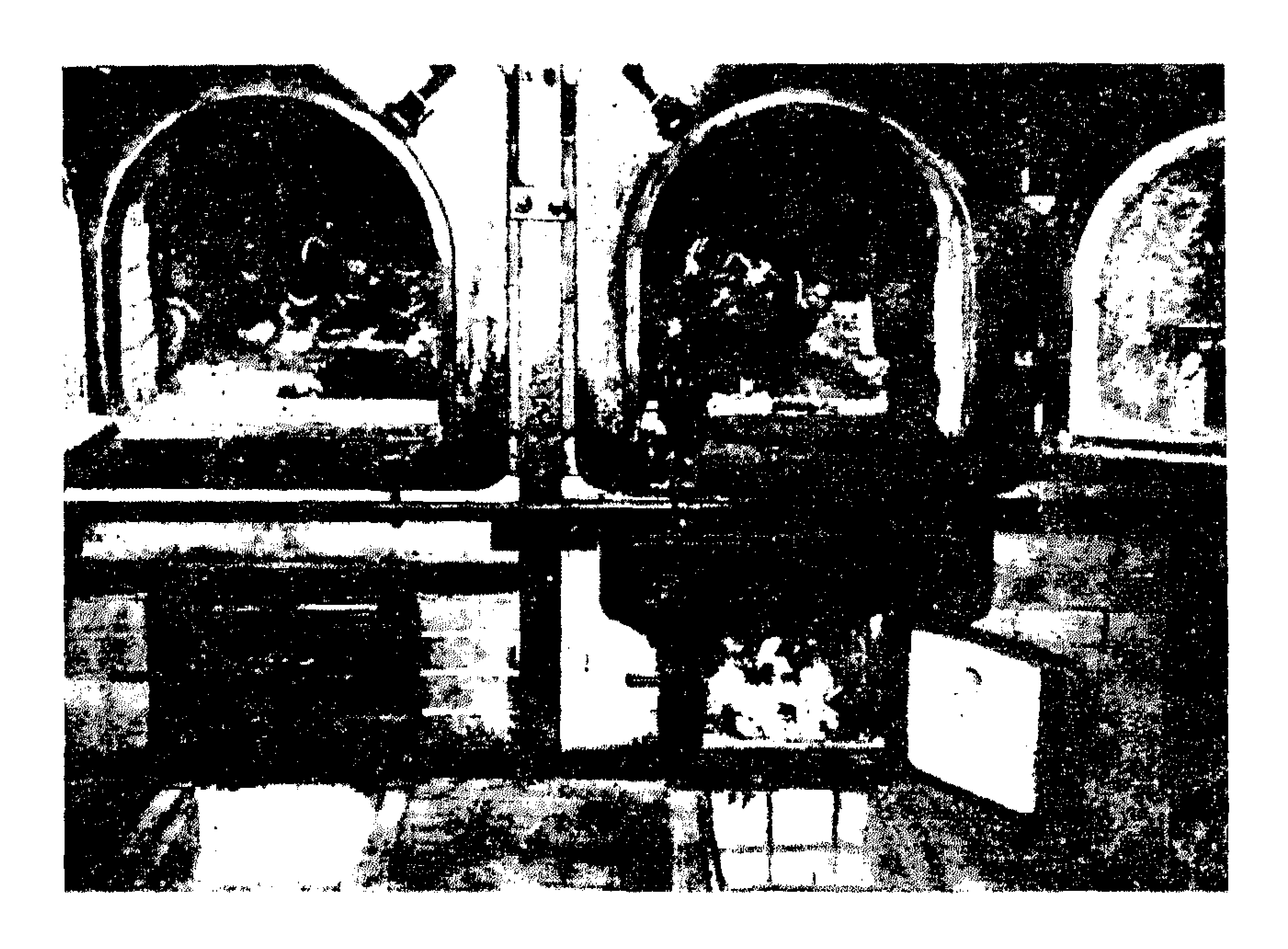
في احضان هذه الاوضاع المشكلة نبتت في المانيا بذرة «الحزب القومي الاشتراكي» - النازي - بزعامة هتلر . استغل هذا الحزب قنوط الجماهير الالمانية التي غلبت على أمرها في الحرب العالمية الاولى ، كذلك استغل النظريات العنصرية الفاسدة وجراثيم اللاسامية والبغضاء نحو اليهود - استغل هذا كله استغلالا غوغائيا شنيعا ، فأفلح في اثارة الغرائز الجماهيرية ، واستطاع أن يتسلم مقاليد الحكم في المانيا عام ١٩٣٣ . منذ ذلك الحين شرع هذا الحزب في اضطهاد اليهود وملاحقتهم ، وفي تجديد القيود التي سبقت فترة المساواة في الحقوق . أبان الحرب العالمية الثانية استفحلت وحشية النازيين وانعدمت انسانيتهم بتاتا، فأبادوا جماهير الشعب اليهودي في القارة الاوروبية . تحولت بولندا التي سكنها يهود كثيرون الى مركز للابادة ضد يهود أوروبا الغربية أيضا ، في حين تمت عملية ابادة اليهود الذين سكنوا في الشرق (في مناطق الاحتلال الالمانية في روسيا) في اماكن سكناهم ، حتى غدت اسماء تربلانكا ومايدانق واوشفيتس ومعسكرات الابادة الاخرى تثير الهول والفزع . أُبيد الملايين من اليهود بالغاز ، وأُحرقوا أحياء . وما زالت المحاولات اليائسة التي قام بها ثوار الغيتوات رمزا للبطولة الاسرائيلية في المهاجر . كانت كبرى هذه الثورات تلك التي حدثت في غيتو وارسو . ونظم اليهود الذين استطاعوا الهرب من الغيتوات العصابات فحاربوا النازيين محاربة الابطال في الغابات . وحدثت ثورة في معسكر الابادة سوفيفور .

الا ان هذه المقاومات كانت اضعف من ان تردع النازيين عن اعمالهم الهمجية ، وقد اعانهم فيها اللاساميون من البولونيين والاوكرانيين



فوج من يهود غيتو فارشا ينقلون الى احد معسكرات الابادة

وسواهم . وهكذا ابادوا نحو ستة ملايين من يهود أوروبا ، ولم ينجُ منهم الا من لجأ الى روسيا غير المحتلة ، والقليلـــــون الذين افلحـــوا في التستر او الهرب الى ارض اسرائيل والى خارج المناطـق التي احتلها النازيون ، او انضموا الى حركات المقاومة السرية او تبقوا اشباحا آدمية في معتقلات الابادة إثر اندحار النازيين .



جانب من المحارق اثناء عملها الرهيب

إجمال

انقضى قرن ونصف القرن فقط ، منذ بدأت فرنسا في تطبيق مبدأ المساواة في الحقوق لليهود في قارة أوروبا وحتى نُفّذت اكبر وأنكر جريمة عرفها التاريخ ، ضد اليهود • لاقى نحو ستة ملايين يهودي حتفهم على أيدي النازيين المجرمين ، وهذه الضحايا التي أزهقت ارواحها تشكل ثلث الشعب وغالبية ابنائه في أوروبا • هكذا فشلت محاولة الاندماج في حياة اوروبا وحضارتها ، وهي المحاولة التي أبقت ، لفترة ما، طابعا قويا على الحياة الاقتصادية والثقافية الاوروبية • واذا كانت غالبية اليهود قد أفلتت من براثن المجرمين وصانت مستقبلها ، فما ذلك الا لان الكثيرين من أبناء هذا الشعب قد غادروا أوروبا منذ القرن التاسع عشر، فمنهم من توجه الى دول ما وراء البحر ، ومنهم من عاد الى الوطن •

الفصل الثاني عشر

اليهـود عبر المحيـط

اليهـود يأتون الى أمريكا

في عام ١٤٩٢ ، وهي السنة التي طرد فيها اليهود من اسبانيا ، اكتشفت سفن اسبانية بقيادة كريستوفر كولمبس القارة الامريكيـة . استخدم كولمبس في رحلته لوحات فلكية وخرائط جغرافية كان قد أعدها العالم اليهودي الرابي ابراهام زكوتا ، الذي غادر اسبانيا مع النازحين وقدم الى أرض اسرائيل . يقال ان كولمبس كان من أصل يهودي . ومما لا شك فيه أن يهودا متنصرين كانوا من ممولي ومنظمي رحلات كولمبس كما كانوا من المشتركين في هذه الرحلات الاستكشافية . ومنذ اكتشاف أميركا لعب اليهود دورا بارزا في الهجرة الى الدنيا الجديدة ، أملا منهم في التخلص من رقابة محاكم التفتيش . وسرعان ما احتلت البرتغال مناطق واسعة في القارة الجديدة ، وهي التي تشكل اليوم البرازيل ، وأسهم اليهود المتنصرون النازحون من البرتغال فياعمار هذه المناطق واستيطانها. كان هؤلاء هم الذين طوروا فيها زراعة قصب السكر ، فكانت خلال زمن طويل دعامة الثروة القومية في هذه البلاد .

لم تتحقق آمال اليهود المتنصرين رغما عنهم ، فقد لاحقتهم محاكم التفتيش في القارة الجديدة ، وتعقبتهم طالما ظلت دول أمريكا الجنوبية والوسطى خاضعة للحكم الاسباني أو البرتغالي ، أي حتى قبل نحو مائة وثلاثين سنة . انصهر معظم المتنصرين مع مـرور الـزمن في السـكان المسيحيين ، ولم يصمد الا القليلون في وجه الملاحقات والاضطهاد ثم عادوا الى شعبهم ودينهم . تعيش حاليا في المكسيك قبيلة افرادها حمر البشرة ، ينتسب أجدادها الى اليهود المتنصرين الذين امتزجـوا بسـكان البـلاد

الأصليين من الهنود الحمر . ومازالت هذه القبيلة متمسكة بديانتها اليهودية حتى يومنا هذا . تمكن قسم من الذين تنصروا رغما عنهم من العودة الى ديانتهم اليهودية بفضل هولندا التي احتلت بعض المناطق الامريكية من الأسبانيين ، كما احتلت لفترة ما بلاد البرازيل من أيدي البرتغاليين . عاد المتنصرون الذين سكنوا المناطق الهولندية علانية الى ديانتهم ، والتحق بهم عدد كبير من اليهود الذين قدموا من هولندا نفسها (هؤلاء هم من سلالة المتنصرين النازحين من البرتغال) .

جرت في المستعمرات الهولندية في أميركا محاولات لاقامة مستوطنات يهودية ذات حكم ذاتي . ومازالت في بلاد غيانا الهولندية منطقة تسمى «السفانا اليهودية» ، قامت فيها في حينه مستوطنات يهودية مزدهرة . ولكن اليهود لم يفلحوا قط في اقامة مركز استيطان مستقل دائم لهم خارج وطنهم القديم ، لان البلاد المقدسة بقيت عالقة في قرارات نفوسهم . فقد تمسك اليهود بمركزهم الاستيطاني طالما ظل ناجحا مزدهرا ، ولكن، وحين كان اليهود يتعرضون للمصاعب ، نزحوا عن هذا المركز ونشدوا مكانا آخر يستوطنونه .

كانت احدى النتائج الهامة للاحتلالات الهولندية في أميركا بالنسبة لليهود هي وصول هؤلاء سوية مع المحتلين الى الولايات المتحدة الامريكية في الشمال. وهكذا استوطنت جماعة من اليهود، التي سبق لها أن نزحت عن البرازيل مع تجدد الحكم البرتغالي ، منطقة هولندية في شمال أميركا سميت «امستردام الجديدة». ظل اليهود في هذا المكان بعد أن احتله البريطانيون وأسموه يورك الجديدة (نيويورك) على اسم مدينة «يورك» البريطانية ، وكان ذلك في عام ١٧٧٦ . ومع ذلك، وعندما أعلنت الولايات استقلالها ، كان عدد السكان اليهود في هذه البلاد قليلا جدا — وكان معظمهم من أحفاد اليهود الذين أرغموا في حينه على التنصر في اسبانيا والبرتغال . الا ان تأريخ حرب الاستقلال الامريكية يذكر اسم يهودي بولندي ، هو حاييم سلومون ، قام بتسليف خزينة الولايات المتحدة مبلغا كبيرا من المال لاغراض الحرب .

الهجرة الكبرى الى الولايات المتحدة

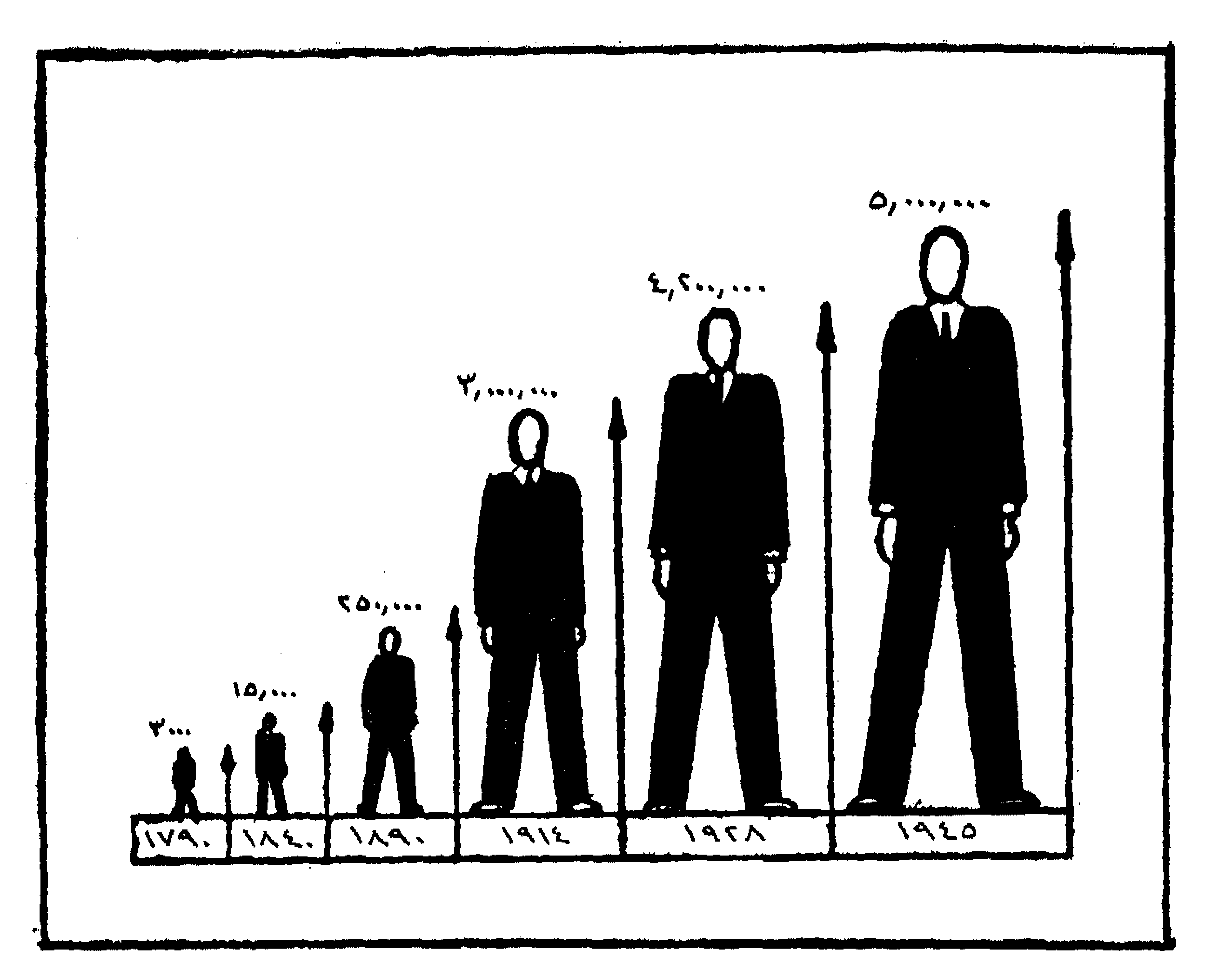
شملت الموجة الأولى من الهجرة اليهودية الى الولايات المتحدة يهودا المانيين قدموا ابان فترة تسلط الرجعية على بلادهم ، قبيل ثورة ١٨٤٨ ، وبعد قمعها · كان هؤلاء يهودا أرادوا العيش في بلادهم «ألمانا أبناء دين موسى» وفي الولايات المتحدة «أمريكانا ابناء دين موسى» · وقد تطلع هؤلاء الى الاندماج بأقصى السرعة في حياة المجتمع الامريكي · وأحفاد هؤلاء هم اليوم من أبرز فئات الشعب اليهودي في الولايات المتحدة ، وهم ذوو مكانة مرموقة في مجالات الحياة العامة في البلاد : في الأحزاب السياسية ، والوظائف العليا ، والقضاء ، والحياة الثقافية · أتى اليهود الألمان الى الولايات المتحدة بالاصلاح الديني ، وأقاموا المعابد التي تشابهت مظاهر العبادة فيها الى حد كبير مع مظاهر العبادة المسيحية ·

ولكن ، وبالرغم من ذلك كله ، لم يتنكر هؤلاء لاحتياجات الجمهور اليهودي في الولايات المتحدة وخارجها، وأقاموا مؤسسات هامة للمساعدة· لا توجد في الولايات المتحدة منظمات طائفية محلية أو قطرية واجبة على كل اليهود ، بل كل جماعة من اليهود تقيم كنيسا خاصا بها وتشكل وحدة خاصة ، لها حرية تخطيط وتصميم أعمالها كما تشاء · والمؤسسات اليهودية للمساعدة المتبادلة ، وكذلك المؤسسات التعليمية والثقافية ، هي الأخرى ، منظمات طواعية وحرة ، تقاس أهميتها بمدى نشاط الاعضاء وهمتهم · وأحفاد المهاجرين اليهود من المانيا هم الذين أسسوا مؤسسة «الجوينت» الكبرى ، المعدة لتقديم العون لليهود القاطنين ما وراء المحيط· وتلعب هذه المنظمة دورا كبيرا في تمويل الهجرة الى اسرائيل في أيامنا · عندما انتشرت الحركة الصهيونية في العالم اليهودي عاضدها بعض زعماء حركة الاصلاح الديني · ولكن حركة الاصلاح ظلت تيارا خاصا في الحياة الدينية ليهود الولايات المتحدة ، التحق به ، كذلك ، يهود من أصل أوروبي شرقي ، ساعدهم تفوقهم الاقتصادي والاجتماعي على التقرب من هذه الأوساط · تكوّن كذلك تيار ديني وسط بين الاصلاح والنص الديني المألوف ، ذلك هو تيار «المحافظين» ·

ان معظم اليهود القاطنين حاليا في الولايات المتحـدة هـم من أصل أوروبي ـ شرقي • كانت هجرتهم الجماهيرية قد بدأت في عام ١٨٨٢ ، في أعقاب أعمال العنف التي حدثت في روسيا ، واستمرت حتى الفترة التي حددت فيها قوانين الولايات المتحدة الدخول الى البلاد فيعام ١٩٢٤ • كانت الهجرة «كبيرة» حسب مفاهيم تلك الأيام ، ولكن لم تشمل في العام الواحد ، في معظم الحالات ، سوى بضع عشرات الالاف من اليهود • كان من طلائع المهاجرين من تطلعوا الى اقامة مستوطنات زراعية يهودية • أولئك هم أبناء منظمة الشبان «عم عولام» ـ עם עולם • ولكن هذه التجربة أخفقت • أجل، هناك يهود يمارسون الزراعة في الولابات المتحدة، وخاصة قرب المدن ، ولكن هؤلاء ليسوا الا أقلية صغيرة من يهود اميركا • أما معظم المهاجرين فقد استوطنوا في المدن ، وخاصة في نيويورك المدينة الميناء •

افتقر المهاجرون الاوائل ، في غالبيتهـم ، الى معرفـة لغة البـلاد (الانجليزية) وظروف المكان • عمل معظمهم في مصانع الملابس الكبرى التي كان العمل فيها سهلا حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يسبق لهم أن مارسوا مهنة الخياطة في البلاد التي قدموا منها • كانت ظروف العمل في هذه المصانع صعبة • ولكن ، وحين رسخ هؤلاء اقدامهم في العمل ، بدأوا يتنظمون ويطالبون بتحسين أوضاعهم • وهكذا كان اليهـود هم الـذين وضعوا حجر الأساس للمنظمات المهنية الكبرى لعمال صناعات الملابس في الولايات المتحدة ، ومازالت قيادة وادارة هذه المنظمات في أيد يهودية حتى يومنا هذا ، وان أصبح أعضاء هذه النقابات في غالبيتهم ليسوا يهودا • انتقل اليهود الى مهن أخرى بعد أن تعلموا لغة البلاد وظروفها وألموا بها ، فأصبحوا تجارا وصناعا ، وعلموا ابناءهم الطب ، والقضاء ، ومهنة التدريس ، وغير ذلك •

واكب هذا التغيير في الأعمال تغيير في أماكن سـكنى اليهـود ، اذ انتقل الكثيرون الى الأحياء الراقية في نيويورك، كما انتقل البعض للسكنى في داخل البلاد ، في المدن الكبرى والصغرى على حد سواء • ازداد عـدد اليهود في كاليفورنيا ، وفي غرب الولايات المتحدة حيث يلعب اليهود دورا هاما في صناعة الافلام الهوليوودية (ضاحيـة من ضواحي مدينـة لوس



نمو عدد اليهود في الولايات المتحدة الاميركية

أنجلس) فمنهم من أصبحوا أصحاب مشاريع لصناعة الافلام ، ممثلون ، ومؤلفون ، وتكنيكيون الخ • ومع الزمن استبدلت لغة الأيديش باللغة الانجليزية ، مع انه لا تزال توجد حاليا في الولايات المتحدة صحف كبرى، ومسارح ، بلغة الأيديش ، ولكن الأغلبية الساحقة من قراء هذه الصحف ورواد هذه المسارح هم من أبناء الجيل السابق • أصبح الوضع الراهن على هذا النحو : الجد يتكلم الأيديش، والابن يفهمها، والحفيد لا يعرفها• يشكل يهود الولايات المتحدة الآن ، وبعد ابادة يهود أوروبا ، اكبر جالية يهودية في العالم ، اذ يزيد عددهم على خمسة ملايين • يسهم هؤلاء اسهاما كبيرا في عملية التطور الاقتصادي لبلدهم • وبحكم ثرائهم وسعة أيديهم ، يتحمل هؤلاء معظم العبء المالي المترتب على تمويل احتياجات الشعب اليهودي في العالم ، بما في ذلك الهجرة الى دولة اسرائيل والاستيطان فيها • وخلافا لما كان عليه آباؤهم في أوروبا الشرقية ، فان يهود الولايات

المتحدة مندمجون اندماجا كليا في حياة المجتمع الامريكي ، وهم ليسوا في معزل عنه • وقد أخذت تنتشر بينهم ظاهرة الانصهار والذوبان ، ولكن الغالبية الساحقة مازالت مشدودة الى اليهودية اما بواسطة الــدين أو بواسطة الشعور القومي أو بوسائط أخرى محسوسة وغير محسوسة • ولا شك ان نشوء دولة اسرائيل قد قوت فيهم هــذه الرابطة وزادتهــم اعتزازا وفخرا • ولا شك ايضا ان مستقبل الاجيال القادمة يتعلق الى مدى بعيد بقدرة دولة اسرائيل على تقوية هذا الشعور فيهم •

الهجرة الى الدول الأخرى

لم يكن اتباع حركة «عام عولام» الوحيدين الذين توخوا انتهاز فرصة هجرة اليهود الى أمريكا لاجل اعادة الشعب الى احضان الارض وممارسة العمل الزراعي • غزت هذه الفكرة قلب البارون هيرش (الألماني المولد)، شعر هذا بآلام اليهود في روسيا ثم تطلع الى السهول الواسعة الخصيبة في الأرجنتين ، فاقتنى مساحات واسعة (ستة ملايين دونم) ، وكرس المال الوفير لأغراض اقامة المستوطنات اليهودية الزراعية ، وأقام لهذا الغرض شركة خاصة أسماها «شركة استيطان اليهــود» — وهي ييقــا יק״א لم تنجح أعمال الاستيطان هذه بعد بدايتها في عام ١٨٩٢ ، اذ انجذبت اليها ٣٥٠٠ عائلة فقط ، وسرعان ما نزح ابناؤها عن هذه المستوطنات وانتقلوا الى المدن • ساهمت شركة «ييقا» بمحاولات على نطاق أضيق في كندا والبرازيل ايضا •

كانت النتيجة الفعلية الرئيسية لهذه المحاولات كلها صفرا ، وانتقل اليهود الى مدن هذه الدول وجاراتها • ويقطن الآن في دول أميركا اللاتينية نحو ستمائة ألف يهودي، يتكلمون اللغة الاسبانية المنتشرة في تلك البلاد• علاوة على يهود أوروبا الشرقية (وهم الذين يسميهم السكان المحليــون «البولنديين») هاجر الى هذه الدول يهود اسبانيون قدموا من دول البحر المتوسط (يسميهم السكان «الاتراك») • وكما لعب العمــل في مصانــع الملابس دور المرحلة الأولى في عملية استيعاب المهاجرين اليهود في الولايات المتحدة ، كذلك لعب البيع المتجول مثل هذا الدور لدى يهود دول أمريكا

اللاتينية • كان المهاجر اليهودي يتجول حاملا صندوق البضائع في المدن والقرى ، لهذا انتشر اليهود في مطلع استيطانهم في جميع انحاء اميركا اللاتينية •

ان كندا دولة ثنائية القومية ، يعيش فيها شعبان : احدهما ينطق بالانجليزية ، والآخر بالفرنسية • وتقوم بين هذين الشعبين منافسة حادة سياسية واقتصادية • هنا أبدى اليهود ، ميلا اكثر مما أبدوه في الولايات المتحدة نحو تطوير حياة وثقافة خاصة بهم ، وذلك لكيلا يشك أحد الشعبين المتنافسين في موالاتهم للشعب الآخر • وتبرز هذه الظاهرة ، كذلك ، في افريقيا الجنوبية حيث يعيش شعبان متنافسان هما البوريون الهولنديون، والناطقون باللغة الانجليزية — فضلا عن الافريقيين المحليين• يرجع اليهود هناك في أصلهم الى لتوانيا التي كانت مركز الدراسة اليهودية في أوروبا الشرقية ، وهذا ما ساعد على تكوين حياة ثقافية يهودية محلية• تلعب هذه الجالية اليهودية الصغيرة ، بفضل وضعها الاقتصادي الحسن ، دورا هاما في الحركة الصهيونية وفي بناء البلاد الاسرائيلية• وفي اوستراليا كذلك بلغ اليهود وضعا من الرخاء والرفاهية ، • غير ان الشعب الاسترالي الموحد في حضارته (الانجليزية) حريص كل الحرص على دمج واستيعاب الاقليات في حياته العامة •

الاقليمية كحل لمشكلة الامة اليهودية

مع ازدياد الهجرة اليهودية الى الدول القصية نشأت هنا وهناك فكرة حل مشكلة الشعب اليهودي حلا جذريا عن طريق توطين اليهود في منطقة يتمتع فيها هؤلاء بالحكم الذاتي ، وبلغ الأمر أحيانا حد التحدث عن اقامة دولة خاصة بهم • كان معظم أصحاب هذه البرامج ممن راودهم حلم عودة صهيون ، ولكنهم ادركوا ما يترتب على تحقيق هذه العودة من مصاعب ، ولهذا اعتقدوا بضرورة مرحلة انتقالية كانشاء «بلد ملجأ» لهم في مكان ما • نجح الصحافي والأديب

والسياسي مردخاي عمانوئيل نوح الامريكي المولد في عام ١٨٢٠ في إقناع مجلس النواب الامريكي بالموافقة على اقامة دولة يهودية في داخل الولايات المتحدة ، ولكن هذا الأمر لم يخرج عن نطاق التخطيط ٠

في عام ١٩٠٣ اقترح وزير المستعمرات البريطاني يوسف شامبرلن على الدكتور هرتسل رئيس المنظمة الصهيونية اقامة منطقة استيطان يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في افريقيا ٠ ويعرف هذا الاقتراح باسم «مشروع أوغندا» ـ اسم البلاد التي اقترحت أولا لتكون مكانا لاقليم يهودي ، ثم استبدلت بهضاب كينيا باعتبارها اكثر ملاءمة لاستيطان البيض ٠ أثار «مشروع أوغندا» جدلا عنيفا في أوساط الصهيونيين، سيما وقد فشلت في حينه محاولات هرتسل في الحصول على امتياز للاستيطان في فلسطين من الأتراك الذين حكموها آنذاك ، ومع ذلك كانت الغلبة للرأي القائل بوجوب العودة الى الموطن التأريخي للشعب اليهودي ٠

انتظمت الاقلية التي أبدت استعدادا لقبول «مشروع أوغندا» في منظمة خاصة برآسة أديب يهودي من بريطانيا ، هو يسرائيل زانغويل٠ وأخيرا لم يتمكن «الاقليميون» من التوصل الى اتفاق مع بريطانيا بصدد «مشروع أوغندا» ، بعد أن أخذت هذه تتشكك في مدى تمثيلهم للجمهور اليهودي وكسبهم تأييده ٠ وفي غضون ذلك استوطن بريطانيون هضاب كينيا ٠ اكثرت «المنظمة الاقليمية» خلال السنوات التي سبقت نشوب الحرب الكونية الأولى من دراسة امكانات الاستيطان في مناطق مختلفة من قارات افريقيا وامريكا وأوستراليا، واجرت مفاوضات مع حكومات مختلفة، ولكنها لم تتوصل الى نتائج عملية ٠ وسرعان ما انحلت بعد أن تمكنت الحركة الصهيونية ابان الحرب الكونية الأولى من الحصول على حقوق سياسية في أرض اسرائيل ٠

حتى في روسيا الشيوعية جرت محاولات استيطان اقليمي يهودي، ذلك ان اليهود كانوا قد تعاطوا الزراعة في أوكرانيا والقرم من قبل ، فرأى النظام الشيوعي أن يجدد هذا الاستيطان هادفا الى التخفيف من وطأة الضائقة التي تعرض لها الكثيرون من اليهود في أعقاب الغاء التجارة الحرة ، ومن جراء أعمال العنف ابان

الحرب الأهلية . كان المستوطنون والمزارعون اليهـود في هذه المناطق كثيرين ، ولذا فكرت السلطة في جعل أماكن استيطانهم اقليما يهوديا ذا سيادة ذاتية ، لكي تستجذب اليه عددا كبيرا من اليهود الاضافيين . الا أن أماكن الاستيطان اليهودي كانت موزعة غير متراصفه ، الامر الذي أدى الى قيام أربع «ألوية قومية» منفصلة ، بلغ تعداد سكان كل واحد منها بضع عشرات الألوف . امتازت هذه الألوية عن غيرها بكون الأيديش اللغة الرسمية السائدة فيها . ولكن النازيين أبادوا غالبية هؤلاء المزارعين اليهود ، واختفت «الألوية القومية» . علاوة على هذه المحاولة ، وفي عام ١٩٢٨ ، خصصت في أقصى الشرق السوفياتي منطقة للاستيطان اليهودي، هي أذربيجان ، التي سميت فيما بعد بالقطاع الاقليمي اليهودي ، الا أن الاستيطان الروسي تفوق في هذه المنطقة على الاستيطان اليهودي .

اجمـال

عملت الهجرة اليهودية الجماهيرية الى دول ما وراء المحيط ، والتي بدأت في عام ١٨٨٢ ، واستمرت زهاء أربعين عاما ، على تخليص ملايين اليهود من العدوان اللاسامي العنصري الذي كان وريثا للعداء الديني ، والذي أدى الى المجازر الفظيعة في روسيا قبل الثورة الشيوعية وابانها . وبالتالي كانت هذه الهجرة سببا لانقاذ جماهير يهودية كبيرة من براثن النازيـة الطاغيـة . ولـكن الامـل بامكـان تحـويل هـذه الهجـرة الى مراكز استيطان قومي بدلا من العودة الى صهيون تلاشت . فقد أخفقت جميع المحاولات الاستيطانية القومية في المهاجـر . أما في أرض الـوطن القديم فقد قامت حياة شعب حرة كريمة ، وولدت الأمة من جديد .

الفصل الثالث عشر

الايمان بالمنقذ (المشيح) والعودة الى أرض اسرائيل

منذ القدم ، وفي أيام المحن ، نشأ لدى الشعب اليهودي ايمان بحتمية ظهور منقذ عظيم ينقذ الشعب من نير الاستعباد وينقذ العالم من الشرور . سمي هذا المنقذ باسم المشيح . وتعاظم الانتظار لظهوره حين اثقل الرومان نير حكمهم الغاشم على اليهود في القرن الاخير قبل الميلاد . وظهر في تلك الايام اكثر من يهودي واحد ادعى انه هو المشيح ولكن اليهود لم يؤمنوا بمشيحيته (ومن جملة ذلك يسوع الناصري) . ولما ثار بار كوخبا على الرومان اعتقد الناس انه هو المشيح المنتظر . وبعد أن سقط آخر المحاربين في صفوف جيش باركوخبا واصل الشعب ايمانه بان اليوم الذي سيستعيد فيه هذا الشعب قواه ويهزم اعداءه ويستعد حريته المسلوبة ليس بعيدا . لم يتلاش هذا الايمان طالما ظل في أرض اسرائيل يهود قادرون على حمل السلاح . كانت كل هذه الهزائم في نظر الشعب بمثابة «آلام المشيح» — أي الآلام التي تسبق عملية الخلاص . رأى اليهود اكثر من مرة زعماءهم يصرعون في المعارك ، ولكن مصرع هؤلاء لم يدع اليأس يتسرب الى نفوسهم . ساد الاعتقاد لدى اليهود بأن الرب قد أعد لليهود مشيحين اثنين : احدهما المشيح بن يوسف (من سبط افرايم) ، الذي قدر له الموت بسيف الاعداء ، وبعده يظهر المشيح بن داود فيأتي بالانقاذ الكامل .

قبل أن يحتل العرب أرض اسرائيل بسنوات قليلة خيل لليهود فيها بأنهم من القوة بحيث يستطيعون الخروج للقتال وتخليص البلاد من حكومة بيزانطية التعسفية . حينذاك كانت طلائع الفرس قد اقتربت من البلاد فثار اليهود وانضموا اليها . وفي هذه المرة أيضا علق اليهود آمالا مشيحية على حربهم ، وامتازوا ببطولتهم ، والحقوا بالعدو خسائر فادحة .

انضم يهود سوريا ولبنان وقبرص الى يهود أرض اسرائيل في حربهم هذه. الا أن الفرس الذين سيطروا لفترة ما على البلاد لم يتيحوا الفرصة لليهود لاستعادة الحرية المنشودة . وبعد أن عاد البيزنطيون وهزموا الفرس ، قاموا بالمجازر الشنيعة ضد اليهود . منذ ذلك الحين لم تحدث في البلاد أية ثورة مسلحة طيلة نيف وثلاثة عشر قرنا ، حتى استعادت البلاد بناءها في أيامنا .

خلال القرون الثلاثة عشر المذكورة لم ينقطع اليهود عن التطلع الى الخلاص العاجل . اعتادوا القول في كل عيد فصح : «ان كنا هذه السنة عبيدا ، فسنكون في السنة القادمة احرارا . هذا العام هنا ، وفي العام القادم في أورشليم» . كانوا «يحسبون النهاية» ، وحاولوا العثور في الكتب القديمة على ما يشير الى موعد حلول الخلاص . تعقبوا كل حدث عظيم في العالم، فلعله «بداية الخلاص» . وكانوا كلما تعرضوا للمصاعب، وجدوا العزاء في الاعتقاد بأن هذه هي «آلام المشيح» . لهذا ظهرت في الشعب بين الحين والآخر حركات مشيحية ، بظهور أناس آمنوا بأنهم هم المبشرون بالمشيح ، أو هم المشيح اياه .

نضال الشعب من أجل البقاء

رأينا سابقا ، كيف بدأ الشعب في أرض اسرائيل في الانهيار بعد قمع ثورة باركوخبا ، وكيف كف عن كونه مركزا ثقافيا للمهاجر منذ ختم المشناه . رأينا كذلك كيف تضاءلت قوته التنظيمية مع ابطال زعامة آل هليل ، وكيف انقطع عن تكوين عامل عسكري وسياسي بعد قمع ثورته قبيل الاحتلال العربي . منذ ذلك الحين وصاعدا انحصرت أهمية الشعب في أرض اسرائيل في كونه رمزا للارتباط بين مهاجر اسرائيل وبين الوطن . وكما برزت ، المرة تلو المرة ، حركات مشيحية في المهاجر ، كذلك برزت هناك حركات دعت الى الهجرة الى أرض اسرائيل . هذا الى جانب هجرة الأفراد والجماعات الصغيرة التي لم تنقطع أبدا .

ومع مرور الزمن استعاد الشعب في أرض اسرائيل قواه تدريجيا ، واستعادت المدرسة الاسرائيلية مركزها في وسط هذا الشعب . حتى

القرائيون لم يضعف حبهم للبلاد الاسرائيلية ، وان كانوا قد ابتعدوا عن الشعب بسبب آرائهم الدينية ، ولهذا اكثر ابناء هذه الجماعة من الهجرة الى البلاد٠ الى ان جاء «حملة الصليب» المسيحيون الاوروبيون الذين احتلوا البلاد من العرب ، فألحقوا الدمار والخراب الجديدين بالبلاد٠ استوطن حيفا في ذلك الحين عدد كبير من اليهود ، وقد دافع هؤلاء دفاع الأبطال عن أسوار المدينة ، الا أنهم لم يصمدوا طويلا ٠ وألحق الصليبيون الخراب الشامل بالطائفة اليهودية الكبرى في أورشليم ٠ بقي من اليهود في جميع البلاد ابان حكم الصليبيين الفا شخص فقط ٠ وحين زار الرحالة الرابي فتاحيا أورشليم ، لم يجد فيها الا يهوديا واحدا ٠ غير أن الصراع الذي استمر زهاء قرنين من الزمن على الحكم في هذه البلاد بين الصليبيين والمسلمين ، والذي انتهى الى انتصار المسلمين ، زاد من تطلع اليهود الى قرب ظهور المشيح والهجرة الى أرض اسرائيل٠ كان بين القادمين الى البلاد آنذاك نفر من عظام الأمة ، مثل الرابي يهودا هليفي ، والرامبن ، ورجال الدين وبسطاء الشعب ٠ وقد ساعد كل هؤلاء على عدم اضمحلال السكان اليهود في أرض اسرائيل ٠

دافيد الروئي

كانت اكثر الحركات المشيحية شبها بالتنظيم العسكري ، تلك التي قامت بين اليهود في جبال القفقاس ، وفي بلاد الاكراد وايران ٠ شمل حكم الصليبيين آنذاك قسما من سوريا ، وكانت مدينة عماديا الواقعة في أرض الاكراد (تقع اليوم ضمن حدود العراق) قاعدة عسكرية منيعة للمسلمين قرب الحدود الصليبية ٠ حاول رجل اسمه دافيد الروئي ، آمن بأنه المشيح المنتظر ، السيطرة على هذه المدينة والانقضاض منها على الأراضي الصليبية ٠ أمر جنوده بدخول المدينة مسلحين ، ولكنه آمن بأن الله قد منحه القوة للسيطرة على هذه المدينة بدون قتال ٠ وسرعان ما تلاشى أمله ، ولاقى حتفه على أيدي المسلمين ، وربما على يد حميه الذي كان أجيرا لهم ٠

الأسباط العشرة ، والخلاص

ان الايمان بوجود اسباط عشرة من اليهود تعيش حرة في مكان ما وتمتاز بالبأس والقوة (انظر الفصل الثالث) قد كان هو الاخر مصدر عزاء للجماهير اليهودية ، وحدا بها الى تعليق الآمال الجسام على هذه الاسباط في الخلاص والانقاذ · زادت الروايات التي روجت عن قوة هذه الاسباط العسكرية من تطلع اليهود الى الخلاص العاجل ، وضاعف من هذا التطلع ما تناقله الناس من أنباء غامضة عن دول اليهود الأحرار · وهكذا ، وفي عام ٧٨٩ تقريبا ، وصل الى الجاليات اليهودية في افريقيا الشمالية رجل ادعى بأنه ينتسب الى سبط دان الذي يقطن افريقيا الشرقية، وادعى بأنه يعرف الكثير عن سائر الأسباط ، واصفا اياها بالشجاعة والحزم ، قائلا انها تعيش في مناطق مختلفة · ضاعفت أقوال هذا الرجل ، واسمه الداد هداني ، من امال اليهود في الخلاص ، لا في جيله فحسب ، وانما في الأجيال اللاحقة أيضا ·

تحدث الرابي بنيامين من تطيلة ، وهو يهودي اسباني رحل الى الشرق ابان حكم الصليبيين وخلف كتابا جغرافيا هاما - عن اسباط اسرائيل الحرة التي تعيش في أواسط آسيا ، وقرب مدينة عدن · ومع تداعي حكم الصليبيين قويت آمال اليهود في العودة الى صهيون · تطلع هؤلاء الى الاستعانة بالحروب التي دارت رحاها بين الصليبيين والمسلمين، وبقوة الأسباط الاسرائيلية الحرة لتحقيق أمنيتهم · وفي عام ١٥٢٢ ظهر في أوروبا الغربية رجل يهودي ادعى انه من سبط رؤبين الذي يحيا حياة حرة مستقلة في شبه الجزيرة العربية ، وانه موفد من قبل هذا السبط الى حكام أوروبا ، ليعقد معهم حلفا عسكريا ضد المسلمين من أجل تحرير أرض اسرائيل · أبدت دول أوروبا في البداية ميلا نحو تصديق هذا الرجل ، ولكنه لم يفلح في حثها على القيام بأية عملية لاحتلال البلاد والاعتراف بحقوق شعب اسرائيل فيها · وانتهى الأمر عند حبسه· أسفر عمل هذا الشخص ، واسمه دافيد هرؤوبيني عن اشتداد الآمال «المشيحية» لدى يهود أوروبا ، بما فيهم أولئك الذين اكرهوا على التنصر· وقد دفع أحد هؤلاء ، وهو المتنصر شلومو مولخو ، حياته ثمنا للتعاون مع دافيد هرؤوبيني ، اذ تم حرقه بأمر من محكمة التفتيش ·

هجرة المطرودين من اسبانيا

في تلك الأيام ، بدأ الشعب في أرض اسرائيل يستعيد قواه بفضل القادمين الجدد ، وخاصة المطرودين من اسبانيا الذين أضفوا طابعهم على السكان منذ مجيئهم • ساد الاعتقاد لدى يهود اسبانيا والبرتغال المنفيين بأن الخلاص سيأتي عن طريق جمع الشتات ، وأن من الممكن احلاله بالطرق السياسية المألوفة• ودفع هذا الاعتقاد الى التفكير في امكانية اجراء مفاوضات دبلوماسية ، بقدر ما حفز اليهود على الاستيطان • أعاد يوسف ناسي ، دوق نقسوس ، بناء طبريا ، ووطّن فيها يهودا بتصريح من الاتراك ، وغدت مدن صفد ، وطبريا ، وحبرون (الخليل) مراكز يهودية في البلاد ، الا أن عدد السكان اليهود فيها ظل قليلا •

الباطنيون وآمال الخلاص

على مر الايام رأى اليهود أنفسهم ضعافا ، حتى باتوا يعتقدون بأن الخلاص لن يأتي الا على شكل معجزة من السماء• كان ايمانهم بالخلاص قويا ، وكان تطلعهم الى حدوث المعجزة في تزايد مستمر • تجمع في مدينة صفد الكثيرون من الباطنيين أصحاب طريقة «القبالة» أو النقل (اسم لعلم السرية والغموض في اسرائيل ، انتشر في القرن الثالث عشر تقريبا – انظر الفصل التاسع) فحاولوا جعل عملهم الغامض وسيلة عملية لاثارة الرحمة الالهية على شعب اسرائيل وعلى كل فرد من أفراده ، وانقاذ شعب اسرائيل سريعا • كان أبرز اتباع هذه الحركة ، الرابي اسحاق لوريا ، المشهور باسم هئاري הארי • انتسب الى هؤلاء ، أيضا ، الشاعران اللذان بشرا بالخلاص وهما الرابي يسرائيل نجاره ، والرابي شلومو القابص ، مؤلف القصيدة «سر يا حبيبي» وهي التي أصبحت ، فيما بعد، جزءا من انظمة الصلاة المقبولة على جميع طوائف الأمة •

ان هؤلاء الاشخاص الذين اهتموا بالصلوات ، وبدرس كتاب «هزوهر» وسائر كتب علم الغموض كانوا بعيدين عن الأعمال السياسية في المفهوم المألوف لها في عصرنا : الاستيطان ، والأمن ، والمفاوضات الدبلوماسية وما شابه ذلك • ومع هذا فان لهم سهما محترما في انقاذ الشعب من التلاشي• اعتقد هؤلاء بأن الشرط المسبق للخلاص هو التطلع

الى الخلاص بشغف وبقوة ، وقالوا ان الشغف واللهف الجماعي يؤثران على الباري • ويروى عن الرابي اسحاق لوريا ـ هئاري ـ أنه بينما كان يتمشى وطلابه عشية يوم السبت مع غروب الشمس، فاجأ طلابه بالسؤال عما اذا كانوا يريدون الاحتفال بالسبت في أورشليم • ثم انتهم لانهم لم يجيبوا جميعهم بلا تردد «نعم»، وقال انهم لو أجابوا بالايجاب لحدثت معجزة الخلاص حالا • هكذا كان الغموضيون يثقفون الشعب على التطلع الدائب الى الخلاص، جنبا الى جنب مع التهيؤ للتضحية بكل غال ورخيص



طبريا في القرن السابع عشر

في سبيله • كان أثر هؤلاء على الشعب كبيرا خلال قرون طويلة ، أي حتى عهد انتشار حركة «الثقافة» • كانت هذه القرون عهد وهن عام لشعب اسرائيل ، الا أن تعاليم الرابي اسحاق لوريا وطلابه قوت في الشعب الرغبة في الخلاص والايمان بحلوله •

وحين ظهر أحد الغموضيين وهو شبتاي صفي من مواليد ازمير ، وأعلن انه هو المشيح ، اجتاحت اليهود في دول الشرق والغرب ، في اسيا وأوروبا ، موجة من الحماس غير المألوف • أهمل الناس أعمالهم ، وحزم

الكثيرون أمتعتهم ، وفرحوا وهللوا ، منتظرين العودة الى الوطن المحرر .
ان هذا الحماس الجماهيري لم يكن له مثيل عند ظهور الحركات المشيحية السابقة. في عام ١٦٦٦ مثل شبتاي صفي أمام السلطان العثماني، سلطان بلاد الشرق ، وطلب اليه الاعتراف به بوصفه المشيح ، واطاعة أوامره . لم تحدث المعجزة ، ولم يخضع السلطان ، وانما انهارت نفسية شبتاي وخضع لارادة السلطان ، فأشهر اسلامه تكفيرا عن تجرئه على مطالبته السلطان بالاعتراف به .

ظل ايمان الجماهير بشبتاي صفي قويا لم يزعزعه تحول هذا عن ديانته اليهودية . وقال الذين حاولوا تبرير ما ذهب اليه شبتاي من اعتناق الاسلام ، ان ما عمله كان بمثابة وسيلة غامضة ، يستعين بها على تقريب يوم الخلاص . بقي «الشبتائيون» على ايمانهم بمشيحهم حتى بعد وفاته ، وآمنوا بأنه قد أورث رسالته لزعمائهم من بعده . وآمن هؤلاء الاتباع بحق مشيحهم وخلفائه في تحوير وتغيير أصول وأحكام التوراة كما يرتأون ، والطلب الى اتباعهم العمل بموجب ما حوروه وغيروه ، وكانت النتيجة ان أدى هذا الايمان الى انحلال اخلاقي كبير بين هؤلاء ، حتى أخذ عددهم يتضاءل ، ومنهم من زالوا بزوال زعيمهم . وما زالت البقية الباقية من الشبتائيين الذين اعتنقوا الاسلام تعيش ، حتى يومنا هذا ، في تركيا - ألا وهي طائفة «دونما» .

ثم ظهرت حركة أخرى ، استقت هي ايضا أفكارها من مبادىء الرابي اسحاق لوريا ، ولكنها لم تنزلق في مزالق الحركة الشبتائية . هذه الحركة هي الحسيدية الثالثة (انظر فصل ١٠) . اشار مؤسسها الرابي يسرائيل باعل شم طوب «بعشط» على طلابه ومريديه ان يعبدوا الرب بغبطة وحبور ، وان يكثروا من الترانيم والرقص ، لان الله تعالى ينشد الخير لكل فرد في اسرائيل ، وان يوم الخلاص لا بد آت. بدافع هذا الايمان قدمت في عام ١٧٧٧ جماعة من طلابه الى أرض اسرائيل، بعد أن سبقهم اليها أفراد معدودون . حتى ذلك الحين لم يكن لابناء المهاجر الأشكنازية اثر بين السكان اليهود في أرض اسرائيل ، ولكن هجرة اتباع الحركة الحسيدية غيرت هذا الوضع .

ازدياد السكان اليهـود

كانت الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية تؤلف في حينه غالبية الشعب الاسرائيلي ، وأخذت رابطتها النفسية الى أرض اسرائيل تشتد ليس بدافع التطلع الدائم الى الخلاص فقط وانما بدافع الواقع الجديد الذي حدث بعد هجرة طلاب بعشط · رأى الناس العديد من اصدقائهم وأفراد عائلاتهم يعودون الى أرض الآباء، وسمعوا الكثير عن أولئك الذين حظوا بالعيش قرب الله ، في أورشليم ، وأصبحوا شركاء في شؤون اليهود العامة هناك · فاندفعوا هم ايضا الى مجاراتهم · لم يأت هؤلاء الى أرض اسرائيل بدافع الايمان بقدرتهم على اعادة بنائها ، فالكثيرون منهم كانوا شيوخا قدموا الى البلاد ليلاقوا أجلهم المحتوم فيها ، وليدفنوا في ثراها · اجل ، لقد قدم الكثيرون الى أرض اسرائيـل ليكرسـوا كل اهتمـامهم للصلوات ، ولتعلم التوراة بدافع الرغبة في تقريب يوم الخلاص · وعاش هؤلاء على «التقسيم» (أي تقسـيم التبرعات التي جمعت من أجـلهم في المهاجر) · ولكن ، ومهما يكن الدافع ، فقد أخذ عدد السكان اليهود في أرض اسرائيل يتزايد ·

في عام ١٨١٢ بلغ عدد اليهـود الأشكناز في أورشـليم حـدا سمح بتأسيس طائفة اشكنازية الى جانب الطائفة السفارادية القديمة · في وقت لاحق ، وبعد أن ازداد عدد هؤلاء اليهود ، تشكلت جمعيات من القادمين من أماكن مختلفة، واهتمت كل جمعية بالحث على جمع التبرعات من مكان قدومها وتوزيعها على أعضائها · ومع ازدياد عدد اليهود الاشكناز في أرض اسرائيل (وخاصة في أورشليم) ازدادت الهجـرة من بلاد آسـيا وافريقيا ايضا · وأقام هؤلاء القادمون طوائف خاصة ، أسموها بالاسم الشـامل ـ الطوائف الشـرقية · أصبـح السـكان اليهـود في أرض اسرائيل بمثابة قوس قزح من الطوائف التي تمثل المهـاجر المختلفة ، وقد عاد هذا في مطلع الأمر بالخير ، لانه سهل على استيعاب القادمين ، اذ وجد كل قادم نفسه وسط أبناء طائفته الذين تجمعه بهم عادات ولغة مشتركة، والذين يعرفون حقيقة ما يفتقر اليه ابن طائفتهم القادم الجديد· ولما ازداد عدد اليهود في أورشليم وضاق بهم المكان داخل الأسوار ، لعبت الجمعيات الطائفية والطوائف دورا كبيرا في اقامة الأحياء خارج أسـوار

البلدة القديمة . ولكن التفسخ الطائفي عمل من الناحية الأخرى على اضعاف السكان ، وحال دون تكتلهم وتجمعهم . ولكن الحركة القومية وعملية انشاء الوطن القومي، وما ترتب عنها من أعمال تنظيمية ومجهودات مشتركة ، ادت في الآخر الى الانسجام التدريجي بين هذه الطوائف .

اجمال

ابان سني المهجر الطويلة لم ينقطع الشعب عن التطلع الى العودة الى صهيون، والى اقامة دولة خاصة به فيها. تجسد هذا التطلع في قيام حركات مشيحية، وفي الهجرة الى أرض اسرائيل. ثم جاء دور التحرر الفكري من جهة ، والمساواة الموعود بها من جهة أخرى ، فأديا الى بوادر الذوبان الاختياري. ولكن سرعان ما اصطدم الذوبان باللاسامية، وكان ذلك في الفترة التي أخذ فيها اليهود في اسرائيل يزدادون عددا ويشكلون قوة . ومع ان ذاك الازدياد كان طفيفا بالنسبة لمفاهيم عصرنا الحاضر ، فانه سهل على عملية نمو الحركة القومية الجديدة في المهجر ، كاتجاه معاكس للذوبان .

الفصل الرابع عشر

بوادر الحـركة القومية

الوعي الواقعي

رأينا كيف ان حل مشكلة الامة اليهودية قد شغل أفكار المفكرين اليهود وغير اليهود في العصر الحديث ، وكيف ان الحلول الاقليمية لم تف بالمطلـوب ، (انظر آخـر الفصل ١٢) وكـذلـك رأينـا كيـف تطلـعت الجمـاهـير اليهـوديـة دائمـا الى العـودة الى صهيـون وقيام دولة اسرائيل فيها • اذن ، ما الذي جددته الحركة القومية التي نشأت في أوساط الشعب اليهودي في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، والتي أدت الى قيام دولة اسرائيل فعلا ؟ لقد جددت هذه الحركة شيئا واحدا : هو المجهود العملي المبرمج والظروف المؤاتية • فاذا كان السابقون قد تطلعوا الى الخلاص ، واذا عمل بعضهم على تحقيقه بوسائل لم تثبت نجاعتها ، فان اللاحقين قد قاموا بالمجهود العملي من اجل تحقيق هذا الخلاص • وهكذا أصبحت الهجرة الى أرض اسرائيل وسيلة هامة من وسائل بناء البلاد واحياء القفر ، وازدادت ثقة اليهود بقدرتهم على اعادة بناء البلاد ولم تعد هذه المهمة فوق طاقتهم • هكذا كف اليهود عن انتظار حدوث المعجزات ، وأخذوا يعملون على تحقيقها بالعمل الدائب •

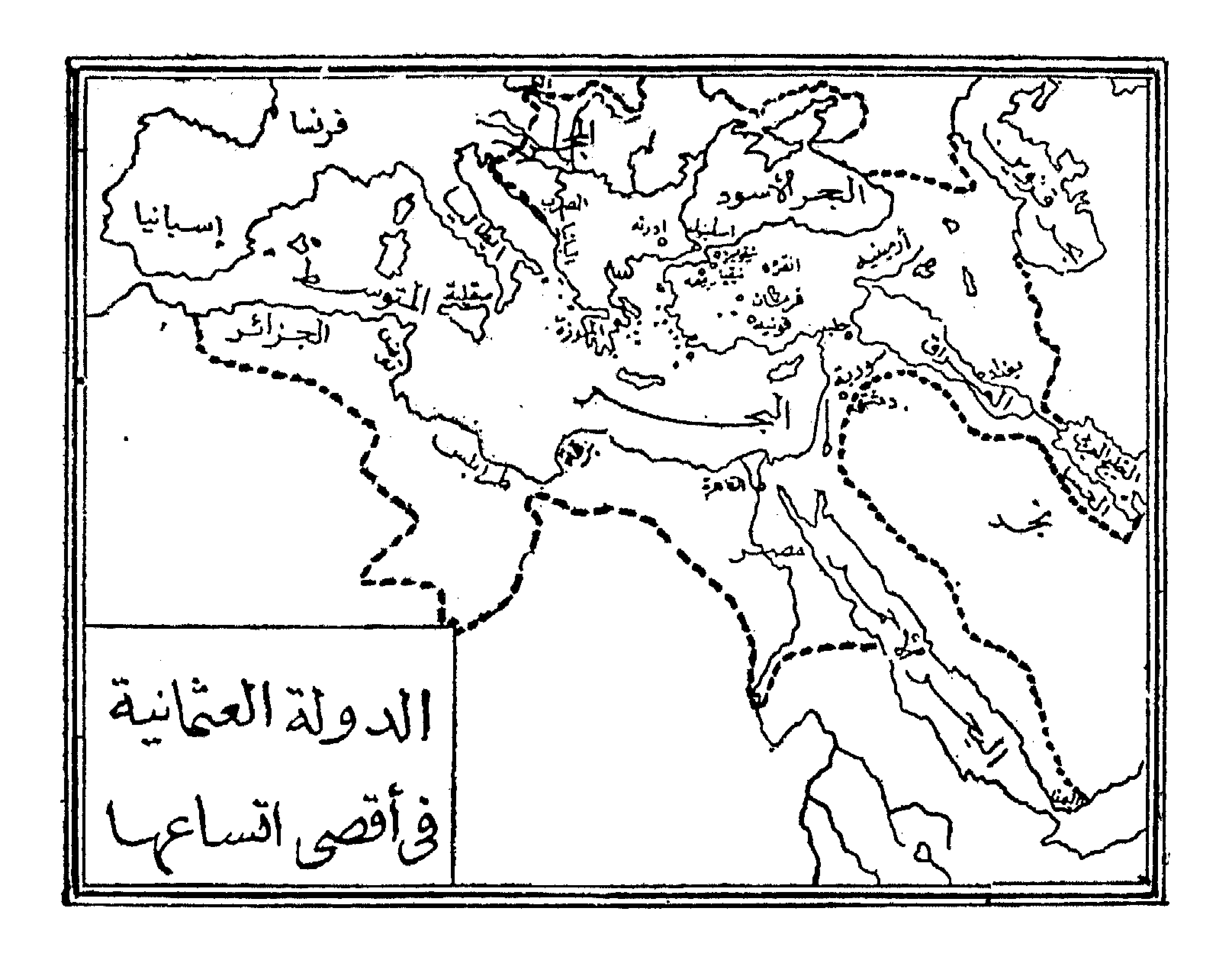
لقد كانت ثمة اسباب عديدة لهذا التحول ، منها التحول من التفكير الديني الى التفكير الواقعي ، ومنها بلوغ الوعي القومي وحركات التحرر القومي أوجها في أوروبا ، ومنها فشل حركة المساواة وظهور اللاسامية والاضطهـادات والمجـازر ، ومنهـا ان مسـتقبل ارض اسـرائيـل السياسي (كمستقبل الامبراطورية العثمانية جمعاء) أصبح موضع اهتمام العالم الاوروبي ، الامر الذي قاد سياسيين وادباء مختلفين الى التفكير في امكانية اقامة دولة لليهود في وطنهم القديم المنتظر • ومن الجدير بالملاحظة أن غير اليهود هم الذين أثاروا هذه الفكرة مرارا وتكرارا بدافع اعترافهم

بالعلاقة التأريخية بين الشعب اليهودي وبلاده ، وبدافع اعترافهم بوجود اللاسامية ، وبمعضلة المشكلة اليهودية ايضا ، وضرورة حلها على أساس قومي ، لان اللاسامية احبطت حلها عن طريق الذوبان · ولم يكن بعث الدولة اليهودية في نظرهم أمرا غريبا شاذا كما اعتبره يهود زمانهم ، بل كان في نظرهم أحد بنود الاتفاقات السياسية الجديدة التي كان لا بد من وضعها بالنسبة لبلاد الشرق ، على أساس ان انهيار الامبراطورية العثمانية كان لا بد حاصل· احتلت هذه الامبراطورية أرض اسرائيل وجوارها عام ١٥١٦ ، وفقدتها بعد مضي اربعمائة عام وعامين · غير انه كان واضحا قبل هذا التأريخ أن الامبراطورية العثمانية آخذة في الانهيار الى درجة بدأت معها الدول العظمى الغربية في التباحث حول مصير الاراضي الواقعة ضمن هذه الامبراطورية · وكان هذا أمرا طبيعيا في تلك الايام اذ كانت أوروبا سيدة العالم تديره وتتقاسمه كيفما شاءت ·

المسالة الشرقية وأرض اسرائيل

تعرف مشكلة مستقبل الامبراطورية العثمانية في التاريخ باسم «المسألة الشرقية» وقد اطّلع اليهود الذين تعقبوا هذا الموضوع على مدى البداهة التي ابدتها شخصيات من أمم مختلفة في اثارة فكرة اقامة دولة اسرائيل من جديد ، وفي الاشارة الى طرق التنفيذ ، وفي تعداد الاسباب التي تبرر تأييد هذه الدولة أو تلك لهذه الفكرة · وجنبا الى جنب مع ذلك ازداد لدى اليهود الشعور بأن من الممكن اقامة دولة يهودية بالطرق السياسية المألوفة ، وأن من الميسور والمشروع الاستناد في ذلك على ما للدول الكبرى المختلفة من مصالح في الشرق · غير ان السياسيين والأدباء الأجانب الذين اثاروا فكرة اقامة الدولة اليهودية بوصفها احدى الأفكار الكثيرة الخاصة بتجديد معالم الشرق ، اكتفوا بالبحث في هذا الموضوع دون أن يعملوا الكثير من أجل تحقيقه · اما اليهود الذين تأثروا بهذه الفكرة ، فقد حولوها الى هدف بذلوا من أجل تحقيقه الكثير من العرق والدم ·

خلال المائة وعشرين عاما التي سبقت انهيارها النهائي تعرضت الامبراطورية العثمانية لخطر الانهيار مرات ثلاثا ، تمثلت كل منها في



الدولة العثمانية في أقصى اتساعها

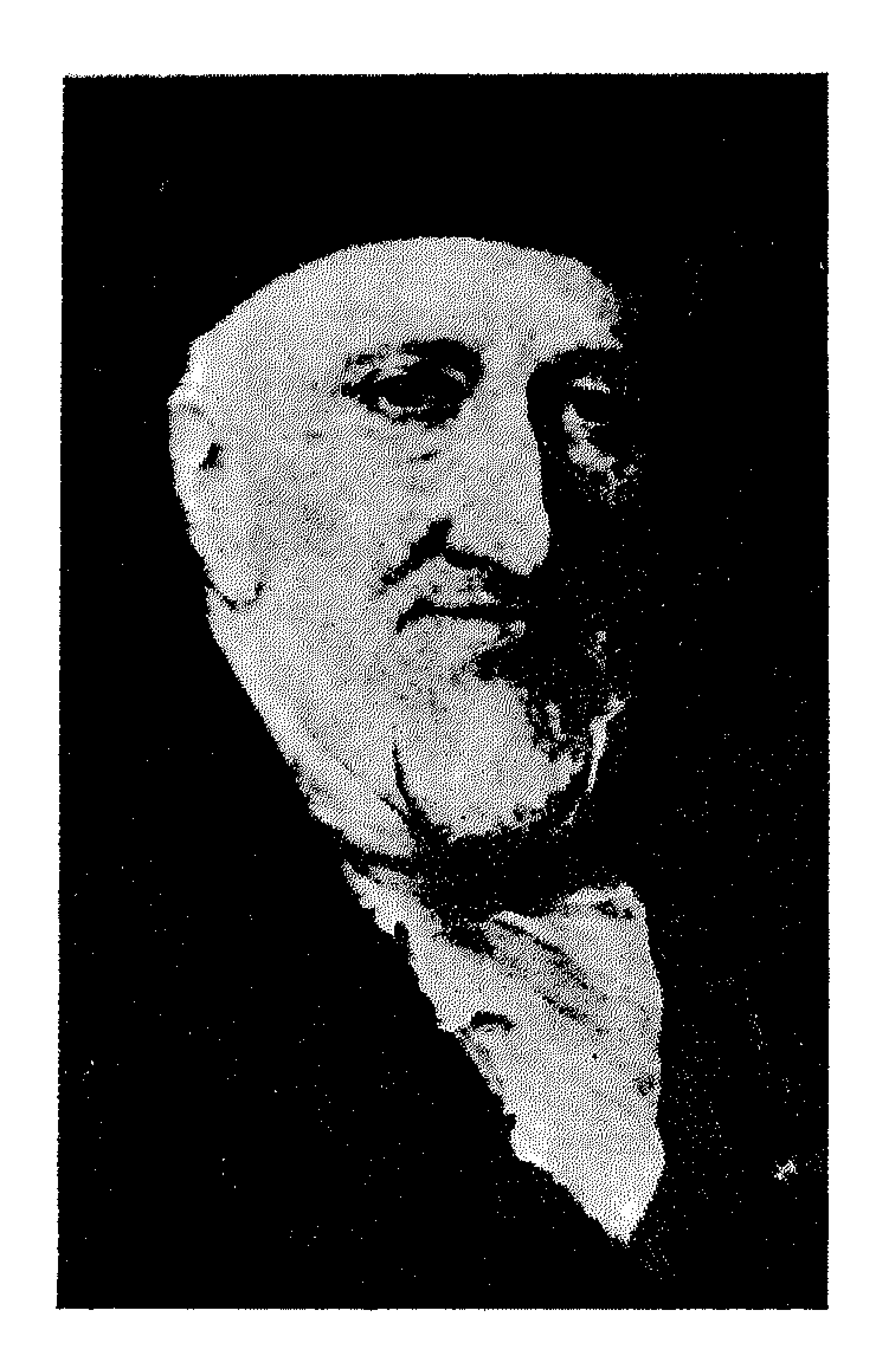
مهاجمة احدى الدول الاوروبية لها · وقد كان تكرر هذه الاخطار مدعاة لتكرر البحث بخصوص اقامة دولة اسرائيل · ففي ربيع عام ١٧٩٩ غزت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون الدولة العثمانية عبر مصر وأرض اسرائيل· وحينئذ نشر نابليون منشورا «الى يهود آسيا وافريقيا» ناشدهم فيه الانضمام الى جيوشه ووعدهم بالعمل على تجديد كيان دولة اسرائيل· إنه لم يتوجه الى يهود أوروبا ، إما لبعدهم عن ميدان المعارك ، وإما لكون فرنسا قد طالبت اليهود في حينه بالانصهار في شعبها مقابل منحهم حقوقا متساوية · لم يُثِر هذا النداء في حينه الأصداء بين يهود آسيا وافريقيا، زد على ذلك أن الفرنسيين سرعان ما انسحبوا من أرض اسرائيل ·

بوادر عملية

حكم أرض اسرائيل بين سني ١٨٣١ – ١٨٤١ والٍ مصري ، تمرد على أسياده الأتراك ، ألا وهو محمد علي ، جد العائلة المالكة التي حكمت مصر حتى عام ١٩٥٢ • آنذاك اتسع نطاق المباحثات في الغرب حول مصير أرض اسرائيل ، وما اذا كان من الأفضل ابقائها في ايدي المصريين ، أو اعادتها الى العثمانيين ، أو اقامة دولة مستقلة خاصة فيها • اكتسبت فكرة اقامة دولة اسرائيل في ضوء هذه الظروف أهمية خاصة لدى الساسة والأدباء البريطانيين • وبشكل خاص جذب الموضوع اليه في هذه المرة اهتمام يهود كثيرين • روّج لهذه الفكرة احد سكان أورشليم وهو الراب يهودا حاي القلعي ، الذي نشر مؤلفات عبرية بهذا الصدد ، متأثرا بتحرر اليونان آنذاك • وعمل موشي مونتفيوري، أحد وجهاء اليهود في بريطانيا، على دعم هذه الفكرة عمليا ، وقد اشتهر في وقت لاحق بجهوده التي استهدفت انقاذ اليهود من براثن الاضطهاد في دول الشرق وروسيا • عمل منتفيوري على بناء أول حي للسكن خارج اسوار مدينة اورشليم ، فكان اول عامل على نموها • واقتنى بالقرب من يافا بيارة وجعلها بيارة لتدريب اليهود على الزراعة (أقيم عليها فيما بعد «حي مونتفيوري») •

وحين عادت أرض اسرائيل الى احضان الدولة العثمانية (١٨٤١) ، لم تتوقف حركة التيقظ القومي بين اليهود ، بل اشتد تطلعهم الى اقامة وطن قومي في أرض اسرائيل • وهنا تجدر الاشارة الى كتاب «روما وأورشليم» الذي نُشِر بالألمانية عام ١٨٦٢ ، وألفه موشي هِس ، أحد كبار الاشتراكيين في أوروبا • تأثر هِس كثيراً بنجاح الحركة الوطنية في ايطاليا ، وهي الحركة التي تمخضت عن قيام دولة وطنية متحدة في هذه البلاد (كانت ايطاليا قبل ذلك مجزأة الى دويلات صغرى اقطاعية ، خاضعة في معظمها للحكم النمساوي الأجنبي) • وقد استنتج هِس من هذا امكانية اقامة دولة يهودية •

في عام ١٨٧٨ ، وحين مُني الاتراك بهزيمة نكراء في حربهم ضد الروس ، شهد العالم مرة أخرى نشاطاً خاصاً استهدف وضع البرامج المختلفة ، والتنبؤ بما سيؤول اليه أمر أرض اسرائيل ، واحتمالات اقامة دولة يهودية فيها • وحين وقعت معاهدة صلح نَصّت على ابقاء أرض



السيد موشي منتفيوري

اسرائيل في أيدي الأتراك ، جرت المباحثات (وخاصة في بريطانيا ، حليفة تركيا آنذاك) بصدد الاستيطان اليهودي في أرض اسرائيل (فلسطين)* . وفي المناطق المجاورة لها . وساد الاعتقاد آنذاك بأن هذه الخطوة هي احدى الوسائل التي ستعمل على تطوير ودعم الامبراطورية العثمانية ، نظراً لحاجتها الى العلم والمال والايدي البناءة . وكان لهذا كله اثر بليغ على اليهود : ففي عام ١٨٧٨ أسس يهود من أورشليم القرية اليهودية الاولى في فلسطين واختاروا لها الاسم الرمزي بيتح تقفا - باب الأمل -

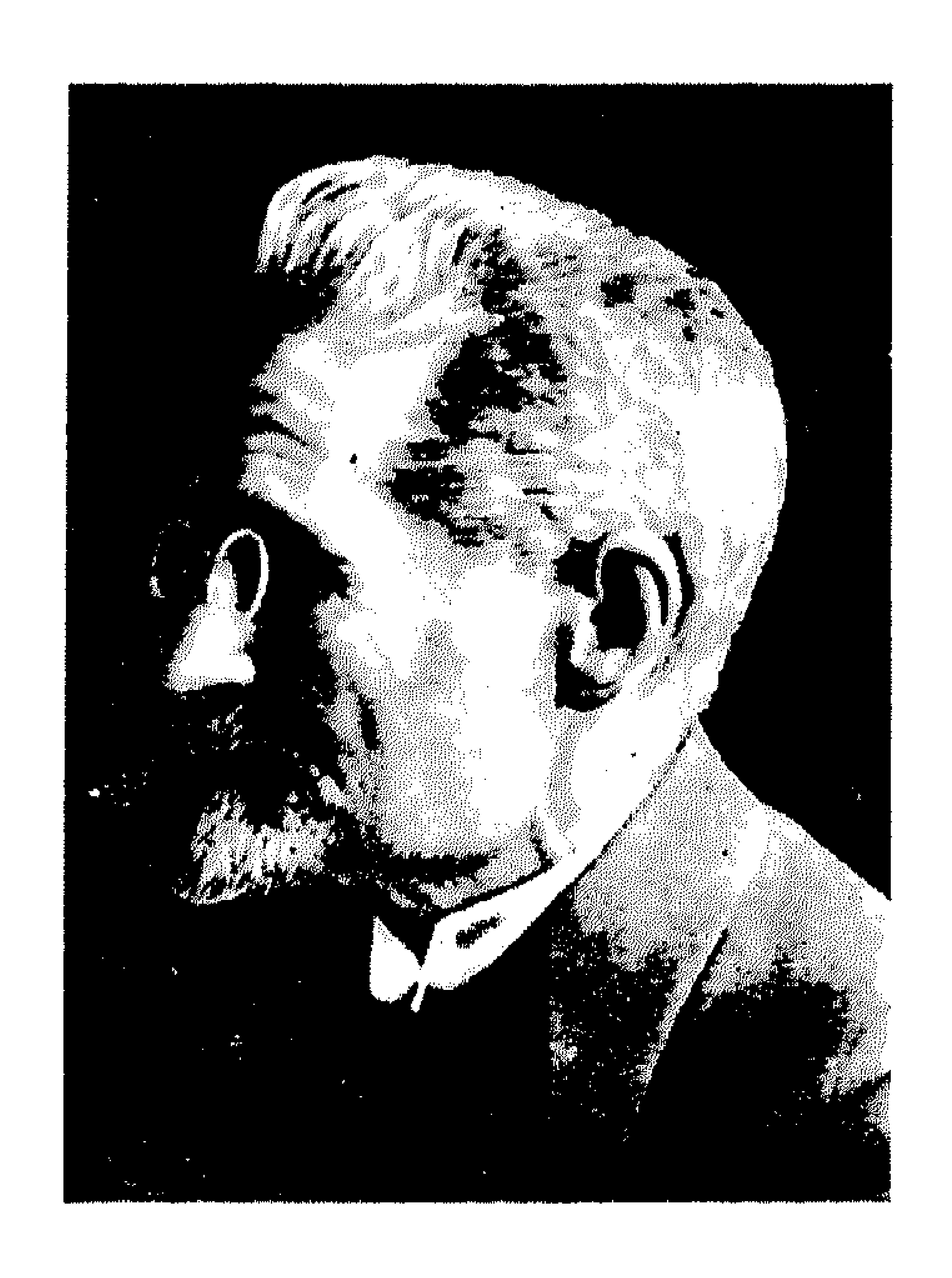
* لم تكن كلمة فلسطين شائعة الاستعمال لا في التركية ولا في العربيـة ، ولم يشـع استعمالها بالعربية الا في القرن العشرين ، وكانت تطلق على ضفتي الاردن .

وكان قد سبق تأسيس هذه القرية تأسيس مدرسة زراعية لليهود (مقفه يسرائيل – ١٨٧٠) بواسطة جمعية الاليانس الاسرائيلية التي نشأت في فرنسا لغرض نشر الثقافة العصرية بين يهود الشرق٠ وفي عام ١٨٨١ وعلى أثر نشوب اعمال العنف الدموية ضد اليهود في روسيا ، نشر طبيب يهودي من مدينة أوديسا مؤلفا حث فيه ابناء جلدته على الهجرة الى أرض اسرائيل واعادة بنائها ٠ كان ذلك هو كتاب «التحرر الذاتي» الذي وضعه يهودا بنسكر ٠ وبعد مضي عام على نشر هذا الكتاب ، وفي أعقاب تجدد أعمال العنف الدموية ، استجاب الكثيرون لندائه ، ونشأت في روسيا حركة «محبي صهيون» – חובבי ציון

من «محبي صهيون» الى الصهيونية

قلنا ان المباحثات الخاصة بمستقبل أرض اسرائيل التي جرت في أوروبا في حينه كانت أحد الاسباب التي حدت باليهود الى الانتقال من حالة الانتظار الدائم للخلاص عن طريق ظهور المشيح المنقذ الى حالة من الاستعداد للانتظام في حركة قومية عملية لتحقيق أمنية الاجيال ٠ أما السبب الآخر فكان كثرة نشوء الدول القومية الجديدة في العالم ، وتحرر الشعوب من ربقة الاستعباد ٠ اثارت هذه الظاهرة في جماهير اليهود ايضاً الرغبة في التحرر ودفعتهم الى العمل من اجل تحقيق هذه الرغبة ٠ وقد رأينا سابقا كيف أثر تحـرر ايطاليا في الفيلسوف هِس ، وكيف تأثر الرابي القلعي بتحرر اليونان في عام ١٨٢٩ ٠ وكانت قد اعقبت تحرر هذين البلدين حركات قومية جديدة في أوروبا ، حظيت هي الأخرى باقامة دول مستقلة جديدة ٠ انتشرت في العالم آنذاك فرضية مؤداها أن كل شعب يملك أرضاً خاصة به يشكل فيها أغلبية ، ويتكلم لغة خاصة به ، يحق له التمتع بدولة خاصة ٠ انطلاقاً من هذه الفرضية حث بينسكر ، وموشي ليلنبلوم اليهود على الاهتمام ، أولاً وقبل كل شيء ، بالاستيطان في أرض اسرائيل ، وذلك لأن قيام دولة يهودية فيها يجب أن يسبقه قدوم اليهود اليها ٠

عندما صدر كتاب بينسكر كانت الجماهير اليهودية اكثر وعياً واكثر اطلاعاً على ما يجري في العالم مما كانت عليه ابان صدور دعـوة



احاد هاعام

القلعي ، أو هِس ٠ وهذا أدى بطبيعة الحال الى تمكن هذه الدعوة من جماهير اليهود وتأثيرها عليهم ٠ كانت الثقافة منتشرة بينهم ، وكذلك قراءة الصحف٠ وكانت قد أخذت تصدر آنذاك مطبوعات باللغة العبرية٠ وفي الامبراطورية الروسية التي لم يمنح فيها اليهود حقوقاً متساوية عمل اليهود باستمرار على تطوير أدبهم الخاص ، وصحافتهم ، وحياتهم العامة، وكان عدد المثقفين بينهم يتزايد باستمرار ٠ وقد ساهم في هذا التطور انتقال اليهود من المدن الصغرى الى المدن الكبرى ، هذه المدن التي تطورت بسرعة بسبب تقدم المواصلات (مد الخطوط الحديدية) واتساع نطاق التصنيع ٠ وهكذا نشأت في مدينتي أوديسا ووارسو أكبر الجـاليات اليهودية في أوروبا الشرقية ، واصبحتا فيما بعد مركزين للأدب العبري، كما أصبحتا مركزين لحركة «محبي صهيون» وللحياة اليهودية العامة ٠

كانت أوديسا ، مدينة بينسكر ، هي الميناء الذي أقلع منه اليهود القادمون الى ارض اسرائيل ، وكانت مقراً للجنة الأوديسية التي اقامها محبو صهيون في روسيا لغرض توطين بلاد اسرائيل · وفي أوديسا ، ظهر أدباء عبريون بارزون مثل مندلي موخير سفاريم ، وأحـاد هعام ، وحايم نحمان بياليك ، وشاؤول تشيرنخوفسكي ، وغيرهم · أما وارسو التي لم تكن منفذاً الى صهيون كأوديسا ، فقد كان نضال محبي صهيون فيها شاقاً وصعباً · ولكن ، وعلى غرار ما حدث في مناطق سكنى اليهود جميعها ، عمل التطور الأدبي العبري في وارسو أيضاً عمله في نمو حركة «محبي صهيون» · استخدم هذا الأدب لغة الكتاب المقدس ، واكثر من استقاء مواضيعه من عصور الكتاب المقدس ، وبهذا أثار في نفوس قرائه الرغبة والتشوق الى الأيام التي عاش فيها شعب اسرائيل في بلده حرا ، مكرما · وقد لعبت القصة الأدبية المكتوبة بروح الكتاب المقدس ، والتي وضعها ابراهام مابو واسمها «حب صهيون» ، دوراً كبيراً في تمهيد السبيل أمام حركة «محبي صهيون» ، قبل أن تكون هذه الحركة قد وُلدت ، وقبل أن تشتمل على دعوة صريحة واضحة للعودة الى أرض اسرائيل · اجل ، ان قصة «حب صهيون» قد فعلت فعل السحر لدى قراء العبرية في أوروبا الشرقية· وأسهم بيرص سمولنسكين هو الآخر في تمهيد السبيل أمام حركة محبي صهيون ، اذ عملت مؤلفاته ومقالاته على تعميق الوعي القومي وزيادة الاهتمام بمصير الشعب في أوساط الشبان العبريين ·

ثمة عامل آخر ساعد على انتشار حركة محبي صهيون : فمنذ أعمال العنف والاضطهاد الدموي التي حدثت في عامي ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ في روسيا رأت الجماهير اليهودية نفسها مضطرة الى النزوح عن أماكن سكناها القديمة ، والانتقال الى دول جديدة ، واعادة بناء حياتها في هذه الدول · وقد جرف تيار الهجرة معه ، وخاصة من الامبراطورية الروسية ، يهود رومانيا أيضا (التيسيطر عليها آنذاك حكملاساميعنصري)، ويهود غاليسيا (التي كان الفقر فيها مُدقعاً ، وان كان الحكم أقل تعسفاً) · كان من

المهاجرين أناس ذوو وعي قومي فضلوا الهجرة الى أرض الآباء على الانتقال الى أماكن أخرى · وهكذا ، ومنذ عام ١٨٨٢ اتخذت الهجرة الى أرض اسرائيل حالة الاستمرار ، وقامت في أوروبا الشرقية حركة دائمة لمساعدة العائدين الى أرض اسرائيل والعاملين على بنائها · ولكن القادمين اصطدموا بمصاعب جمة وبنظرة عدائية من قبل السلطة العثمانية ، الأمر الذي قلص من نطاق الهجرة ، ومن ثم حدّ من انتشار الحركة ·

ومن الجدير بالذكر ان هذه الفترة قد اقترنت بقدوم جماعات من يهود الشرق أيضا ، كاليمن وبغداد وبخارى والقوقاز والمغرب الاقصى ·

اجمال

في القرن التاسع عشر ، وبعد سبعة عشر قرناً من الجلاء والعيش كأقليات ذات طابع خاص في كل مهجر ممكن ، وبعد محاولات فاشلة في الذوبان ، تأكد للمفكرين اليهود الذين تأثروا بحركات التحرر القومية في أوروبا – بأن ما من حل لمشكلة الكيان اليهودي الا بالتجمع في نطاق دولة يهودية مستقلة · وسادت آنذاك ظروف وأوضاع سياسية ودولية مواتية لفكرة العودة الى وطن الامة اليهودية القديم ، أرض اسرائيل – فلسطين ، سيما وانها كانت في ذلك الحين ناحية مهملة ضئيلة الشأن قليلة السكان في ارجاء الامبراطورية العثمانية ، وذلك بعكس ما كان لها في نفوس اليهود – أمة وأفرادا – من مكانة سامية وقيمة معنوية عظمى

الفصل الخامس عشر

الحـركة الصهيونيـة

نضوج الوعي

في عام ١٨٩٦ حدث تحوّل حاسم في الحركة الصهيونية ، وبدأ عهد جديد عمل على تكوين الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف الصهيونية. كان أبو هذا التحول هو الدكتور تيودور (بنيامين زئيف) هرصل . كان هرصل صحافيا معروفاً في ڤينا . لم تكن علاقاته باليهودية قوية ، وقد اعتُبر في عداد المنصهرين. مكث هرصل مدة من الزمن (١٨٩١ — ١٨٩٥) في باريس ، وشهد استفحال الحركة اللاسامية في فرنسا وخارجها، وقد تمثلت بكل حدتها وصلافتها في محاكمة درايفوس . واكبت سير هذه المحاكمة أمواج دعاية حاقدة ، سامة ، مُغرضة ضد اليهود . أثر هذا الأمر تأثيرا بالغا في هرصل ، وادرك ان الانصهار ليس هو الحل للمشكلة اليهودية ، وأن كراهية اليهود لا تنبع من اختلاف في العادات أو الثقافة أو الشكل الحياتي اليهـودي ، وانما هي نابعـة عن عوامل تاريخية ونفسية كامنة في أعماق المجتمعات غير اليهودية. توصل هرصل الى استنتاج مؤداه أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو تركيز اليهود في بلاد خاصة بهم ، واقامة دولة لليهود .

لم تكن هذه الفكرة بالجديدة على اليهود ، ولكنها جاءت هذه المرة على لسان شخص حباه الله بجرأة ادبية متناهية، وبموهبة نبوئية خارقة، وبمقدرة قيادية وتنظيمية كبيرة، وبسحر شخصي يأخذ بمجامع القلوب. ولم يكن هذا وحده هو كل ما ميز حركة هرصل عما سبقتها من حركات، بل كان من ابرز مميزات هذه الحركة ايضا هو خلق الوسائل الكفيلة باخراج الفكرة الى حيز التنفيذ . ففي عام ١٨٩٧ عقد هرصل المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية ، وأقام المنظمة الصهيونية العالمية التي أصبحت مركزا للتفهيم والتنظيم والعمل وعاملا هاما في حياة



اليهود في جميع انحاء العالم • اراد هرصل الحصول سريعا على صفة سياسية للمنظمة الصهيونية ، وعلى الاعتراف الدولي بها • ولتحقيق هذا الهدف شرع في نشاط دبلوماسي وفي اتصال دائب مع الحكومات المختلفة• وهكذا أصبحت المنظمة الصهيونية ممثلة للشعب اليهودي ازاء العالم الخارجي ، وهذا ما منح هذه المنظمة صفة الهيئة السياسية • كان لهذه الحقيقة أثر نفسي كبير من وجهة الشعور بالعزة القومية، وبذر البذور الأولى في حقل الاحساس بالسيادة اليهودية • فكر هرصل كذلك في تفاصيل الدولة التي ستقوم ، وأراد لها القيام على أساس متين من النظم الاجتماعية العادلة السليمة • ولهذا عاضد هرصل فكرة البروفيسور صفي شبيرا ، الخاصة باقامة «الصندوق القومي لاسرائيل» ــ هقيرن هقييمت ــ لغرض شراء الأراضي في أرض اسرائيل لتكون ملكا للشعب كله لا للافراد •

نشاطات دبلوماسية

مال هرصل الى الاعتقاد بان الحكومة التركية قد تبدي استعداداً لمنح اليهود امتيازاً لتطوير أرض اسرائيل نظراً للضائقة الاقتصادية الشديدة التي كانت تعانيها • ففي أيامه جرت العادة ان تمنح الحكومات امتيازات تطوير كهذه لشركات خصوصية، وتمنحها حق التمتع بصلاحيات الحكم ايضاً• حاول هرصل احراز امتياز كهذا للمنظمة الصهيونية العالمية فلم يفلح • كذلك أخفق في مفاوضاته مع البريطانيين فيما يتعلق بالاستيطان في شمال سيناء (مشروع العريش) ، وذلك بسبب رفض المهندسين البريطانيين تحويل قسم من مياه النيل لارواء هذه المناطق الصحراوية• اقترح البريطانيون الاستيطان في افريقيا الشرقية (أوغندا)• ولكن الحركة الصهيونية رفضت هذا المشروع بعد نقاش داخلي حاد • وفي غمرة هذا النقاش توفي هرصل ، (٢٠ تموز عام ٥٦٦٤ العبري — ١٩٠٤) ، ولكن وفاته لم تقض على مشروعه بل مهدت له سبيل الانتقال من مرحلة «الصهيونية السياسية» الى مرحلة «الصهيونية العملية» • ومعنى ذلك انتهاج خط وسط بين اسلوب «محبي صهيون» الذين توخوا التمهيد لاقامة الدولة بواسطة توطين البلاد ، وبين اسلوب هرصل الذي أراد ضمان الصفة السياسية والاعتراف الدولي بالحركة الصهيونية قبل كل شيء • وسعت الحركة الصهيونية ايضاً الى تحقيق فكرة أحاد هعام الخاصة بالصهيونية الروحانية — أي تحويل البلاد الى مركز روحي للمهاجر اليهودية ، لغرض الابقاء على الوحدة الثقافية للشعب • وهكذا ، وعشية الحرب العالمية الاولى ، كانت قد أقيمت في البلاد الاسرائيلية شبكة من المدارس التي تدرس باللغة العبرية • وبهذه الخطوة تحقق النصر لنضال اليعزر بن يهودا المرير منذ مطلع نشوء حركة محبي صهيون ، وهو النضال من اجل احياء اللغة العبرية كلغة الكلام والكتابة والتدريس في أرض اسرائيل ، وفي كافة المهاجر اليهودية •

أوقفت الحرب العالمية الأولى النشاط العلمي للصهيونية ، ولكنها هيأت الفرصة لتوسيع نطاق العمل السياسي • ففي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ ، وعشية الهجوم البريطاني على القوات العثمانية في فلسطين ، افلحت مساعي المنظمة الصهيونية



الدكتور حاييم وايزمن

برئاسة الدكتور حايم وايزمن في الحصول من وزير الخارجية البريطانية، اللورد بلفور ، على تصريح يؤكد معاضدة بريطانيا لمشروع اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين · وقد ساعد في انجاح هذه المساعي قيام الصهيونيين بمد يد العون لبريطانيا في حربها ضد الاتراك الذين اضطهدوا الصهيونية في البلاد الاسرائيلية ابان الحرب ، كما ساعد في ذلك تطلع بريطانيا الى المزيد من المساعدة ، وخاصة من جانب يهود الولايات المتحدة · لم يكن نص تصريح اللورد بلفور واضحا ، ولكن ولحسن حظ اليهود ، تشكلت فور انتهاء الحرب عصبة الأمم ، وأوكلت أمر ادارة فلسطين الى بريطانيا ، كدولة منتدبة · وقد فرضت شروط الانتداب على دولة الانتداب مساعدة اليهود في الهجرة ، والاستيطان ،

واكتساب حقوق المواطنة ، والنظر الى المنظمة الصهيونية كممثل رسمي للشعب اليهودي. وهكذا نال اليهود اعترافا دوليا رسميا بحقهم في العودة الى أرض اسرائيل .

أتاحت هذه المكانة الجديدة للمنظمة الصهيونية فرصة تجديد نشاطها العملي على نطاق أوسع من ذي قبل ، وتجنيد الامكانات المالية الكبيرة ، وتوسيع نطاق الهجرة . بيد ان الموظفين البريطانيين ابدو منذ البداية ميلا للتملص من شروط الانتداب والتزاماته نحو اليهود . كان هدف هؤلاء المحافظة على دور «الحَكَم المحايد» بين اليهود والعرب القاطنين في البلاد ، وكأنهم حَكَم يحرص على توازن القوى بين الطائفتين . وبهذا حاول هؤلاء ضمان دوام الحكم البريطاني في فلسطين ، كما حاولوا الحيلولة دون تمكين الطائفة اليهودية من زيادة عدد القادمين من أبنائها الى درجة تمكنها من تشكيل قوة قادرة على اقامة دولة مستقلة. استمرت الاحتكاكات طيلة سني الانتداب البريطاني بين السلطة والمواطنين اليهود، كما اصطدم العرب انفسهم باليهود والبريطانيين معا ، محاولة منهم التخلص من كلا الاثنين . ومع هذا كله ، وفي غمرة هذا الصراع تمكن اليهود من زيادة عددهم حتى أصبحوا قوة جدية .

اجمال

يمكن تقسيم تأريخ الحركة القومية الى ثلاث فترات رئيسية : ١) أيام تفتح البراعم الأولى قبل عام ١٨٨٢ ، ٢) أيام حركة «محبي صهيون» ، حتى عام ١٨٩٧ ، ٣) أيام الصهيونية . منذ هذا التأريخ وصاعداً أصبح الهدف الواضح هو اقامة الدولة وجمع الشتات . ولكن هذا الطريق كان متشعباً ، فمرة ركزت الحركة الصهيونية جهودها في النشاط السياسي، وأخرى في الاستيطان، وأخيرا دمجت بين الاسلوبين. بقوة العمل ، والمثابرة ، والتضحية ، أصبح الحلم حقيقة .

الفصل السادس عشر

بوادر العــودة

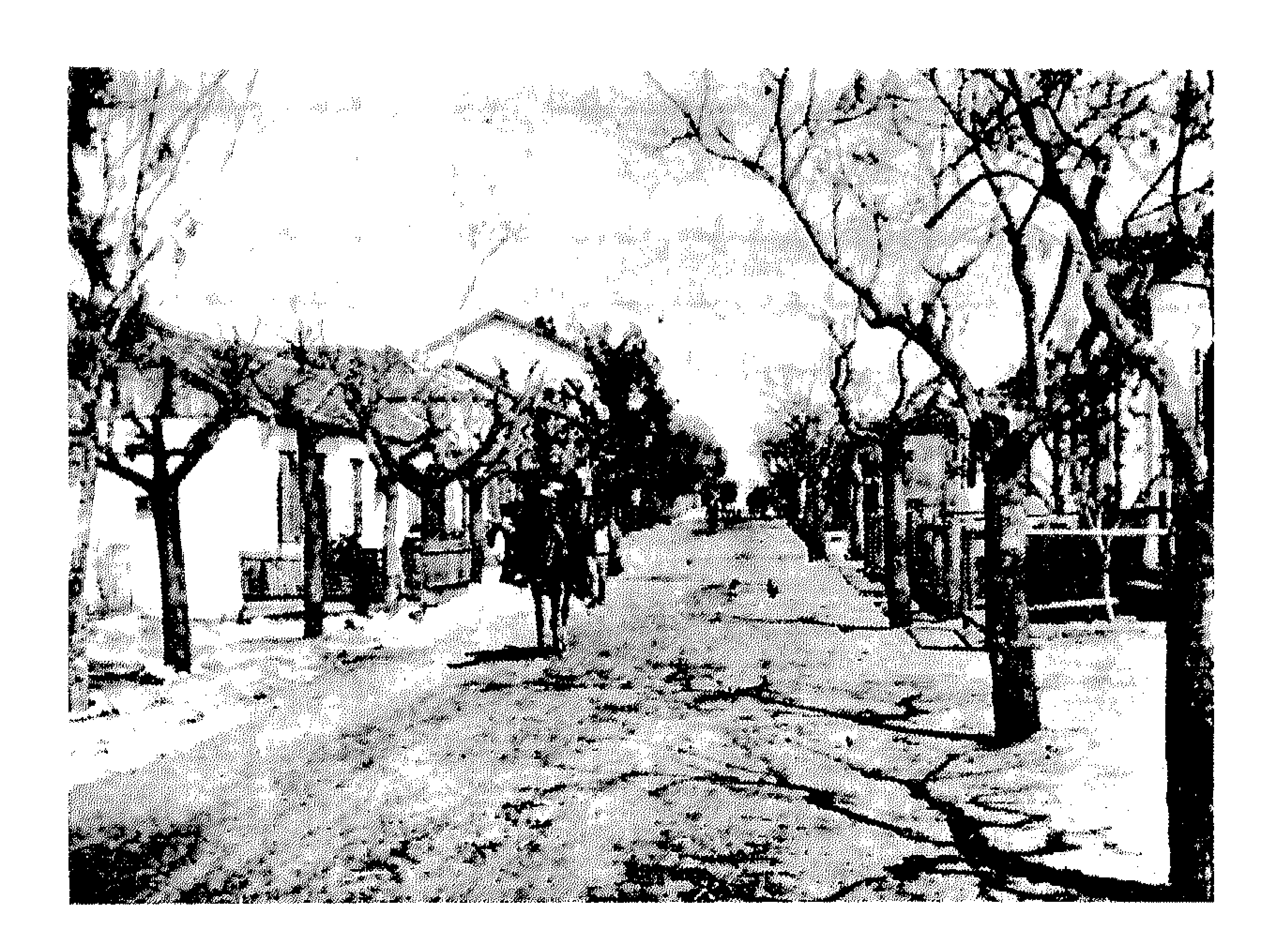
البلاد ابان الهجرة الأولى

لم ينقطع تطلع اليهود الى البلاد المقدسة على مر الاحقاب ، كذلك لم ينقطع استيطانهم لها على الدوام • وحتى الفتح العربي وما بعده بقليل كانوا يؤلفون فيها شعب الاكثرية المسلوب حق الحكم الذاتي • وكان الاستيطان اليهودي العصري لهذه البلاد في الربع الاخير من القرن الماضي استمرارا ـ لا بداية ـ لحركة استيطان غير منقطع على مر الاجيــال •

من المستبعد أن يكون عدد السكان جميعاً على ضفتي الاردن قد بلغ نصف المليون نسمة في عام ١٨٨٢ • وفي هذا العام بدأت طلائع الهجرة اليهودية القومية الأولى الى البلاد • لم تكن ثمة خطوط حديدية ، وقد تم مد الخط الحديدي الأول بين يافا وأورشليم بعد نحو عشر سنوات من ذلك التاريخ • لم تكن ايضا طرق معبدة • كانت العربات التي تجرها الخيول آنذاك بمثابة كماليات • لم يكن في البلاد ميناء يليق بهذا الاسم، لهذا كان النزول من السفينة الى الساحل محفوفاً بالاخطار وبالمصاعب • كانت الحمير والجمال هي وسائل المواصلات الرئيسية • انعدم الأمن على الطرقات وتعرض المسافرون لاخطار قطاع الطرق • كانت البلاد متأخرة قفراء ، وعشش البعوض الذي نشر الملاريا في المستنقعات ، ومرض الكثيرون وتوفوا بهذا المرض • كانت في البلاد مدينتان هما أورشليم ويافا• لم تكن تل ابيب آنذاك قائمة • وفي مكان «مدينة المستقبل» هذه ترامت مساحات واسعة من الرمال تتخللها مساحات من الكروم • استقى الناس الماء من آبــار الجمــع التي جمعوا فيها ميــاه الأمطار • اضطر المستوطنون الاوائل كسائر السكان الى شرب مياه الوديان او العيون ، أو مياه الآبار في القرى العربية المجاورة •

حكم الأتراك البلاد حتى الحرب العالمية الأولى ، ولكن الحكم الفعلي كان قائما في المدن فقط حيث استقر الموظفون وثكنات الجيش والبوليس. وكانت السلطة في القرى العربية في ايدي رؤساء الحمائل ومخاتيرها او وكلاء كبار الملاك القابعين في المدن ، في حين ان مشايخ البدو استأثروا بالحكم في العشائر . وضايق البدو سكان القرى خصوصا في غزواتهم في موسم الحصاد ، كما لم تخل العشائر والقرى معا من المضايقات الداخلية الناجمة عن الاخذ بالثأر ، والتنافس الحمائلي ، والانقسام الى قيسي ويمني ، وطمع القوي بحق الضعيف ، كل هذا ناهيك عن أعمال اللصوص وقطاع الطرق . وكان من الطبيعي ان المستوطنين اليهود الاوائل لم ينجوا من هذه المضايقات ، بل لا يبعد ان نصيبهم منها كان اكبر من سواهم، الامر الذي اضطرهم في باديء الامر الى القيام بالحراسة بأنفسهم ثم استئجار «الاشقياء» أنفسهم كحراس ليتقوا شرهم وشر منافسيهم .

ان المعارضة التي لاقتها الهجرة اليهودية الاولى قد جاءت في حينها ليس من العرب سكان البلاد ، بل من الاتراك حكام البلاد ، وذلك لاعتبارات استعمارية تركية محضة . كانت نظرة السلطة العثمانية الى المهاجرين مشوبة بالتشكك والريبة، لكونهم اوروبيين، فعملوا على مضايقة هؤلاء «الذين قدموا ليبنوا لهم وطناً في داخل امبراطورية السلطان» . وفي عام ١٨٨٣ حُظر على المستوطنين اقامة المساكن ، حتى اضطر هؤلاء طيلة سنوات عدة الى السكنى في بيوت عربية متداعية ، وفي حظائر الأبقار والعُرش المبنية من الحُصُر المعمولة من أعواد القصب على طريقة البدو سكان المستنقعات . حُظرت الهجرة الى البلاد ، وأصبح قدوم اليهود اليها محصوراً على أغراض السياحة أو الحج فقط . وبوصول هؤلاء السياح والحجاج الى البلاد كانوا يمنحون «بطاقة حمراء» تجيز لهم الاقامة لمدة ثلاثة شهور في البلاد . ولكن هؤلاء تمكنوا على الغالب من البقاء في البلاد بفضل الرشوات ، كما تمكن كثيرون من الافلات من قبضة الحكم بسبب كونهم رعايا أجانب ، خاصة وقد حُظر على السلطات التركية في حينه التدخل في شؤون رعايا الدول الاخرى ، أو اعتقالهم ، أو محاكمتهم بدون تدخل القناصل .



قرية بيتح تقوا في اول عهدها

كيف استقرّ الأوائل ؟

تسمى الهجرة التي تمت بين سني ١٨٨٢ - ١٩٠٣ بالهجرة الأولى٠ وضعت هذه الهجرة الأساس الاول للاستيطان اليهودي العصري في أرض اسرائيل ، وهو استيطان اعتمد في معيشته على الزراعة والحرف اليدوية، وأخذ على عاتقه بناء البلاد ، مدفوعاً بايمانه بضرورة تمهيد السبيل لاقامة وطن قومي يهودي ٠ كان الاوائل الذين قدموا عام ١٨٨٢ جسماً طلائعياً منظماً٠ انتمى هؤلاء لمنظمة الشبيبة المتعلمة في روسيا والتي كان شعارها «يا آل يعقوب ، هيا بنا نَسِرْ» - **בית יעקב לכו ונלכה** - ومن هذه الكلمات الأربع اشتقت كلمة «بيلو» التي عُرف بها المهاجرون الاوائل ، واطلقوها على أنفسهم ٠ أسس رجال البيلو مستوطنة غديرا ٠ وفي فترة قريبة من قدوم هؤلاء ، تأسست مستوطنات ريشون لصيون ، وزخرون يعقوب ، وروش بينا ، على ايدي جماعات أخرى من القادمين ٠

اصطدم القادمون الجدد بمصاعب جمة ، اذ لم يكن معظم هؤلاء قد تلقى أي اعداد وارشاد مهني أو زراعي، واتضح للقلة التي مارست العمل الزراعي قبل قدومها الى البلاد - مثل مؤسسي عقرون - أن الاساليب الزراعية هنا تختلف كل الاختلاف عما الفوه وعرفوه في الدول التي قدموا منها . افتقر معظم القادمين للاستيطان الى الوسائل والامكانات ، في حين كانت لدى البعض منهم امكانات محدودة . واذا كان رجال الهجرة الأولى قد تمكنوا من بعث جذورهم في الأرض ، وأقاموا المستوطنات الزراعية المستقرة ، فما ذلك الا لأن هؤلاء قد تحلوا بالصمود والعناد والتفاني ، من جهة، ولان البارون بنيامين (ادموند) روتشيلد، أخذ هذه المستوطنات الجديدة تحت رعايته من جهة أخرى. وقد أدار موظفوه معظم المستوطنات خلال السنوات ١٨٨٥ - ١٩٠٠ ، وتحمل البارون روتشيلد ، كذلك ، معظم النفقات والمخاسر .

كانت محاصيل هذه المستوطنات الزراعيـة معـدة في أساسـها للتصدير . فقد غرسوا الكرمة لصناعة الخمـور ، وكذلك اللوزيات . ورويداً رويداً رسخ هؤلاء أقدامهم وتعرفوا على ظروف البيئة ، وسرعان ما أخذوا زمام المبادأة في الميدان الاقتصادي . واسـتجابة لطلب هـؤلاء المستوطنين ، حل البارون جهاز الموظفين الاداري ، بسبب افراط هؤلاء في التدخل في شؤون المستوطنات ، ونقل الاشراف عليها الى شركة «ييقا» وهي الشركة التي تمرست في الاستيطان اليهودي في الدول الاخرى .

مع تقدم المستوطنات شرع الفلاحون اليهود في الاستعانة بالعمال العرب الذين تقاضوا أجراً رخيصاً . وقد لعبت زراعة اشجار الفاكهة التي تتطلب قوى بشرية كبيرة للقيام بالاعمال الموسمية دوراً كبيراً في هذا المجال. كان الوضع اكثر سهولة في مستوطنات الفلحة التي أقامتها شركة «ييقا» في هضاب الجليل الأسفل في أواخر أيام الهجرة الأولى ، حيث قام الفلاح اليهودي بنفسه بجميع أعماله . زاد العمل العربي مشكلة الأمن حدة ، كما زاد من حاجة المستوطنات اليهودية الى الحراسة العربية .

أجل ، لقد ظهرت بوادر الحراسة والدفاع الذاتي اليهودي في البلاد منذ بدء الاستيطان ، ولكن مع الوقت تعرضت هذه البوادر لخطر الزوال لان المزارعين اليهود كانوا عرضة لان يصبحوا طبقة دقيقة من الملاكين الذين يوكلون أعمالهم الزراعية الى أيد عربية ٠

الهجـرة الثانيـة

تلاشى هذا الخطر مع بدء الهجرة الثانية ٠ تمثلت هذه الهجرة في قدوم موجة من القادمين الجدد من أوروبا الشرقية ، وصلت البلاد بين سني ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ ٠ كان أبناء الهجرة الثانية شباناً تأثروا بالأفكار الاشتراكية التي كانت سائدة في أوساط الشبان اليهود المثقفين في روسيا٠ توجه هؤلاء الشبان الى المستوطنات ، وأخذوا يطالبون الملاكين اليهـود بتشغيلهم في المزارع وفي الحراسة وفي كل ما يحتاجه المجتمع الناشيء من أعمال ٠ وقد انتهى هذا النضال الى الغلبة بعد انقضاء ثلاثين عاماً ، وذلك ابان اضطرابات سني ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، حين ترك العمال العرب المستوطنات اليهودية بمحض ارادتهم ٠ كان وضع العامل اليهودي في مستوطنات الجليل الأسفل مريحاً اكثر ، وذلك لأنه كان من السهل على العمال اليهود التدرب على العمل والتمكن منه ، اذا سار الفلاح اليهودي الجليلي بنفسه وراء محراثه ، واستخدم العامل اليهودي مساعداً أميناً له ، ولم يغريه رخص الاجور لدى العمال العرب ٠

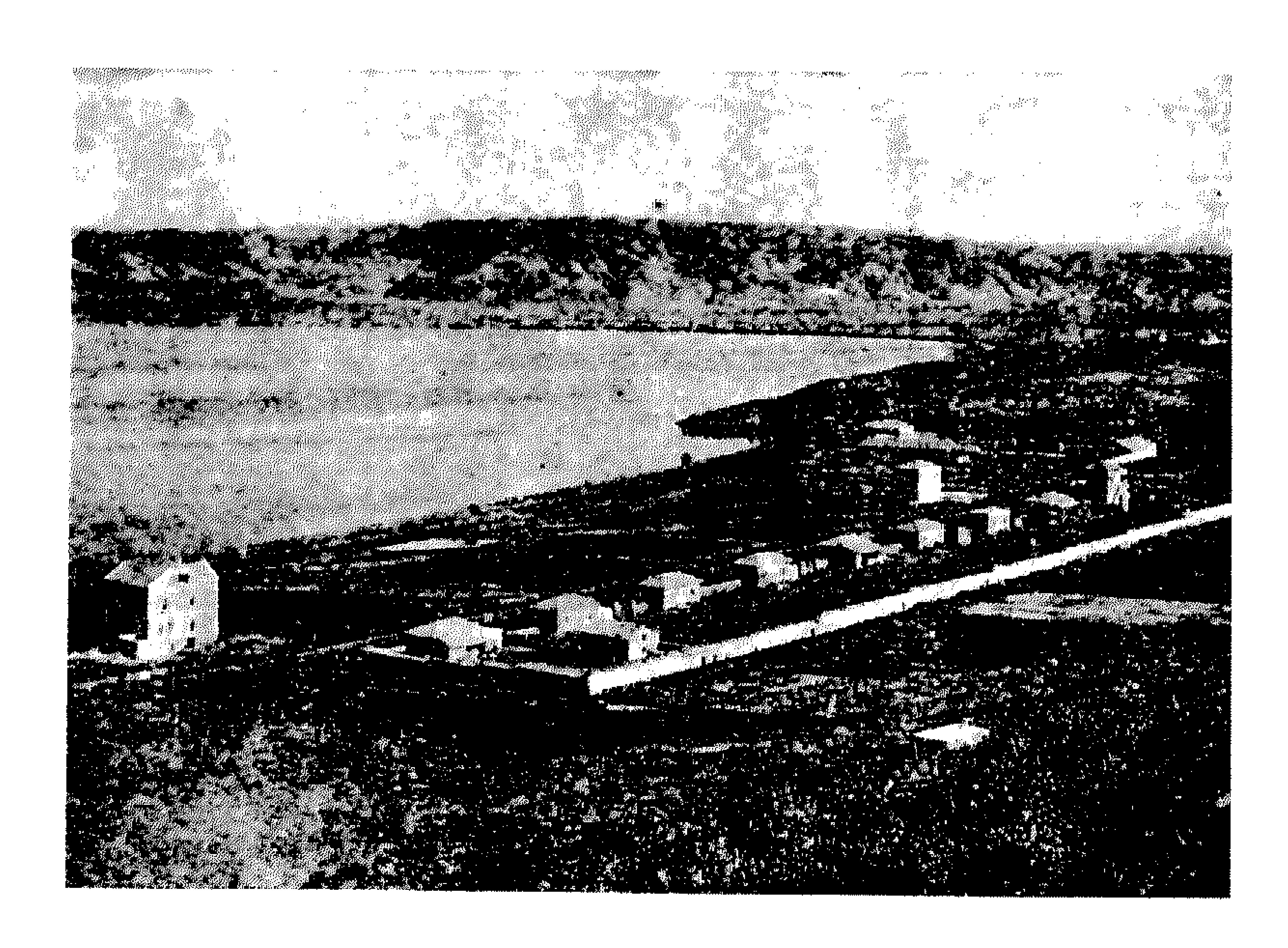
مع بدء الهجرة الثانية أخذت عملية اقامة تنظيم حزبي ومهني للعمال اليهود تسير بخطى حثيثة ، وقامت بالفعل قوة عبرية دفاعية ٠ اذ ان الشبان الذين توجهوا الى المستوطنات للقيام بالاعمال الزراعية بدلاً من العمال العرب تضلعوا كذلك بمهام الحراسة في تلك المستوطنات٠ كان الكثيرون منهم في الماضي اعضاء المنظمة الـدفاعية التي تشـكلت في روسيا ، ابان أعمال العنف والاضطهاد ضد اليهود هناك ، لهذا لم يكن غريباً أن أعرب هؤلاء عن استيائهم من الوضع الأمني السيء الذي ساد

البلاد (كجزء من الامبراطورية العثمانية) آنذاك · هكذا ، تأسست عام ١٩٠٩ منظمة «هشومير» · أخذ أعضاء هذه المنظمة على عواتقهم مهمة الحراسة ، وخاصة في الجليل الذي كثر فيه قُطاع الطرق ، وخاصة من البدو · اعتاد البدو التمخطر بخيولهم الأصيلة ، ورأوا في ركوب الخيل برهاناً على اللياقة الحربية · أدرك رجال حركة «هشومير» أنه لا يكفي صد قطاع الطرق ، وانما يجب التأثير على نفسيتهم ايضاً ، لهذا توخى هؤلاء افهام العابثين بأناليهود ليسوا «أبناء الميتة» وانما هم رجال شجعان أشداء ، لا يقلون شأنا عن خصومهم ، سواء في اصالة خيولهم وجمالها ، أو في امتطاء صهوات هذه الخيول وفنون ركوبها ، ومطاردة الخصوم ، واصابة المرمى ·

مهدت الهجرة الثانية السبيل الى توسيع نطاق الاستيطان عن طريق خلق شكل جديد من اشكال الاستيطان الزراعي — ذلك هو الاستيطان التعاوني · أسر هذا الشكل الاستيطاني الجديد افئدة الشبان لما تضمنه من امكانيات التآخي ، والتعاون ، والعمل الذاتي · رأى الشبان في هذا الشكل الاستيطاني استمراراً لضمان العمل اليهودي في الاراضي اليهودية · وعاضدت مؤسسة «القيرن قييمت» هذه الفكرة ، وكانت قد بدأت نشاطها في البلاد ابان الهجرة الثانية · هكذا قامت المستوطنة التعاونية المعروفة بالقبوصة أو القبوص ، والتي أصبحت ، مع مرور الزمن ، عاملاً هاماً على استيعاب الهجرة واحياء القفار · أدى قيام الاطارات الحياتية التعاونية هذه التي حظيت بمساعدة الحركة القومية اليهودية الى توسع نطاق الاستيطان ليشمل مناطق نائية لم يكن في مقدور المزارعين الافراد الوصول اليها ·

الحرب العالمية

في سنة ١٩١٤ اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، فأوقفت المستوطنين اليهود في أرض اسرائيل أمام امتحان قاس ، ووضعت كل



قيبوص كنيرت سنة ١٩١٠

منجزاتهم في كفة الميزان . كان كل ما تم بناؤه بالعرق والدم معرضاً للدمار . هددت المجاعة البلاد كلها . شرعت السلطات التركية ، وقد رأت في الصهيونية عاملاً مناوئاً لها، في طرد اليهود الذين يحملون جنسية غير تركية من البلاد ، وأخذت تختلق المبررات والحجج الواهية لملاحقة الباقين ومضايقتهم . أُخليت مدينة تل أبيب ، وقد كانت آنذاك في مطلع بنائها ، من السكان تقريباً ، بعد أن طردوا الى شمال البلاد ، وأخليت مراكز استيطانية كثيرة أيضاً . واجه السكان المصاعب والمتاعب والاضطهاد ، ولكن روح المجتمع اليهودي لم تهن . وبالتعاون مع رجال منظمة «هشومير» تشكلت «جماعات الباقين» التي أخذت على عاتقها حماية المراكز الاستيطانية في جميع الظروف . أما اليهود الذين ابعدوا الى مصر ، وقد كانت تحت الحكم البريطاني ، فقد انشأوا في نطاق الجيش البريطاني وحدة عسكرية (عُرفت باسم سُوّاق البغال) وقد

حارب أفرادها في غاليبولي في فوهة مضيق الدردنيل ، ومهدوا السبيل أمام اقامة الكتائب العبرية التابعة لسلاح المشاة والتي اشتركت فعليا في تحرير البلاد من أيدي الاتراك ٠

انتداب بريطاني

انتظر السكان اليهود والعرب قدوم الجيش البريطاني بفارغ الصبر ، اذ كان الجميع قد مل حكم الاتراك ٠ وفي عام ١٩١٧ كما سبق وذكرنا نشرت الحكومة البريطانية «تصريح بلفور» الذي وعد بالعمل على اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ٠ ولكن «الحكم المحايد» باشر بتمثيل دوره على الفور ، فايّد أعمال القوميين العرب ، وشجع العدوان العربي ــ وسرعان ما نشبت عن ذلك اضطرابات دامية في عام ١٩٢٠ ٠ وهنا بادر البريطانيون الى حل الكتائب التي تشكلت من يهود انجلترا ، واميركا ، وأوستراليا ، وحُلت كذلك الكتيبة التي تشكلت من يهود البلاد ، (وكلها خاضت الحرب الى جانب البريطانيين ضد الاتراك) وذلك بعد أن هب أفرادها ، ابان اضطرابات عام ١٩٢١ ، للذود عن تل ابيب٠

ولكن وبالرغم من هذا كله فقد دفع تصريح بلفور واحتلال البريطانيين للبلاد عجلات الهجرة وبناء الوطن القومي اليهودي الى الامام٠ اعترفت السلطة بالمؤسسات الصهيونية اعترافاً شبه رسمي ٠ حصلت الوكالة اليهودية التي أقيمت عام ١٩٢٢ على صفة رسمية تقريباً ٠ سُمح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، واصبحت الهجرة حقاً لا مِنّة ٠ وفي أعقاب الحرب ، قدمت أمواج الهجرة الثالثة ــ وهي هجرة طلائعية وسعت نطاق الاستيطان القيبوصي (التعاوني) ، وأعقبتها الهجرة الرابعة ــ وكانت مكونة ، في أساسها ، من أبناء الطبقة الوسطى في أوروبا الشرقية ٠ هكذا تضاعف بسرعة عدد السكان اليهود ، وكان عددهم عند انتهاء الحرب لا يربو على ٥٥ الفاً ــ طرد منهم عشرون الفاً الى خارج البلاد ابان الحرب ٠ وفي عام ١٩٣١ ، أي قبل بدء الهجرة الخامسة الالمانية ــ



يسحاق بن صفي ودافيد بن غوريون – من القياديين في الهجرة الثانية ، وكانا يدرسان الحقوق في القسطنطينية لدى نشوب الحرب الاولى ، ثم سافرا الى الولايات الاميركية ، وهناك اقبلا على تجنيد المتطوعين اليهود للكتائب العبرية التي انضمت الى القوات البريطانية . وقد عادا الى ارض اسرائيل مع هذه الكتائب سنة ١٩١٨ . وبعد ٤٠ سنة من المجهود الدائب اصبح بن غوريون رئيس حكومة اسرائيل ، واصبح بن صفي الرئيس الثاني للدولة بعد حاييم وايزمن .

البولندية التي شملت في الاساس يهود المانيا الهاربين من الطغيان النازي، بلغ عدد اليهود في البلاد ١٧٥ الفاً . اتسعت تل ابيب ، وتطورت مدينتا حيفا وأورشليم ، وتأسست مستوطنات جديدة ، منها قرى تعاونية كثيرة كالقيبوتس ، والموشاب ، والموشاب التعاوني . وتطورت الصناعة والحرف المختلفة ، واتسع نطاق الزراعة . تعلم القادمون كل حرفة وصناعة وازداد السكان قوة مادية ومعنوية ولكنهم جوبهوا ، بالرغم من هذا كله ،

بالمصاعب والمشاكل العويصة الجديدة ، وخاصة مشكلة المقاومة العربية، وقد ساندها البريطانيون رغبة منهم في الحيلولة دون تقوّي مكانة اليهود في البلاد ٠

اجمــال

لم تنقطع هجرة اليهود الى البلاد المقدسة طيلة الاجيال ، ولكنها منذ سنة ١٨٨٢ اصبحت هجرة على نطاق أوسع وهدف ابعد ٠ وقد كانت المثل العليا التي تحلى بها العائدون حافزا هاما لعودتهم وثباتهم أمام مشاق التكييف والتكيف٠ وفي الحين ذاته جاءهم المدد المادي والمعنوي والسياسي من اخوانهم في الخارج ، ومن ذوي الحل والربط في السياسة العالمية ، ومن تطورات الاوضاع ابان الحرب العالمية الاولى٠ ولما بدرت بوادر التحقق لحلم العودة اعترف الرأي العام العالمي السائد آنذاك بشرعية هذه العودة، وأصبح العائدون أقوى من ان تثنيهم المعارضة عن المضي في تحقيق حلمهم٠

الفصل السابع عشر

الوطن القومي وعرب فلسطين

عناصر الموقف العربي

ليس من الانصاف أن يقال ان العرب عامة وعرب فلسطين خاصة قد عارضوا الاستيطان اليهودي منذ البداية حتى النهاية · الحقيقة هي ان العرب خارج فلسطين لم يعيروا هذا الامر شيئا من الانتباه ، أما عرب فلسطين فلم يبدوا نحوه معارضة محسوسة قبل سنة ١٩٢٠ · وعلى وجه العموم يمكن القول بأن العرب قد تفاعلت في نفوسهم عوامل عدة ، منها واقع التعايش الديني والاجتماعي والاقتصادي الذي لم يخلُ من أواصر المودة والصداقة وحسن الجوار وعناصر الانسانية والخير، وما نجم عنها من وجوه الشبه الكثيرة بين الثقافة الدينية اليهودية والاسلامية والتعاون الفلسفي والعلمي والادبي · ومنها ايضا التقدير الذي يكنه الاسلام للدين اليهودي والايمان الشعبي بأن لا بد لبني اسرائيل من يوم يرضى به عليهم ربهم · ومنها العامل المادي وكان تأثيره على مستويين : المستوى المحلي أي الفائدة التي اجتناها اصحاب الاراضي والعقارات والفلاحون والعمال العرب من عودة اليهود ؛ والمستوى الشرق أوسطي* ، أي تقدير حاجة

* لقد روى السيد الطيب الذكر موشي شاريت لكاتب هذه السطور انه قد التقى إبان الحرب العالمية الثانية بأحد الزعماء المصريين المبرزين في مصيف على جبل الكرمل ، فقال له هذا : أرى أن لديكم الكثير من العلماء والمهندسين ، وأخشى أن تستغويهم أوروبا لاعادة بنائها بعد الحرب ، فلا تتركوهم يذهبون ، ان الشرق الاوسط سيكون بأمس الحاجة اليهم ·

هذه الربوع الى عنصر بنـاء ذي قدرة على تجنيد العلم والمـال والخبرة والقدرة على التطبيق لاجل اعمار هذه الربوع • ومن العوامـل التي تأثر بها العرب ايضا ـ حقيقة انفلسطين لم تحتل مكانة ذات أهمية كمنطقة بحد ذاتها في الوعي العربي • ومنها ان الوعي القومي بمفهومه الاوروبي كان نبتة حديثة النمو ضعيفة في الاوساط العربية • ولذا نرى ان المقاومة العربية للحكم العثماني لم تبرز الى حيز الوجود الا بعد ثورة الاتراك ضد الطاغية عبد الحميد (١٩٠٨) واعلانهم عن رغبتهم في تتريك العرب أي جعلهم اتراكا •

هذه العوامل كلها قد أدت الى حقيقة واحدة لا يستطيع نكرانها أحد ، وهي ان الوطن القومي اليهودي نشأ على أراض باعها العرب لليهود، وهم مخيرين منذ البداية حتى النهاية وكان الباعة من عامـة اصحـاب الاراضي ، ومن كبارهم وقادتهم على السواء •

ومهما كان من أمر فان اليهود قد افترضوا وتوقعوا ان يتفهم العرب قضية الشعب اليهودي، هذا الشعب الشقيق، بنطاقها التاريخي والواقعي والمأساتي تفهما واسعا عميقا ، كما تفهمها العالم المنور ، فيفسحوا لهم المجال في عشر معشار من عالمهم الواسع (انظر اتفاق فيصل ـ وايزمان)• والباحث عن حقائق الامور في العواصم العربية حتى في حرب ١٩٤٨ لا بد وان يستدل ـ رغم كافة المجاهرات ـ على أن هذه العواصم لم تكن مقتنعة تمام الاقتناع بان هناك شعبا فلسطينيا وله قضية قومية تستحق التفاني في سبيل الانتصار له ولها • واذا كان الوعي القومي الفلسطيني قد بلغ اشده بعد مضي قرن تقريبا من بدء الاستيطان اليهودي العصري ، فهذا لا يعني ان من العدل المطالبة بارجاع دورة عجلة التاريخ ومحق الحقائق التي تحققت خلال هذا القرن ، أو ان القضية اليهودية قد فقدت جوهر كونها قضية الانصاف بين أمة لا تملك شيئا وأمة تملك كل شيء •

بادرة التفـاهم

لقد استبقنا الحوادث لكي نتفهم كنه تطوراتها ، ولنعد الى التأكيد بان المقاومة العربية لم يكد يكون لها منوجود محسوس قبلالحرب العالمية



صورة للامير فيصل والدكتور حاييم وايزمن في لقاء لهما بالقرب من العقبة في حزيران ١٩١٨

الأولى . فقد كان السكان غير اليهود جلهم مسلمين وقد رضوا بالحكم التركي خلال ٤٠٠ سنة لكونه حكما اسلاميا . وحين أصبحت الحركـة القومية العربية حركة محسوسة ، تطلع اليهود الى التوصل الى اتفاق معها ، وتحقيقـا لذلك اجتمع الدكتور حـاييم وايزمن زعيـم الحركـة الصهيونية بالامير فيصل زعيم الثورة العربية آنذاك ، وفي كانون الثاني من عام ١٩١٩ ، توصل معه الى اتفاق في الرأي هذا نصه

نص أتفاق فيصل وايزمن

«ان سمو الامير فيصل ممثل المملكة الحجازية ونائبها ـ نظرا لاعترافه بالقرابة العنصرية الكائنة بين العرب والشعب اليهودي ، ونظرا لاعتقاده بأن اضمن الطرق لبلوغ امانيهما القومية معا هو العمل المشترك الحازم باقصى درجة ممكنة بينهما لترقية الدولة العربية والبلاد الفلسطينية ، ونظرا لرغبته في اقرار حسن التفاهم الكائن بينه وبين ممثل الجمعية الصهيونية ـ فقد اتفق معه على ما يلي :

« أ ـ تدار شؤون كل من الدولة العربية والبلاد الفلسطينية في جميع ما يختص بعلاقاتهما ومساعيهما ، بروح حسن النية والتفاهم المتبادلين القلبيين الى آخر حد ممكن • ويتعين لذلك ممثلون رسميون من العرب واليهود في كل من هذين القطرين (اي ممثل عربي في البلاد الفلسطينية وممثل يهودي في البلاد العربية) •

« ب ـ انه بعد انتهاء المفاوضات في مؤتمر الصلح مباشرة تعين الحدود الدائمة بين الدولة العربية والبلاد الفلسطينية من قبل لجنة مفوضة من الفريقين المتعاقدين بهذا الاتفاق •

« ج ـ تتخذ كافة الوسائل اللازمة لدى وضع القانون الاساسي للبلاد الفلسطينية وادارتها لضمان تنفيذ وعد الدولة البريطانية الصادر بتاريخ ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ (أي وعد بلفور) ضمانا تاما •

« د ـ تتخذ جميع الوسائل اللازمة لتأييد وتوسيع الهجرة اليهودية الى البلاد الفلسطينية بنطاق واسع ، وتوطين المهاجرين اليهود في الاراضي الفلسطينية بأسرع ما يمكن استيطانا كثيفا قائما على قاعدة الزراعة الكثيفة • وفي الوقت ذاته تصان حقوق الفلاحين والمزارعين العرب وتقدم لهم المساعدة على التطور الاقتصادي •

« هـ ـ لا يجوز اصدار امر ما ، او ان يسن قانون من شانه تحديد حرية الدين • كما انه لا يسمح من الجهة الاخرى بأجراء التفضيل او منح حق الاسبقية فيما يتعلق بحرية الدين والقيام بالمراسيم الدينية • وكذلك ايضا لا يصح اتخاذ الدين مقياسا للحقوق المدنية او السياسية •

« و ـ توضع الاماكن الاسلامية المقدسة تحت اشراف المسلمين •

« ز ـ تنوي الجمعية الصهيونية ارسال لجنة من العلماء الاختصاصيين الى البلاد الفلسطينية بغية الوقوف على ماهية مقدرات البلاد الاقتصادية وتقديم تقرير تبين فيه انجع الطرق لترقيتها • هذا والجمعية الصهيونية توقف هذه اللجنة لخدمة الدولة العربية للكشف عن المقدرات الاقتصادية في بلادها ووضع تقرير تضمنه رايها في انجع الطرق لترقيتها ايضا•وحينئذ تبذل الجمعية الصهيونية قصارى جهدها في امداد الدولة العربية بوسائل استثمار كنوز بلادها الطبيعية واستغلال مقدراتها الاقتصادية •

« ح ـ اتفق الفريقان المتعاقدان بهذا على ان يعملا يدا واحدة في مؤتمر الصلح بروح الاتفاق والولاء المتناهيين في كل ما يتعلق بمحتويات هذه الاتفاقية •

« ط ـ يقدم اي خلاف قد ينشا بين الفريقين المتعاقدين بهذه الاتفاقية لتحكيم الدولة البريطانية •

«وقع بامضائينا في لندن ـ انكلترا ، في الثالث من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩» •

فيصل بن الحسين ـ حايم وايزمن

عند توقيع هذه الاتفاقية اضاف الامير فيصل بخط يده عبارة مآلها بأنه يعلق امر تنفيذ الاتفاقية بشرط ان ينال العرب استقلالهم في جميع الاقطار العربية التي كانت تحت الحكم التركي ، ما عدا فلسطين • وقد تحقق هذا الاستقلال على مر الايام كما هو معروف • اما فيما يتعلق بفلسطين ، فأن الامير عندما عرض مطالب العرب على المجلس الاعلى لمؤتمر الصلح قال :

«انه نظرا لما للبلاد الفلسطينية من اهمية عالمية خاصة ، فاني اترك البحث في أمرها الى جميع الفرقاء ذوي الشان ، واطلب الاستقلال لجميع الاقطار العربية التي وردت في هذه المذكرة مستثنيا فلسطين منها» •

في ذلك الحين حاول بعض المتطرفين العرب الضغط على الامير فيصل بان يتراجع عن موقفه هذا ، ولكنه زاده تأييدا بارساله الرسالة التالية الى الاستاذ فرانكفورتر رئيس وفد يهود امبركا ، وذلك في شهر آذار سنة ١٩١٩ ، وهذه ترجمتها :

«باريس في ١ مارس ـ عزيزي المستر فرانكفورتر ـ «اني ارغب في انتهاز فرصة مقابلتي الاولى لصهيونيي امبركا لاخبركم بما طالما ابلغته للدكتور وايزمن في بلاد العرب وفي اوروبا •

«اننا نشعر بأن العرب واليهود اخوان في العنصرية . ولطالما تألموا معا من مضطهديهم ومن حكومات تفوقهم قوة وبطشا . غير انهم بمناسبة سنوح فرصة سعيدة اصبحوا قادرين على التخطي الخطوات الاولى لتحقيق امانيهم الوطنية متساندين متعاونين .

«اننا معشر العرب ، ولا سيما العظماء والمتنورين منا ، نعطف على الحركة الصهيونية العطف الخاص .

«ان وفدنا قد وقف تماما على المطالب التي قدمتها الجمعية الصهيونية بالامس على مؤتمر الصلح ، ورأيه فيها انها عادلة ومعتدلة . واننا سنبذل كل ما في وسعنا ، بقدر ما يتعلق الامر بنا ، في سبيل تأييد هذه المطالب .

«واننا نقدم تهانئنا القلبية الخالصة الى اليهود بمناسبة عودتهم الى بلادهم .

«لقد كنت ولا ازال تربطني ورؤساء حركتكم ، ولا سيما الدكتور وايزمن ، اوثق العلاقات . فقد كان الدكتور وايزمن مؤيدا كبيرا لمطالبنا ومصالحنا . وارجو ان يبلغ العرب عما قريب موقفا يمكنهم معه مكافأة اليهود خيرا لقاء مساعدتهم .

«اننا نعمل معا لمصلحة الشرق واحيائه من جديد،ومسألتنا ومسألتكم متممة احداهما للاخرى . وكما ان الحركة الصهيونية حركة قومية الا انها غير استعمارية ، كذلك حركتنا فهي قومية وليست استعمارية . وفي سوريا متسع لكلا الشعبين معا . هذا واني اصارحك القول بأني اعتقد ان لا قدرة لاحدى هاتين الحركتين بمفردها على بلوغ ذروة النجاح المنشودة بدون مساعدة وتعضيد زميلتها .

«الا ان اناسا يقلون ادراكا واطلاعا ومسؤولية من زعمائنا وزعمائكم ، لم يقدروا ضرورة التعاون بين العرب والصهيونية ، فحاولوا التذرع بالفروق المحلية التي لا بد ان تظهر في البلاد الفلسطينية حين تجتاز حركتنا مراحلها الاولى ، ولذلك فاني اخشى ان يكون بعضهم قد شوه حقيقة مراميكم وامانيكم في نظر الفلاحين العرب ، كما فعلوا بمرامينا ازاء الفلاحين اليهود وبذا جرت فئات النفعيين هذه لنفسها مما يسمونه (فروقا) فائدة شخصية .

«هذا وبودي الآن ان اعرب لكم عن يقيني بأن هذه الفروق ليست جوهرية،بل فردية واذا كان من الصعب تجنبها لدى ارتباط شعبين ببعضهما ، فانها لن تلبث ان تتلاشى ما دام حسن النية متوفرا بين الفريقين ، وتزول حتما على ضوء العقل الناضج والروية .

«هذا وانني وامتي نتطلع الى ذلك المستقبل الذي نتمكن فيه من مساعدتكم وتتمكنون انتم من مساعدتنا ايضا • وهكذا يتسع المجال للبلاد التي يرتبط بها كلانا للوقوف في مصاف الدول العظيمة في سائر انحاء العالم» •

المخلص لكم «فيصل بن الحسين»

ومن الجدير بالذكر في هذا السبيل ايضا ان جريدة «القبلة» الصادرة في مكة المكرمة، والناطقة باسم الشريف حسين ، قد نشرت هي ايضا في آذار ١٩١٨ مقالا رحبت به بعودة اليهود الى فلسطين كعنصر شقيق بناء •

الاعتداءات العربيـــة

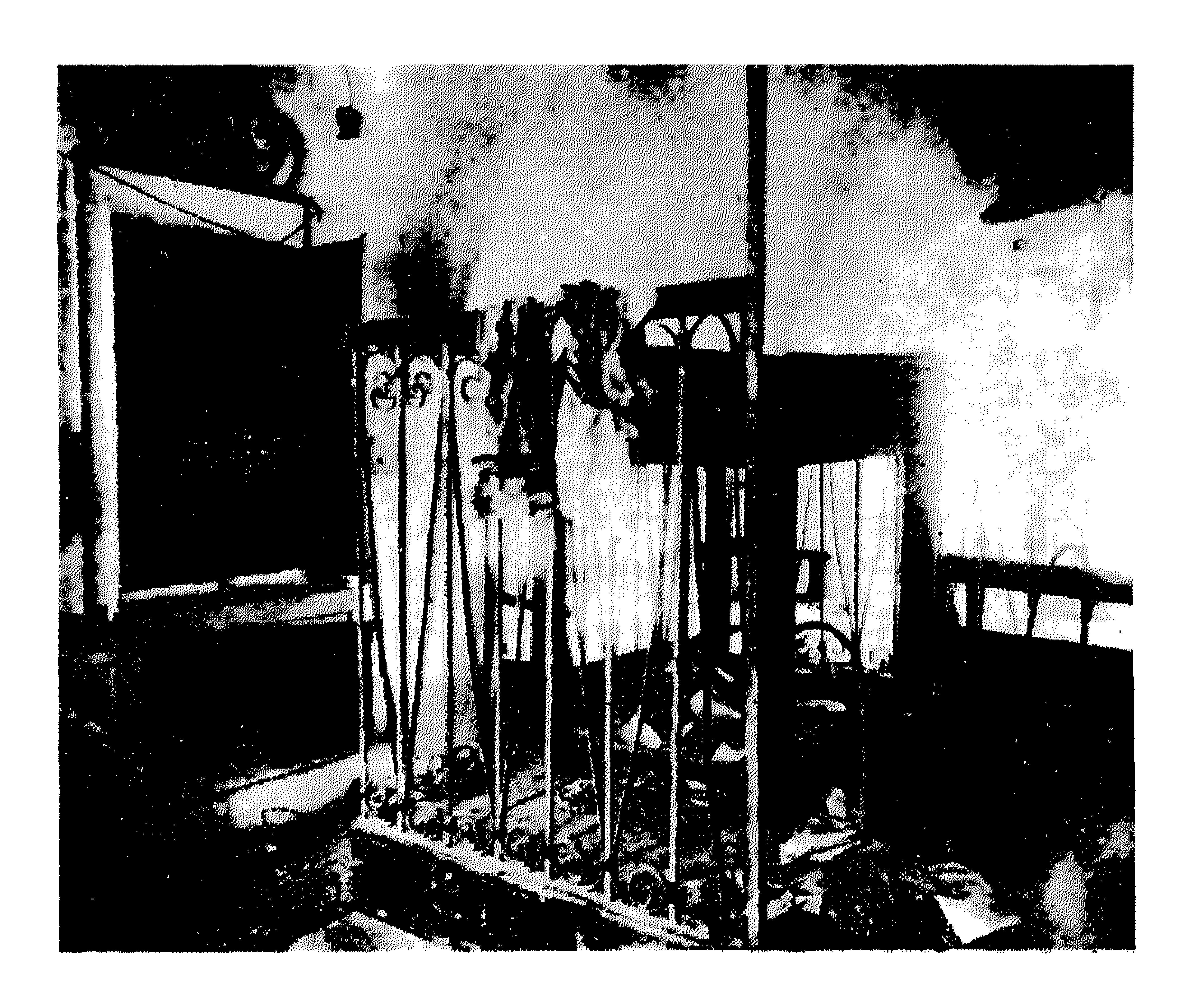
قام القوميون العرب المتطرفون بشن أربع اعتداءات على الســكان اليهود ، ابان حكم الانتداب البريطاني• حدثت هذه الاعتداءات التي عرفت في حينه باسم «الاضطرابات» في سنيِ ١٩٢٠ ، و ١٩٢١ ، و ١٩٢٩ ، و ١٩٣٦ _ ١٩٣٩ • كانت الاعتداءات الثلاث الاولى اشبه بفورة زائلة • وتفصيـــل ذلــك أن اضطرابات عــام ١٩٢٠ حــدثت في أورشــليم وتل حاي (في الجليل الاعلى) ودامت أياما معـــــدودة فقط ، وكـــان المحرك الرئيسي لها رغبة البريطانيين في اثـارة العـرب ضد الوجـود الفرنسي في ســوريا • وكان من نتيجـة هـذه الاعتداءات أن هوجمت بعض القرى المسيحية في الجليل ايضاً • (كان من ضحايا تل حاي الزعيم العمالي يوسف ترومبلدور) • ووجهت اعتداءات عام ١٩٢١ ضد اليهود في يافا وخمس مستوطنات يهودية ودامت ٦ أيام • وفي سنة ١٩٢٩ كان مدى الاعتداءات العربية ٧ أيام ، ولكنها لم تتمــكن من الحـاق الاذى بغير السكان العزل في الاحياء اليهودية في صفد وحبرون (الخليل) ، ولم يرتدع المعتــدون هناك عن ذبح الشـيوخ والنســاء والاطفـال والنهب والسلب • أما اضطرابات عام ١٩٣٦ فقد كانت اشبه بالكفاح القومي المسلح من سابقاتها ودامت ٣ سنوات ، تخللتها فترة من الهدوء اثناء قدوم لجنة التحقيق البريطانية، ثم ما عتمت ان اعترتها انحرافات عديدة، منها توجيه الحسينيين السلاح ضد المعارضــة النشاشيبيــة ، ومنهــا الخصومات الدامية بين رجال القيادات ، واخيرا لجوء المعارضة الى انشاء

«فرق السلام» المضادة للفرق الحسينية . كانت هذه الاضطرابات موجهة ضد البريطانيين لا أقل منها ضد اليهود ، ومدعومة من قبل عناصر نازية المانية وفاشية ايطالية ، وروسية شيوعية . ولكنها لم تنل من اليهود منالاً يذكر .

والسبب في ذلك ان منظمة الدفاع السرية اليهودية «الهغانا» كانت قد بلغت مبلغا كبيراً من الفعالية ، بعد الدروس التي تلقاها اليهود من الاعتداءات السابقة . وهكذا ، اذا كان المعتدون قد تمكنوا في عام ١٩٢٩ من القيام بمجازر دموية في الخليل وصفد ، فانهم لم يفلحوا في الحاق ضرر محسوس بأي حي أو مستوطنة يهودية خلال اضطرابات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . زد على ذلك ان اليهود رغم هذه الاضطرابات قد تمكنوا من انشاء مستوطنات جديدة كثيرة وقد أقيم بعضها عمداً في أماكن نائية ومعزولة ، مثل حنيتا في جبال الجليل الأعلى قرب الحدود اللبنانية ، وطيرات صفي في أقصى جنوب غور بيسان ، وعين غيب على الضفة الشرقية لبحيرة كنيرت (طبريا) . وبدأ كذلك التخطيط للاستيطان في النقب . ولم تكتف القوى الدفاعية بالذود عن المستوطنات وحمايتها، وانما اسهمت اسهاما كبيراً في اقامة المستوطنات الجديدة .

المضايقات البريطانية

اعتادت الحكومة البريطانية بعد كل موجة من الاضطرابات ان تصدر قوانين جديدة تقضي بالحد من تطور المشروع اليهودي ، وترمي الى ارضاء القوميين العرب . وهكذا ، ومنذ نشوب اضطرابات عام ١٩٢٠ في أورشليم والجليل الاعلى شرعت السلطة البريطانية في ملاحقة بوادر منظمة الهغانا باعتبارها غير شرعية ومضايقة المشروع الصهيوني . هكذا اعتقل الكثيرون في حينه، وصدرت بحقهم أحكام بالسجن لسنوات طويلة. وكان منهم زئيف جابوتنسكي ، من مؤسسي الكتائب العبرية ، التي حاربت الى جانب البريطانيين، ولم يطلق سراحهم الا بعد ضغط جماهيري داخلي ، وعالمي . ولكن الاعتقالات ، والمحاكمات ، وأعمال التفتيش عن السلاح عند اليهود لم تنقطع حتى نهاية حكم الإنتداب البريطاني في البلاد.



الكنيس اليهودي في حبرون (الخليل) بعد اضطرابات ١٩٢٩

بلغت المضايقات البريطانية الذروة ، عندما أصدرت هذه «الكتاب الأبيض» عام ١٩٣٩ ، وبموجبه اقتضى تقليص الهجرة اليهودية تقليصاً خطيراً ، وحظر على اليهود شراء الأراضي في معظم مناطق البلاد ، وبدا من وراء هذا كله ميل البريطانيين الى جعل البلاد دولة «مستقلة» ذات أغلبية عربية ٠ أعلن المجتمع اليهودي والحركة الصهيونية أنهما لن يعترفا بالكتاب الأبيض ٠ وبدأ المجتمع اليهودي بالنضال ، ووقفت البلاد على عتبة اضطرابات خطيرة ٠ ولكن ، وفي غضون ذلك ، اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، فتوقف اليهود عن النضال ضد السلطة البريطانية ، واعلنوا عن وقوفهم الى جانب الحلفاء في حربهم ضد المانيا النازية وايطاليا الفاشية ٠ وتطوع الكثيرون في صفوف الجيش البريطاني ليسهموا اسهاماً فعلياً في الحرب ٠ وأخيراً

أقيمت كتيبة يهودية محاربة ، وأوقف العالم كله أمام حقيقة كون اليهود في فلسطين عاملاً عسكرياً لا يُستهان به ، الى جانب كونهم عاملا اقتصادياً هاماً ساهم بالمجهود الحربي لدول الحلفاء مساهمة كبرى ٠

وفي عين الاثناء لجأ زعماء القوميين العرب الى الجانب النازي ودعوا عرب فلسطين الى العصيان ضد البريطانيين ، ولكن بدون جدوى ٠ وفي سنة ١٩٤٤ ، حين أصبح انتصار الحلفاء على النازيين محتملاً نشأت بين اليهود منظمات انفصالية فأعلنت الكفاح ضد الكتاب الابيض البريطاني وضد الحكم البريطاني على البلاد ٠ وهكذا، وقبل أن تضع الحرب أوزارها تجدد النضال ، ثم ازداد حدة ونطاقاً حينما قامت منظمة الهغنا ايضاً بسهمها فيه فضاعفت تنظيم الهجرة «غير المشروعة» الى البلاد ، وهوجمت المعسكرات والمنشآت ونُسفت الجسور ومحطات الرادار ، وعُطلت السفن التي اعادت المهاجرين «غير الشرعيين» ونقلتهم الى قبرص ٠ شددت السلطة البريطانية ، هي الأخرى من رد فعلها فسمحت للقوميين العرب ، حتى المتطرفين منهم ، بالعودة الى البلاد وتنظيم المقاومة العربية فيها ٠ واجرت أعمال تفتيش واعتقالات جماعية ضد اليهود ٠ وفُرض نظام منع التجول ، وتشكلت المحاكم العسكرية وصدرت أحكام الموت ، واعتقل زعماء الوكالة اليهودية ٠

قرار التقسيم

لم يؤثر هذا كله في عزيمة الشعب وهمته ، وأخيرا لم تشأ بريطانيا أن تتحمل مسؤولية فرض ارادتها سواء على اليهود أم على العرب ، ولذا عرضت مشكلة فلسطين على منظمة الأمم المتحدة ٠ وانشأت هذه لجنة تحقيق وارسلتها الى هذه البلاد ، ومثل امامها زعماء اليهود وزعماء العرب ، وعرض عليها كل من الفريقين وجهة نظره ، فكان استنتاجها ان الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق هو تمكين كل من الفريقين من الحصول على استقلاله في قسم من البلاد ، وهكذا أوصت بالتقسيم ٠ ونالت فكرة التقسيم تأييداً تاماً من روسيا الشيوعية ومن الولايات المتحدة الاميركية، وهكذا تمهد السبيل لقرار التقسيم في الجمعية العامة للامم المتحدة ٠ وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ أقرت الجمعية



بعض الزعماء اليهود الذين اعتقلتهم حكومة الانتداب البريطاني وزجت بهم في معتقل اللطرون بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩٤٦ • وهم من اليسار : دافيد ريميز – سكرتير نقابة العمال «الهستدروت» • الدكتور دوب يوسف وموشيه شاريت – من رؤساء الوكالة اليهودية • والسيد دافيد هكوهين – من زعماء العمال ومدير شركة «سوليل بونيه» لاعمال البناء •

العامة للامم المتحدة فكرة التقسيم واقامة دولة يهودية في جزء من البلاد وأخرى عربية في الجزء الآخر •

لم يكن مولد هذا القرار عفوياً ، وانما كان حصيلة حق تاريخي قديم جديد ، وجزاء لصمود خلال ٦٠ جيلاً من الجلاء والمذلة والاضطهاد، وكفارة عن المجازر عبر التاريخ ، وثمرة لجهود قام بها جيلان طلائعيان بانيان محاربان من اليهود، قهرا القفر والملاريا وتعسف السلطة التركية، كما كان ثمرة جهود أولئك الذين ثبتوا أمام المعارضة العربية ، واحبطوا الاجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطة البريطانية • هؤلاء كلهم مهدوا السبيل أمام اتخاذ هذا القرار •

وفوق ذلك كله فقد مهد السبيل أمام هذا القرار فظائع النازيين التي لا يعرف لها التاريخ مثيلا في الوحشية ، ووجود مئات الآلاف من اللاجئين اليهود في مخيمات أوروبا وجزيرة قبرص ، ووجود مئات الآلاف من اليهود المعرضين للاضطهاد في البلدان العربية ، ووجود ٦٥٠ الف يهودي راسخين في المدن والقرى الاسرائيلية ٠ هذه العوامل كلها - التاريخية منها والانسانية والمأساتية والواقعية - هي التي حركت وجدان العالم المتمثل في هيئة الامم المتحدة - بما فيه أميركا وروسيا - وحدت به الى اتخاذ قرار التقسيم ٠ وكان حري بهذه العوامل ايضاً ان تقنع الزعامات العربية بأفضلية قبول هذا القرار ، ولكن هذه الزعامات رفضته رفضاً باتاً٠ وللحال تشكلت جماعات المقاومة العربية الفلسطينية المحلية، ثم جماعات المقاتلين المتطوعين من البلدان العربية المجاورة ، وباشرت بشن الغارات على اليهود في المدن والقرى ٠ ثم ان الدول العربية انتظرت الى أن حان يوم انسحاب بريطانيا من البلاد نهائيا (١٥/٥/٤٨) فأمرت جيوشها النظامية باحتلال المناطق اليهودية من فلسطين٠ وهكذا اضطرت منظمة الهغانا الى مقاتلة المحاربين الفلسطينيين وقوات المتطوعين العرب ، ثم جيوش مصر والاردن وسوريا ولبنان والى جانبها جيوش العراق والسعودية واليمن، فكتب رب التاريخ لها الانتصار٠ وقد تم ذلك بفضل الايمان الراسخ بحق الشعب اليهودي الخالد في انشاء دولة يستقل بها في بقعة معينة من وجه المعمورة ، بعد أن كان أقدم ضحية للاستعمار ، وأقدم ضحية للاضطهاد ، وعانى شتى عذابات الجلاء والتشريد وانواع الاهانات والتقتيل خلال ١٨٧٥ سنة ٠

اجمال

في فلسطين باع كبار أصحاب الاراضي العرب جانبا من اراضيهم لليهود العائدين ، واجر كبار أصحاب العقارات عقاراتهم لهم أو باعوها ، وتعامل معهم كبار التجار وصغارهم ، واشتغل آلاف العمال العرب في

الاحياء الزراعي والعمراني والصناعي اليهودي ، كما استفاد الالاف من أبناء الطبقات الشعبية من فلاحين وصناع من شتى النشاطات الاقتصادية التي بعثتها العودة اليهودية ، مندفعين الى ذلك بعوامل التسامح وعوامل الفائدة • ولما قامت زعامة عربية محليـة بتنظيم تدريجـي للمعـارضة القومية كانت مكانة العائدين الاقتصادية والسياسية والدفاعية في البلاد والخارج أقوى من أن تتراجع ، أو تسمح لنفسها بالتراجع ، سيما وان حالة الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية والمركزية والبلدان العربية مازالت تتردى وتستدعي بالحاح حلا جذريا هو العودة الى الوطن القديم • وقد اعترفت دول العالم ، شرقيها وغربيها ، بضرورة هذا الحل ، واقرت شرعيته ، وتم تحقيق امنية الاجيال • وكان خليق بالعرب ان يصغوا لنداء التاريخ والانسانية فيتقبلوه بنفس الروح التي اظهرها زعيم الثورة العربية والتي لم تنعدم بين مفكريهم وقادتهم المعتدلين •

الفصل الثامن عشر

لقاء مع يهود الشرق الاوسط

العهد العثماني

انقطعت الصلة بين مصير يهود أوروبا ومصير يهود الشرق الاوسط منذ ان طرد اليهود من اسبانيا في القرن الخامس عشر • وكان العثمانيون قد بدأوا فتوحاتهم لهذا الشرق في نفس القرن وامتدت فتوحاتهم الى أقصاه ، ودام حكمهم فيه حتى أوائل القرن العشرين ميلادي ، فكان عهدهم عهد طمأنينة نسبية للطوائف غير الاسلامية ، وكان التسامح الديني والسياسي من ميزات هذا الحكم ، ولكن الحرية والمساواة بمفهومها العصري كانتا مفقودتين فيه ، وما انفك المجتمع الاسلامي على العموم يرى في غير المسلمين بشرا من الدرجة الثانية من حيث الكرامة الشخصية والحقوق الاجتماعية • ولكن الطمأنينة النسبية مكنت الطوائف غير الاسلامية من العيش عيشة مقبولة • وتدل السجلات العثمانية القديمة على أن سلاطين آل عثمان كانوا كلما احتل قوادهم بلدا أوربيا يأمرون هؤلاء القواد بالاتصال بكبار رجال الصناعة والمال اليهود واقناعهم بالانتقال الى عاصمة الامبراطورية العثمانية أو الى سواها من أمهات المدن ، ليعززوا اقتصادياتها بنشاطهم ، وهكذا واصل اليهود القيام بدورهم الهام في التجارة والمال، وقد رحب الحكم العثماني بيهود الاندلس ايضا لما طردهم الاسبان ، وفتح أمامهم موانئه على ضفاف البحر الابيض المتوسط باعتبارهم عنصرا اقتصاديا نافعا •

وقد تفوق هؤلاء فيحضارتهم ونشاطهم العام على سكان هذه المناطق، حين كانت أحوال اليهود المحليين فيها قد تردت بتردي أحوال البلاد عامة • ولذا ، وبمرور الزمن ، اضفى يهود اسبانيا «السفاراديم» طابعهم الخاص على اليهود المحليين الى درجة الامتزاج التام • هكذا ، أصبح «السفارديم» — الاسبانيون — اكبر الطوائف اليهودية

في منطقة البحر المتوسط ٠ خلال فترة معينة آبدت هذه الطوائف نشاطا عاما وثقافيا ، وخاصة منها جاليات القاهرة ، وأورشليم ، وصفد ، واسطانبول ، وسلونيكي ٠ ففي صفد القريبة من ضريح الرابي شمعون بار يوحاي (في ميرون) ، تركز أصحاب طريقة «القبالة» الذين تطلعوا الى قرب مقدم المشيح ٠ هنا عاش ، كذلك الرابي يوسف قارو ، مؤلف كتاب «المائدة المجهزة» ٠ وفي القسطنطينية التي جعلها الاتراك عاصمة ملكهم كان أصحاب تجارة وصناعة كثيرون ، وكذلك صيارفة حظوا بمكانة مرموقة لدى السلطة الحاكمة ٠ هكذا ، وعلى سبيل المثال ، أصبح يوسف ناسي ، متنصر هاجر من البرتغال ثم عاد الى اليهودية ، أميرا على جزيرة نقسوس ٠ (انظر صفحة ١٢٤) ٠

لم تستمر فترة التيقظ هذه زمنا طويلا ، فقد أثر ركود الاوضاع الاقتصادية والسياسية في الامبراطورية العثمانية على اليهود السفاراديم أيضا ٠ وهنا تجدر الاشارة الى ظاهرة فريدة في بابها فقد ادى تجمع اليهود السفاراديم في مدينة سالونيكي على مر الاجيال الى جعلها مدينة يهودية تقريبا ٠ وحتى الغزو النازي لبلاد اليونان ابان الحرب العالمية الثانية كانت اعمال التجارة والصناعة في سلنيك متركزة في ايدي السفاراديم ٠ وكذلك اعمال الميناء على اختلافها من شحن وتفريغ وتحميل، كان يقوم بها عمال يهود ، الى درجة كان يغلق فيها الميناء يوم السبت ٠ كانت سالونيكي كذلك مركزا لنشر الكتب والصحافة بلغة اللادينو ، أو باللغة الاسبنيولية ــ وهي اسبانية قديمة مختلطة بكلمات عبرية وشرقية ، ظل اليهود من اصل اسباني يستخدمونها في حياتهم اليومية زمنا طويلا ، (أباد النازيون جالية سالونيكي ، ولكن اليهود السلونيكيين الذين قدموا الى البلاد الاسرائيلية قبل وقوع الجريمة النازية النكراء ، كانوا من واضعي حجر الاساس للاعمال المينائية العبرية في اسرائيل) ٠

اهتمام يهود أوروبا

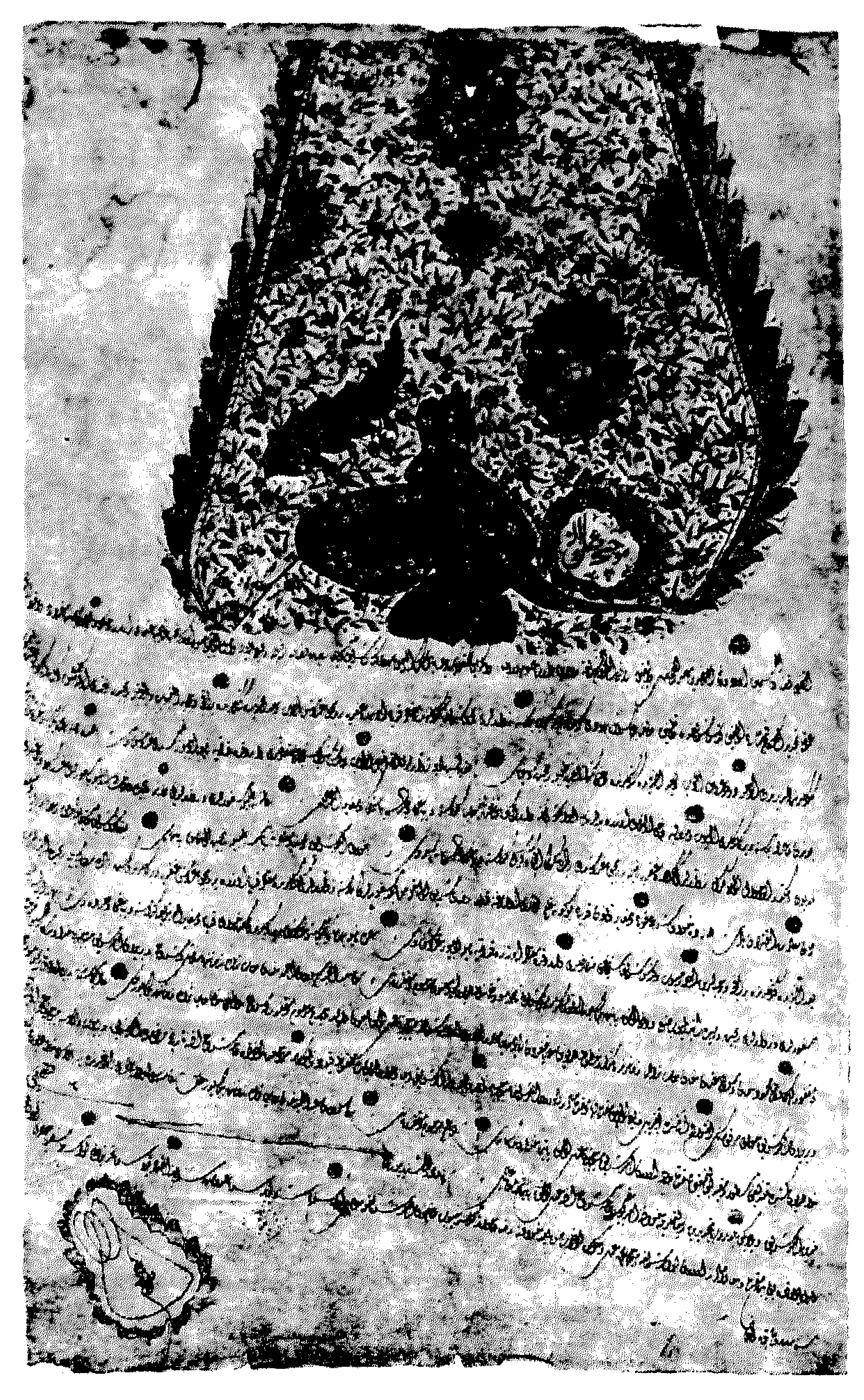
وحين كان الركود من نصيب ربوع الشرق الاوسط وشمال افريقيا أيام العهد العثماني ، حصلت في أوروبا نهضات متعددة جعلتها وجعلت يهودها يقطعون شوطا بعيدا في مضمار التقدم كما سبق وذكرنا٠ واقترنت

هذه النهضات بالزحف الاوروبي نحو العالم الجديد وافريقيا وآسيا ، ومعه دبت ببطء شديد تلك النهضات الى هاتين القارتين ، والى روسيا القيصرية وتركيا العثمانية • وكانت غزوة نابليون لمصر (١٧٩٨) وافتتاح قناة السويس (١٨٦٩) بادرتين رئيسيتين في تجدد الاتصال المتين بين أوروبا والعالم الشرق أوسطي ، أما بداية الاتصال المتين بين يهود أوروبا ويهود الشرق الاوسط فقد اقترنت بفرية الدم التي اثارها بعض الرهبان الكاثوليك ضد الطائفة اليهودية في دمشق (١٨٤٠) • اثارت هذه الفرية في أوروبا الغربية موجة من اللاسامية من جهة وموجة من الاحتجاج من جهة أخرى ، وهب يهود انكلترا وفي مقدمتهم السير موشي منتفيوري ، ويهود فرنسا وفي مقدمتهم أدولف كرمية ، للدفاع عن الطائفة اليهودية وكبار حاخاميها ورجالاتها الذين زجوا في السجون • من هنا نشأ اهتمام يهود أوروبا بيهود العالم الاسلامي وكان من نتائجه ان أنشئت احياء يهودية جديدة في أورشليم ويافا وتأسست أول مدرسة زراعية بالقرب من يافا هي مدرسة مقفي يسرائيل • ثم نشأت تلك الشبكة الواسعة من المدارس اليهودية على النمط الاوروبي — مدارس جمعية «كل اسرائيل اخوان» المعروفة باسمها الفرنسي «اليانس» ، وقد شملت مدارسها أمهات المدن في الامبراطورية العثمانية وتعدتها الى مراكش في الغرب والى بلاد فارس في الشرق •

في القرن التاسع عشر بدأ الحكم العثماني يتطور ببطء كبير بتأثير النهضة الاوروبية والاحتكاك مع الغرب • ومن جملة الاصلاحات التي اجريت فيه نظام الملة ، أي اعتراف مجدد وموسع من قبل الحكم العثماني بحق الطوائف اليهودية (والمسيحية) بالحكم الذاتي الداخلي ، وهكذا نشأت هيئات المجلس الجسماني والمجلس الروحاني والحاخامباشية في امهات المدن في نواحي الامبراطورية العثمانية •

صورة من الاذلال على نمط «شروط عمر»

في طرفي هذه الامبراطورية في بلاد المغرب واليمن ظل اليهود معرضين للمهانة والاذلال على مر الايام • وقد جاء وصف حالة اليهود المرزية فيها في مستندات تاريخية كثيرة منها ما كتبه الكاتب الانكليزي ل• اديسون في كتابه الذي صدر في لندن سنة ١٦٧٦ عن حالة يهود المغرب ، قال :



فرمان سلطاني (اصدره السلطان سليم الثالث) من سنة ١٦٩١ بخصوص تحديد الضرائب المترتبة على الطائفة اليهودية في أورشليم ـ القدس



بعض يهود اليمن فور قدومهم الى اسرائيل

ان حالتهم (ويعني اليهود) تحت حكم الاسلام لا تتعدى كونها شكلا ملطفا من الاسترقاق . فلا يكفي انهم يدفعون ضريبة خاصة (ويعني الجزية) الا انهم معرضون للطرد في حال نشوب أي خلاف كان . وحين انهم ظاهريا آمنين على حياتهم ، فان المسلمين يضطهدونهم ، وهم لا يجسرون ان يحركوا ساكنا للذود عن انفسهم ، أو ينبسوا ببنت شفة دفاعا عن حقوقهم ، بل يتقبلون بملىء الاستسلام كافة الاعتداءات والاهانات التي توجه اليهم يوميا ... ومن الظواهر المألوفة ان يحتشد أولاد المسلمين ويكيلون الضرب لاولاد اليهود – كوسيلة للهو – وأولاد اليهود ، حتى اذا كانوا يفوقونهم عددا وسنا ، لا يجسرون على ابداء أية مقاومة أو دفاع ...

ان هذا الوصف يبين لنا حالة اليهود ليس في بلاد المغرب فقط ، بل في كل ربع من ربوع الشرق الاسلامي ، كلما ساد التعصب ، واشتد

الحسد ، وتحكم الظلم ٠ ولم تتحسن الحال في بلاد المغرب على مر الايام٠ حتى في أوائل القرن العشرين وصف أحد الكتاب الانكليز ، وقد قضى في هذه البلاد عدة سنوات ، حالة اليهود هناك بانها أشبه بحالة العبيد المهانين العديمي حق الدفاع ، فقال انهم اشبه بالمعدن الذي يجتذب قصف الرعود والبروق ، فهم أول من يتعرض لشتى ضروب العدوان اذا ما قام حاكم جديد ، عديم الضمير ٠٠ انه يختلق الحجج لكي يبتز «الهدايا» من هؤلاء المساكين٠٠٠ ويشبع شهواته بكيل التهم على يهود اغنياء لكي يفرض عليهم غرامات كبيرة ، او يحرض عليهم بعض العوام من المسلمين ٠٠٠ (فانظر ما اشبه هذه التصرفات بتصرفات السلطات العراقية والمصرية والسورية نحو اليهود بعد نشوء دولة اسرائيل ٠) والحق جدير بأن يقال ان حالة اليهود في بلاد المغرب لم تأخذ في التحسن الا بعد أن دخلت هذه البلاد تحت الحماية الفرنسية سنة ١٩١٢ ٠



كنيس يهودي في بغداد

في العراق تعرض اليهود كباقي السكان، لمتاعب الحروب ومآسيها٠ ففي ابان الحكم العثماني حاول الفرس غير مرة فرض سلطانهم على العراق، ولما كان الحكم الفارسي الشيعي اشد وطأة على السكان كان السكان السنة والسكان اليهود يناصرون العثمانيين ٠ هكذا كانت الحال خلال

القرنين ١٦ و ١٧ م. أما في القرون الاخيرة فقد تعرض يهود العراق كباقي السكان لغزوات الاوبئة كالجدري والطاعون والهيضة التي انتقلت اليهم بالعدوى من بلاد الهند والشرق الاقصى مع اتساع التعامل التجاري القاري ٠

ولكن يهود العراق أظهروا من الحيوية والنشاط الاقتصادي ما جعلهم عاملا تجاريا هاما ليس في العراق فقط بل وفي اسيا ايضا ٠ ذلك انهم منذ بداية القرن التاسع عشر اخذوا يهاجرون الى أمهات المدن في الهند والشرق الاقصى ، كبومباي وكلكتا ورنكون وسنغافورة وهونكونغ وشنغهاي ، وانشأوا هناك جاليات نشيطة ، نمت العلاقات التجارية مع بغداد وأوروبا ، وعملت على انشاء المصانع والبنوك ، واشتهرت فيها عائلة دافيد ساسون ، حتى سميت روتشيلد الشرق ، وقد انتقل ابناؤها الى لندن فكان منهم الشاعر والوزير والمؤرخ والبحاثة ٠ وفي مكتبتهم الواسعة كنوز من المخطوطات والكتب النفيسة القديمة الحاوية على معلومات قيمة عن تاريخ يهود الشرق ٠ كذلك اشتهرت عائلة بحر وعائلة كدوري٠ وقد تميز الكثيرون منهم بأعمال الخير والاحسان ، فبنوا المستشفيات والمدارس والكنس في مهاجرهم ، وفي العراق ، وأورشليم ، ومن جملة ذلك مدرسة كدوري الزراعية في طول كرم ، وشقيقتها في مرج يزرعيل٠

ومن الجدير بالذكر ان يهود العراق التقوا في مهاجرهم الجديدة بطوائف يهودية قديمة ذات بشرة محلية ، كطائفة يهود كوشين في جنوب الهند، وطائفة «بني اسرائيل» في بومباي وكراجي٠ كذلك التقوا بمهاجرين من يهود اليمن وسوريا وتركيا ٠

بقي ان نلقي نظرة خاطفة على يهود الشرق خارج النطاق العثماني٠ كانت حالة اليهود في بلاد فارس لا تختلف عن حالتهم في اليمن وبلاد المغرب ٠ وقد تعرض اليهود هناك للاضطهاد الديني غير مرة ٠ ومن احداث هذا الاضطهاد المعروفة حادث المشهد حيث أرغم جميع اليهود فيها على

اعتناق الاسلام الشيعي سنة ١٨٣٨ • وفي القفقاز وبخارى وافغانستان كانت حالة اليهود أحسن منها في ايران ، ولكن هذا لم يغير من تعلقهم بالديار المقدسة ، وقد اندفع الكثيرين منهم الى العودة اليها فأنشأوا في أورشليم وخارجها احياء خاصة بهم • كما فعل ذلك كافة اليهود في العالم الاسلامي خلال القرن التاسع عشر •

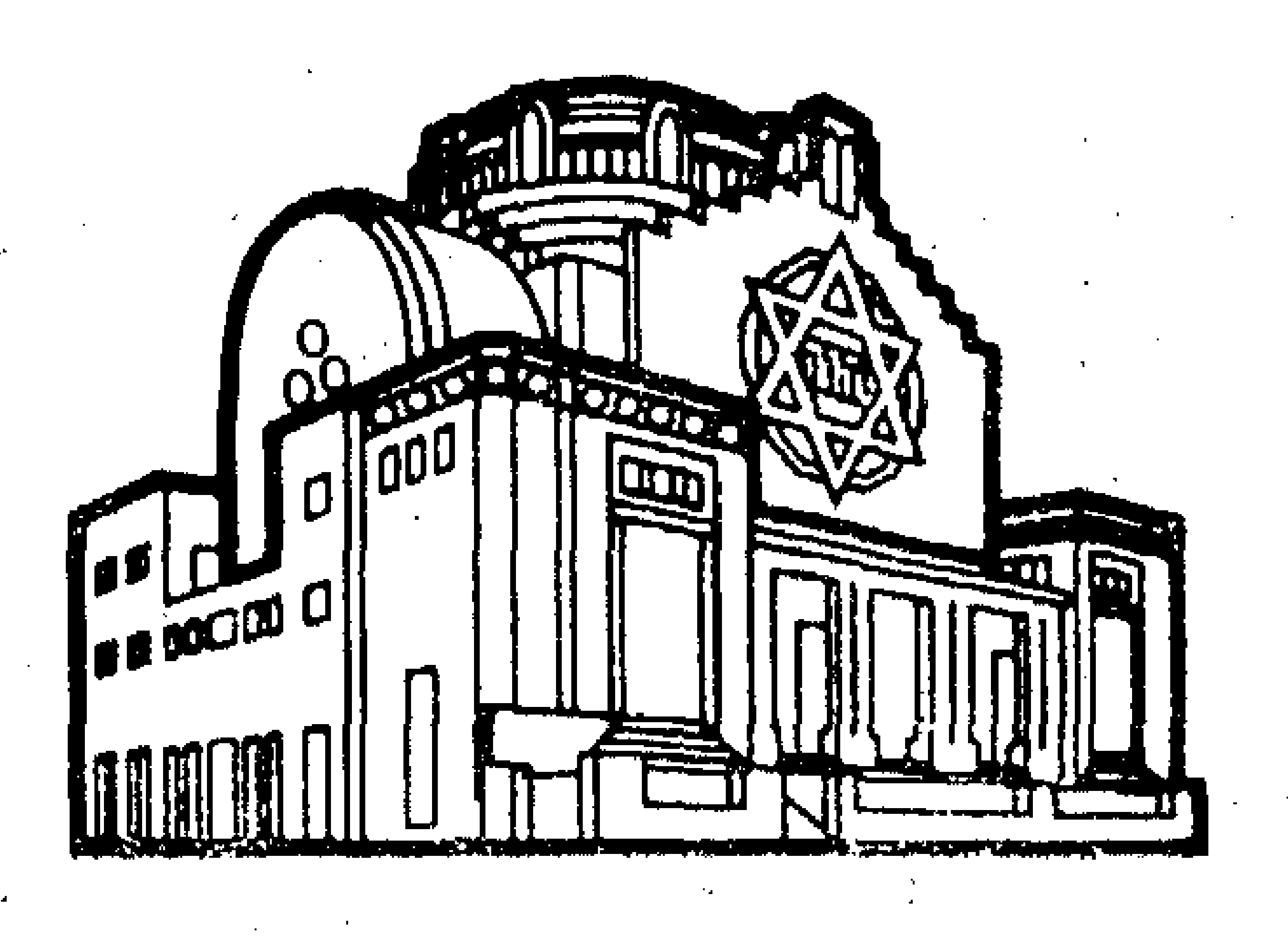
عهد الانتدابات الاوروبية

ولما انحلت الامبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الاولى (١٩١٨) وانتقل الحكم في الهـلال الخصيب الى انكلترا وفرنسا ، كان اليهود بفضل مدارس الاليانس (والمسيحيون بفضل مدارس المبشرين) وبفضل الاتصال التجاري الوثيق مع أوروبا ، من أول المساهمين في انشاء أجهزة ادارية وخدمات حكومية عصرية • ففي العـراق مثـلا كان كبار الاداريين والتقنيين في السكك الحديدية والبرق والبريد من اليهود • وكذلك الامر في الاجهزة المالية والتجارية • وهكذا اسدوا خدمات جليلة لبلادهم ، كما ان بلادهم حذت حذو الغرب في وضع دساتير الحكم العصرية القائمة على الاعتراف بالمساواة لكافة المواطنين •

غير ان شعور الاستعلاء على اليهود والاقليات عامة لم يتغير جذريا ، كذلك ان التطلع اليهودي الى العودة الى صهيون على مر الاحقاب لم يمحى من قلوب اليهود ، بل انه تجاوب مع البعث القومي الذي تمثل في الحركة الصهيونية ، وقد وصلت اليه بشائرها الاولى قبل الحرب العالمية الاولى ، كما وصلت بشائر وعد بلفور ، وانباء الاستيطان ، فأخذ جانب من ابناء هذه الجاليات يستجيب لداعي العودة كما فعل ذلك آباؤه واجداده من قبل ، وانضم الى بناة الوطن القومي من اخوانه الاوروبيين •

ومما زاد الامور تعقيدا ان أبناء الاكثرية العربية ، بعد أن نهلوا هم ايضا من ثقافة الغرب، أخذوا يتطلعون الى نفس المناصب التي احتلها اليهود في الادارة والخدمات العامة والاقتصاد والمهن الحرة • ثم ان هذه الاكثرية كلما ازداد تعصبها لقوميتها العربية المجددة تخلت عن التسامح القومي

والثقافي ، وجعلت هدفها تعريب الاقليات ، ومحق معالمها الخاصة ٠ وزاد في تحرج أوضاع اليهـود في هذه البـلاد انتشار النفـوذ الفـاشي والنازي فيها ، واقترانه بالدعاية ضد اليهود ، الامر الذي بلغ في بغداد الى درجة حدوث مجزرة في الاحياء اليهودية في شهر ايار ١٩٤١ ٠ وكان ذلك اثر فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وأعوانه الموالين للنازيين ٠ ولا ننسى ايضا اشتداد التوتر بين العرب واليهود في فلسطين نفسها ، وما كان له من اصداء في العواصم العربية ٠



كنيس يهودي في تونس

نعم ، ان اصداء هذا التوتر لم تنتشر في شمال افريقيا ، الا ان وضع اليهود في تلك البلاد اتخذ لونا خاصا ٠ ففي تونس والجزائر حيث انتشر الاستيطان الفرنسي بصورة محسوسة تقلد اليهود الثقافة الفرنسية أسوة بالطبقات التونسية والجزائرية المتحضرة في المدن ٠ ولكن منذ ان انتشرت الحركة القومية في هاذين البلدين وجد اليهود انفسهم في وضع خاص ٠ فقد نظر اليهم القوميون نظرتهم الى المستوطنين الفرنسيين ، ونظر اليهم المستوطنون الفرنسيون نظرتهم الى المحليين ٠

ولما وقعت هذه البلاد ابان الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة النازيين نظر اليهم هؤلاء نظرة ثالثة ـ كونهم يهودا ـ فزجوا الكثيرين منهم في المعتقلات ، وكادوا يسوقونهم الى الفناء كاخوانهم في أوربا ٠

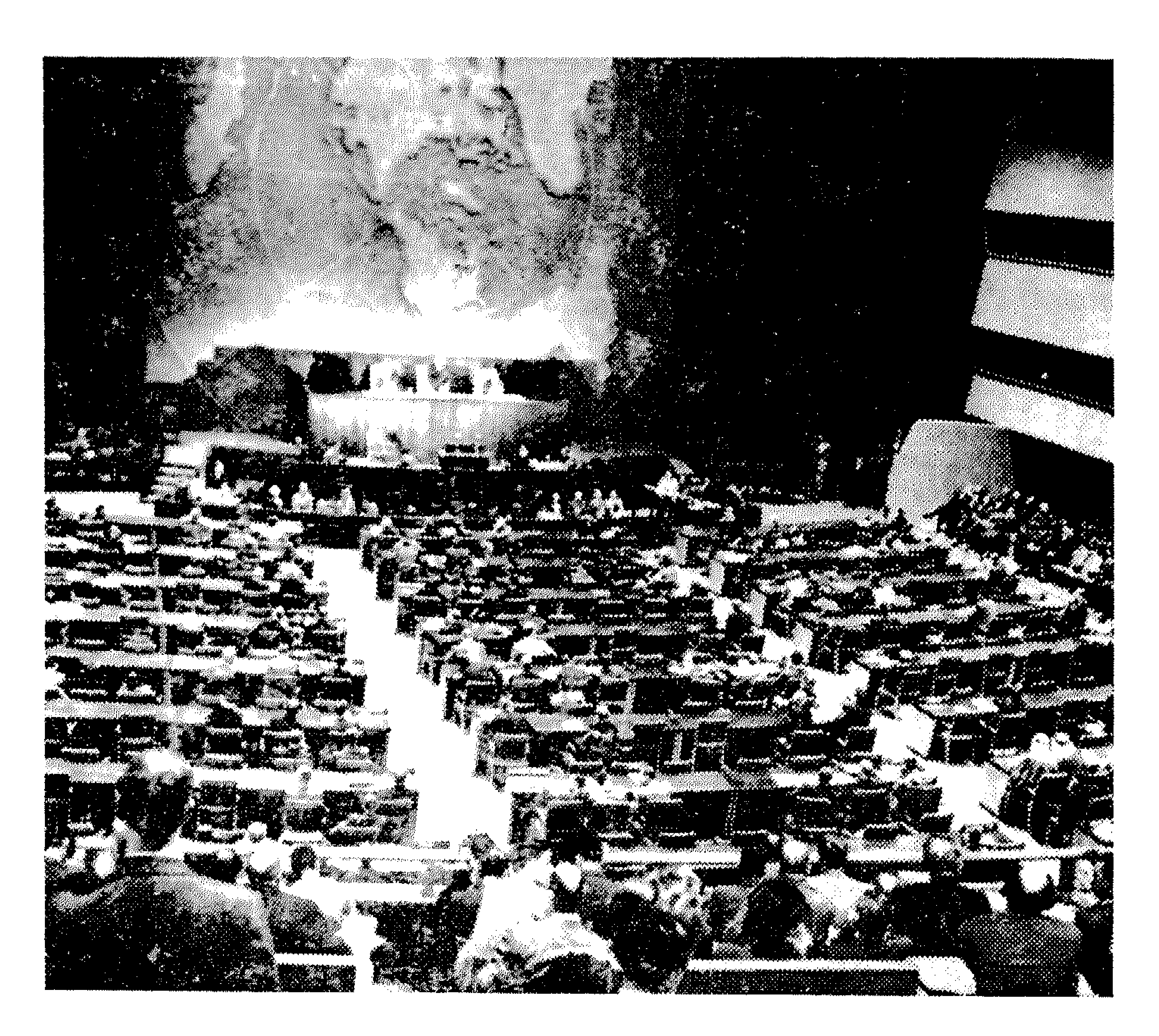


بعض يهود المغرب الاقصى لدى نزولهم من الباخرة التي اقلتهم الى حيفا ٠

كان من تأثير كافة العوامل التي ذكرناها ان تردت حالة اليهود سكان الشرق الاوسط وشمال افريقيا مع سكانه العرب ، وتضاعفت الحال ترديا اثر نشوء دولة اسرائيل وانتصارهـا على جيوش الـدول العربية سنة ١٩٤٨ ٠ وهذا كله دفع يهود هذه الدول الى هبتهم هبة رجل واحد لمغادرة أوطانهم الشرق أوسطية ، لاجل التجمع ثانية في وطنهم الشرق أوسطي القديم الواحد ، أرض اسرائيل ، تاركين وراءهم املاكهم وأموالهم ــ وقد صودرت في غالب الاحوال ٠ وهكذا ، ومن غير تصميم مسبق ، حصل ما يصح اعتباره تبادل سكان ضمن حدود منطقة واحدة هي منطقة الشرق الاوسط ٠

اجمـال

فترة طويلة قضاها يهود الشرق في عزلة عن يهود الغرب ، مستكينين للاوضاع المتقلبة بين يسر وعسر ، متضرعين كل يوم اليه تعالى ان يحقق لهم أمل العودة الى الديار المقدسة • ولم تنقطع عودتهم اليها ، ارهاطا أم أفرادا ، طيلة الاجيال • وفي القرن التاسع عشر تجددت صلات الغرب بالشرق ، وصلات اليهود في هذين العالمين ايضا • ولما استفاق الشرق كان يهود الشرق في مقدمة ركب التطور ، ولـكن الصراعات والتيـارات الـكثيرة التي اجتاحت بـلاد الشرق ادت في آخر الامر الى انضمام يهود الشرق الى اخوانهم يهود الغرب في العودة الى الوطن اليهودي القديم وتجديد الكيان المستقل فيه •



الجمعية العامة للامم المتحدة اثناء التصويت على قرار التقسيم •

الفصل التاسع عشر

دولة اسرائيل

حرب ١٩٤٧ – ١٩٤٨

في الجمعية العامة للامم المتحدة ، وفي ٢٩ تشرين الثاني من عـام ١٩٤٧ ، صوتت ٣٣ دولة من دول العالم (ضد ١٣ معارضة و ١٠ ممتنعة) من أجل تقسيم البلاد المقدسة الى دولة يهودية وأخرى عربية • وعلى الاثر

أعلنت حكومة الانتداب البريطانية عن قرارها بمغادرة البلاد في ١٥ ايار ١٩٤٨ ٠ وكان بالامكان استغلال هذه الفترة لانشاء جهازين حكوميين يتسلم كل منهما شؤون الادارة والامن في كل من القسمين ٠ ولكن العرب عارضوا التقسيم وبادروا الى الاعمال العدوانية ضد اليهود لاحباطه ، وذلك بواسطة عصابات وجيوش من المتطوعين الفلسطينيين وغير الفلسطينيين، الذين هاجموا الاحياء والمدن والقرى اليهودية اينما استطاعوا ٠ أما الوكالة اليهودية مؤيدة من كافة الاحزاب وابناء المجتمع اليهودي فقد انتهزت هذه الفترة ، ليس لدرء غارات العرب فقط بل ولتأليف حكومة مؤقتة وبرلمان مؤقت وتحضير جهاز اداري وبوليسي وعسكري لانشاء الدولة وادارتها وحمايتها ٠ وهكذا وفي ١٤ ايار ١٩٤٨ تم اعلان قيام دولة اسرائيل رسميا ٠

وفي فجر اليوم الثاني باشرت الطائرات المصرية بقصف مدينة تل ابيب ، معلنة بذلك زحف الجيوش العربية النظامية الى داخل حدود الانتداب البريطاني بغية احتلال المناطق العربية ثم اليهودية والحيال دون نشوء الدولة اليهودية ٠

دامت حرب ١٩٤٨ النظامية من ١٥ ايار الى آخر السنة ، وتخللتها فترات لوقف النار بقرار من الامم المتحدة ٠ وكان السكان العرب قد نزحوا قبل ١٥ ايار عن القدس الجديدة والقرى الواقعة غربيها ، وعن حيفا ويافا وطبريا وصفد ، ثم نزحوا خلال الحرب عن اللد والرملة وبئر السبع وقرى الكرمل والساحل والسهل الجنوبي ما عدا قطاع غزة ٠

وأخيرا أعلنت الهدنة للمرة الثالثة وتكللت مساعي الوسيط الذي عينته الامم المتحدة ـ الدكتور رالف بانش ـ بالنجاح وتم التوقيع على اتفاقات الهدنة بين اسرائيل ومصر (٢٤ شباط ١٩٤٩) ولبنان (٢٣ آذار) وشرق الاردن (٣ نيسان) وسوريا (٢٠ تموز) ، على أمل أن تكون خطوة أولى لاتفاقات سلام دائم في المنطقة ٠

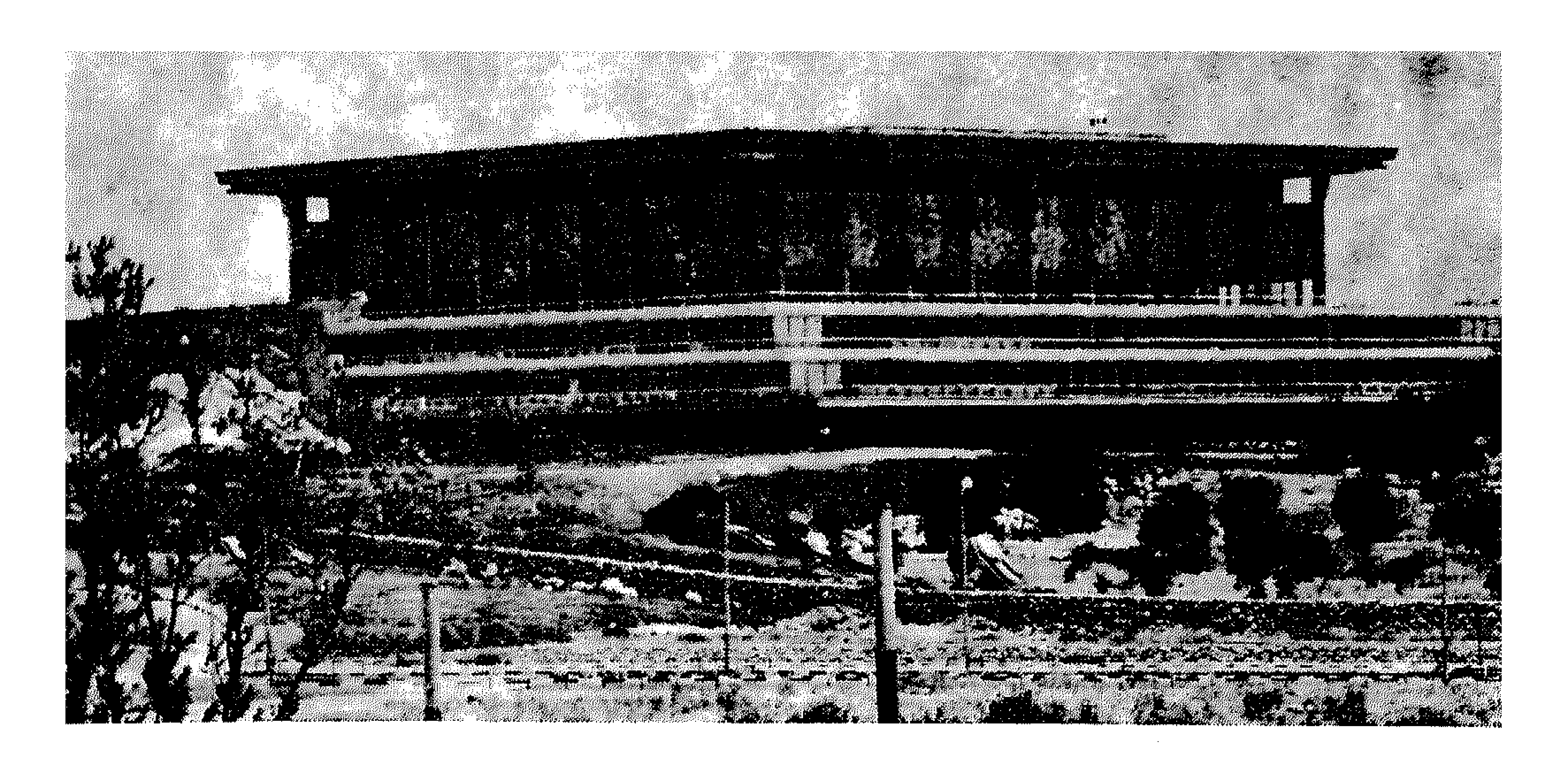


جلسة احتفالية لتوقيع اتفاق الهدنة بين الوفد الاسرائيلي والوفد الاردني في جزيرة رودوس بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٤٩ • يتوسط الوسيط السيد رالف بانش منصة الرئاسة ، ويرى الوفد الاردني في الطرف الايمن من الصورة ويقابله اعضاء الوفد الاسرائيلي •

بنــاء ودفــاع

تفرغت اسرائيل بعد نشوئها الى مواصلة البناء الذي بدأته من قبل ـ بناء كيانها القومـي والاجتماعـي والاقتصادي والسياسي الداخلـي واحتلال المكان اللائق بها بين دول العالم في الخارج • الا انها اضطرت الى جانب هاتين المهمتين الاساسيتين الى الصمود أمام المحاولات العسكرية الغير المنقطعة لتخريبها وابادتها من قبل جيرانها العرب الذين اعلنوا عن عدم تسليمهم بقيامها أبدا وعن عزمهم العنيد على محقها مهما كلفهم الامر •

نجحت اسرائيل في مهامها الثلاث نجاحا مرقوما • فقد تمكنت من استيعاب اليهود العائدين اليها من بقايا معسكرات الابادة النازية ، ومن المعسكرات التي اقامها البريطانيون في قبرص ، واليهود الذين اضطروا الى النجاة بأرواحهم من العداوة في سوريا والعراق واليمن ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، واليهود الذين سمحت لهم الحكومات بالنزوح من البلاد الشيوعية في أوروبا الشرقية• أما يهود العالم الغربي فان هجرة



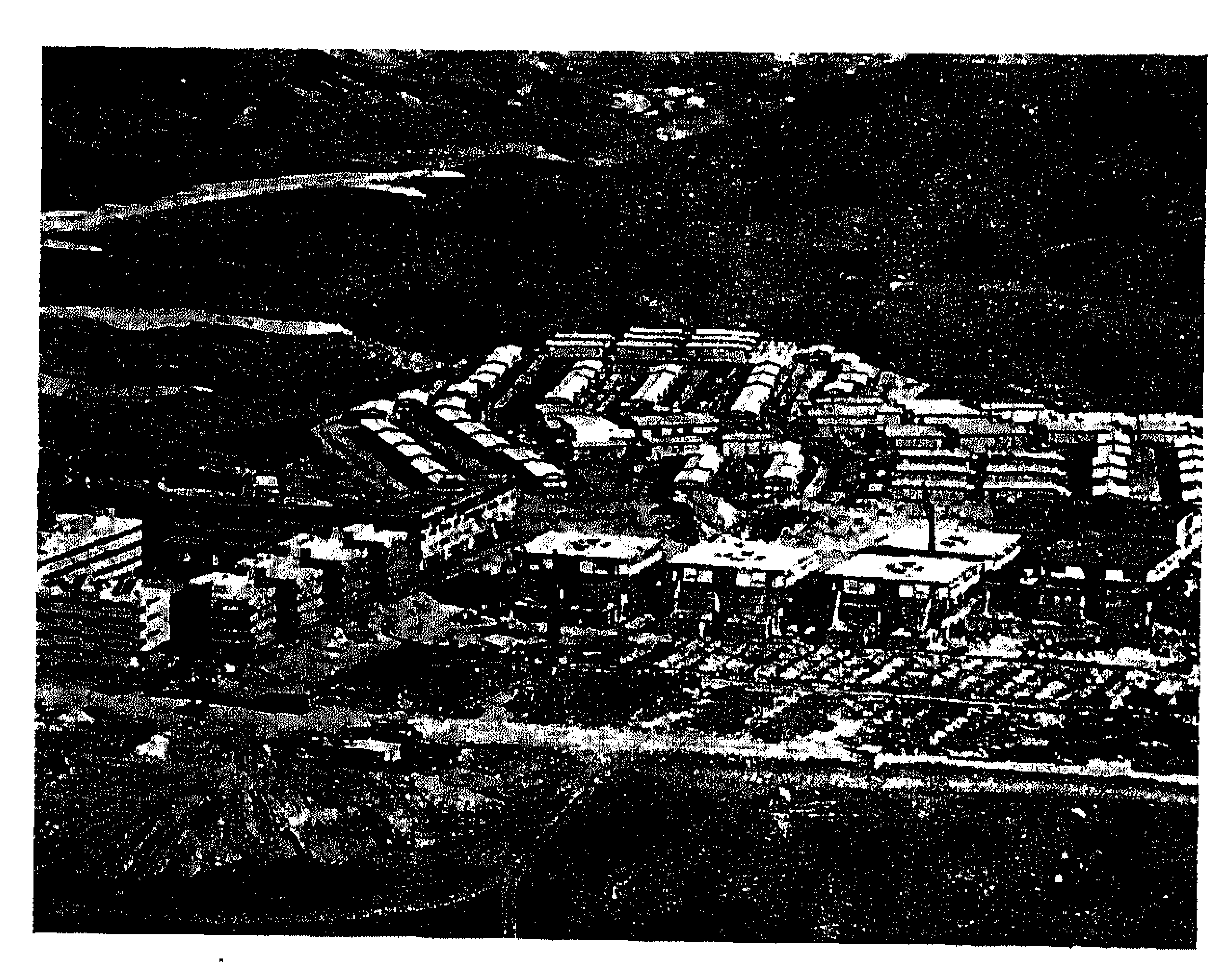
مقر الكنيست (مجلس النواب الاسرائيلي) في اورشليم ·

القادمين منهم الى اسرائيل ضئيلة ولكنها غير منقطعة · الا ان العلاقة بين اسرائيل وبين يهود هذه المهاجر متينة جدا ، فهم يعتزون بوجود دولة يهودية تنقذهم من المتاعب التي تحملها اليهود لكونهم قوما بدون دولة خلال الفي سنة ، وتكسبهم نوعا من الشعور بالطمأنينة لمصيرهم اذ انها بيتهم المفتوح كلما تحل بهم ضائقة ، وهي حاميهم بين الدول ، ومركز لشعور الانتماء والعزة الفردية والقومية · وهكذا يقوم هؤلاء الابناء البررة في مهاجرهم بدور المنجد الامين لاسرائيل في الضائقات الاقتصادية والسياسية والامنية ·

ومن الوجهة الاجتماعية فقد كان من شأن التقاء المتدينين وغير المتدينين والتقاء الغربيين والشرقيين من اليهود في اسرائيل ان يسبب لها متاعب كثيرة · ولكن المسؤولية التي يشعر بها الجميع أمام الخطر الدائم المتربص على حدود اسرائيل قد خفف هذه المتاعب الى درجة قصوى ، الامر الذي مهد للمجتمع الاسرائيلي امكانية السير التدريجي نحو انسجام اجتماعي وثقافي سليم · وبالرغم من الخطر المذكور ـ هذا الخطر الذي تتطلب مواجهته لدى دول أخرى في أوضاع مماثلة حكما مركزيا شاملا صارما ـ وحتى عسكريا دكتاتوريا ـ تمكنت اسرائيل من المحافظة على النظم الديمقراطية والحريات الانسانية التي اتصفت بها الحركة الصهيونية ، بما في ذلك روح الخدمة والتطوع والاتقان والتفاني ، لا بل انها اكسبت

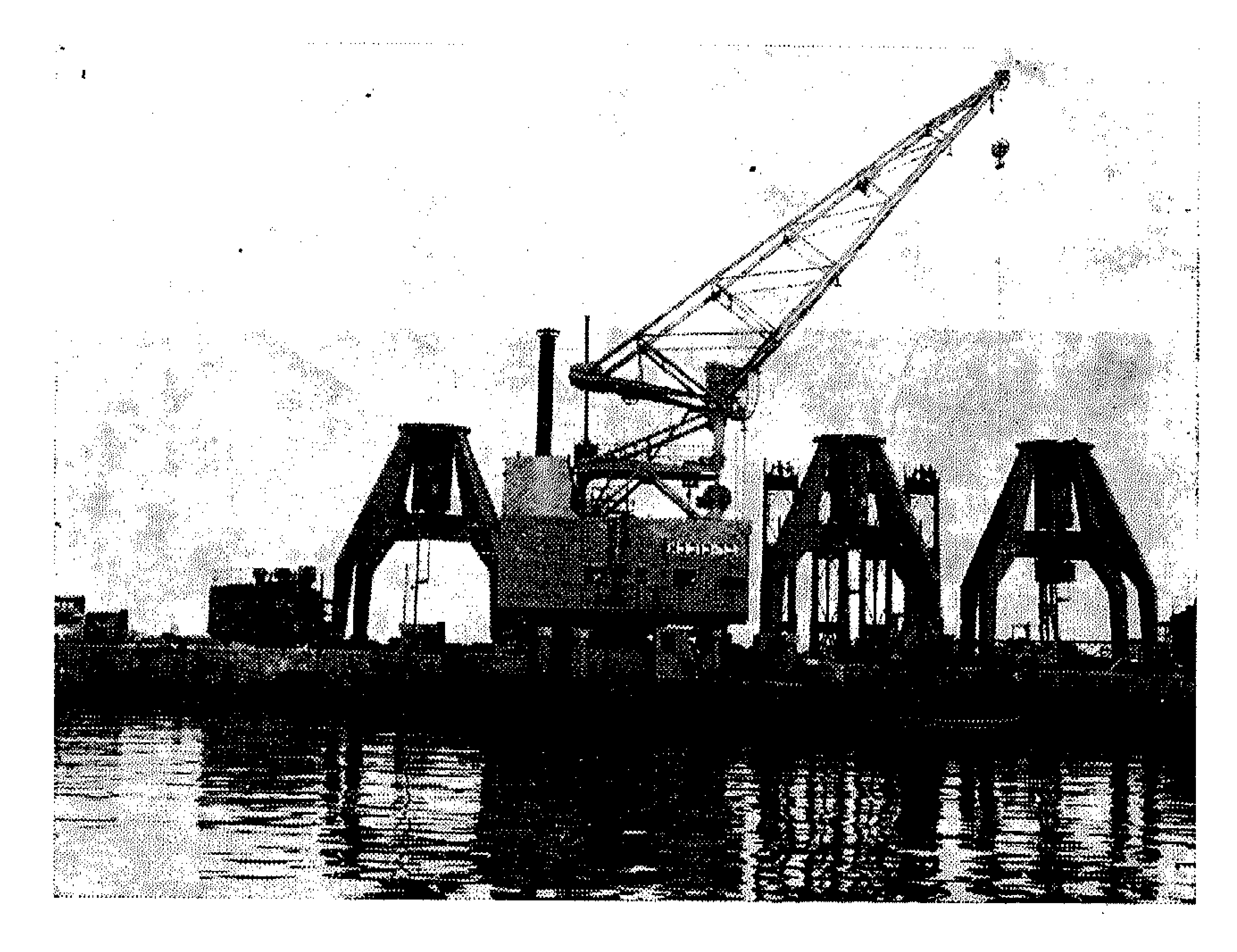
هذه القيم للقادمين الجدد ايضا . وبعد فترة من الحكم العسكري أخـذ المواطنـون من غير اليهـود ايضا يتمتعـون بنفس الحقـوق والحريات الديمقراطية . وما زالت الحركة العمالية تدير دفة الامور في هذه الدولة مستنيرة بنور المثل الانسانية العليا التي أشاد بها انبياء اسرائيل الاوائل، وكبار المصلحين والاشتراكيين اللاحقين .

كانت المصاعب المالية والاقتصادية التي جابهت حـكومة اسرائيل شاقة جدا ، فأجري نظام تقنين المؤن ، واضطر مئات آلاف المهاجرين الى الاقامة في الخيم والصرائف الضيقة الهزيلة المبنى ، ولكن قيادة حكومة اسرائيل الحازمة من جهة، ومساعدة يهود العالم من جهة أخرى، ومساعدة الدول الصديقة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية من جهة ثالثة ،



عراد ـ مدينة جديدة في صحراء يهودا شرقي بئر شيبع

مكنت هذه الدولة الناشئة من الثبات والنمو بخطوات واسعة • وكان هذا النمو مطردا تتخلله فترات من التأزم الناجم عن سرعة التطور ومتطلبات استيعاب الهجرة ونفقات الامن والحروب المفروضة على اسرائيل • حتى الزراعة وهي عادة من ابطأ الفروع الاقتصادية تطورا ، قد أصبحت من أكثر الفروع المماثلة تقدما في العالم ، واكثر محاصيلها تكفي حاجة البلاد وتزيد للتصدير الى الاسواق الاوروبية • والقادم لاسرائيل اليوم



بعض الآليات الحديثة في ميناء اشدود

لا يكاد يعرفها لكثرة ما نشأ فيها من مدن واحياء وقرى ومصانع ومشاريع وخدمات وطرق ومواصلات جديدة • وهذا النمو الحثيث لا يزال مطردا تدعمه حنكة ودراية وبحث واستكشاف وتدريب وتطبيق علمي وتقني متعدد الوجوه •

وفي النطاق الدولي تم اعتراف الولايات المتحدة الاميركية بدولة اسرائيل في ١٦ ايار ١٩٤٨ واعتراف روسيا السوفياتية في ١٧ ايار ١٩٤٨ ثم تلته اعترافات من الدول الاخرى الكثيرة • وفي سنة ١٩٥٠ اصدرت الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا تصريحا ثلاثيا اعلنت فيه عن ارادتها في ضمان التوازن المسلح بين اسرائيل وجاراتها والحيال دون كل اعتداء من أي جانب كان ، يرمي لتغيير الحدود التي تعينت في اتفاقات الهدنة •

وبالرغم من الحصار العسكري والمقاطعة الاقتصادية التي فرضتها الحكومات العربية على اسرائيل فقد افلحت اسرائيل في توطيد علاقاتها مع دول العالم وخلق أواصر الصداقة مع الدول الجديدة في آسيا وافريقيا مستعينة على ذلك بالاواصر الودية التي نجمت بين حركة العمال الاسرائيلية وحركات العمال في تلك البلدان ، كما ساعدها على ذلك استعدادها لمد هذه الدول الفتية بما لديها من خبرة علمية وتقنية •

اشتداد المعارضة العربية

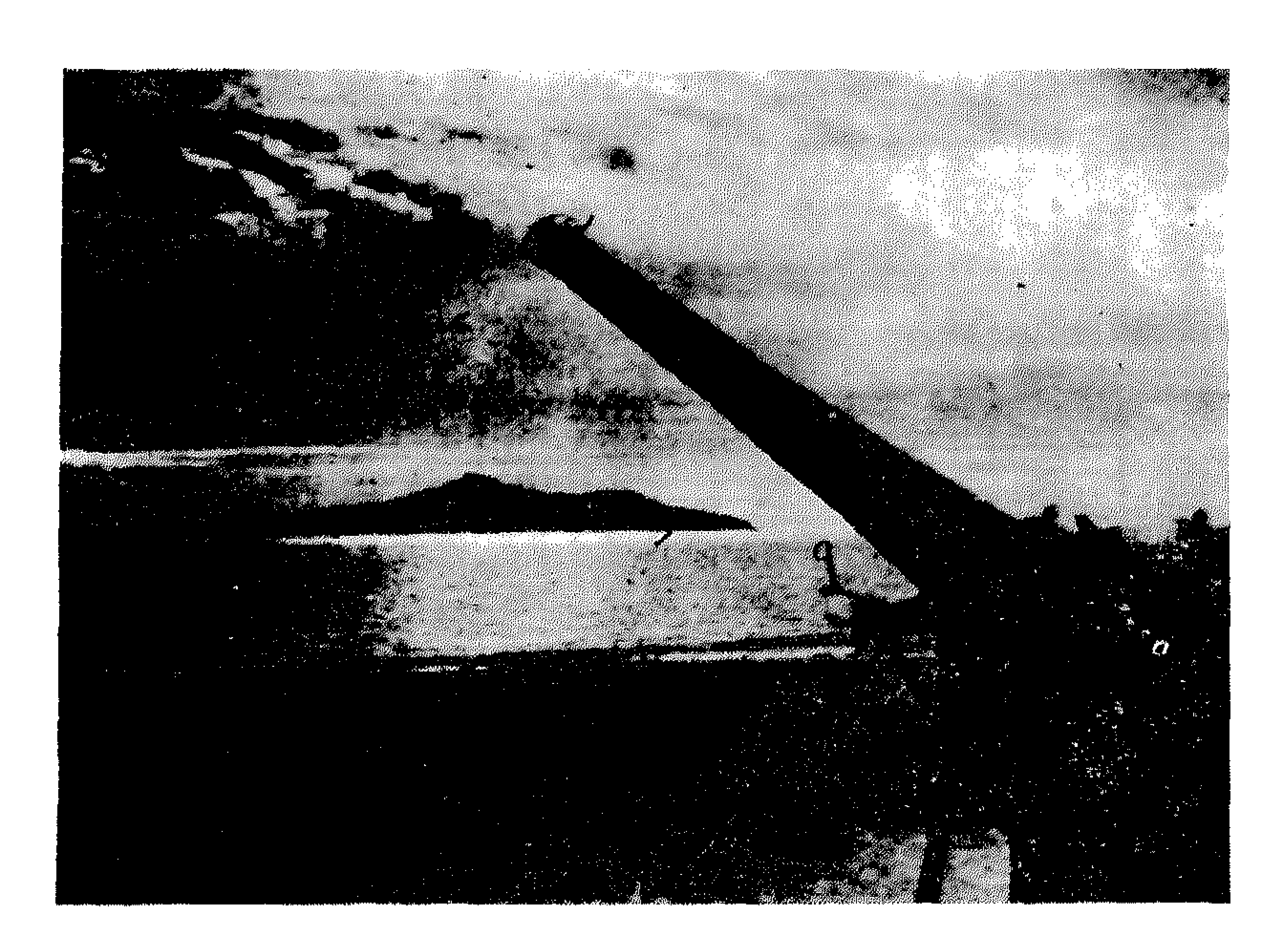
لم تفتر معارضة الدول العربية لدولة اسرائيل بل بالعكس • فقد رفضت هذه الدول الاعتراف بحدود اتفاقات الهدنة كحدود دائمة ، ورفضت التفاوض على وضع شروط لاتفاقية سلم دائم ، كما رفضت الاعتراف بدولة اسرائيل كدولة مستقلة • ان الزعامات العربية اشترطت كل مفاوضة في هذه الامور بشروط مسبقة ، هي اعادة العرب الفلسطينيين النازحين قبل حرب ١٩٤٨ وخلالها الى أماكنهم ، وتخلي اسرائيل عن كافة المناطق التي لم يشملها قرار التقسيم • ولكن اسرائيل احتجت بان قرار التقسيم كان يمكن أن يلزمها لو رضي به العرب في حينه ، ولكن اعلانهم الحرب ضده قد افقدهم الحق بالتمسك به • كذلك احتجت بأن اعلان الحرب ضد القرار هو الذي كان السبب في نزوح من نزح من الفلسطينيين ، وان مشكلتهم هي جزء من مشكلة الصلح ويمكن التوصل

الى حلها ضمن المفاوضات بشأن شروط الصلح • ثم ان اسرائيل قد أعربت مرارا عن استعدادها لاستيعاب ١٠٠ الف من النازحين ، ولكن زعماء العرب رفضوا هذا العرض ، كما رفضوا كل عرض آخر ، فأعلنوا المقاطعة على اسرائيل وأغلقوا قناة السويس ومضيق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية، وراحوا يوجهون كافة اجهزة الدعاية والتفهيم والتعليم عندهم الى بث روح البغضاء نحو اليهود واسرائيل •

وفي سنة ١٩٥٢ تردت الحالة بين اسرائيل وجاراتها على أثر مباشرة اسرائيل في أعمال تمهيدية لمد أنابيب المياه من الاردن لارواء الاراضي العطشى في الجنوب • وقد حاولت اميركا التوسط في الامر فأرسلت مبعوثا عنها لدرس القضية ووضع الخطط لتوزيع مياه الاردن بين الدول المجاورة له • ولكن الدول العربية رفضت هذا المشروع (مشروع جونستون) •

أعمال التخريب واثرها

كان من أهم الدواعي لتوتر العلاقات بين اسرائيل وجاراتها اعمال التخريب التي قامت بها عصابات من المتسللين الى داخل الحدود الاسرائيلية ، الامر الذي اضطر اسرائيل الى تحذير الدول المجاورة من مغبة هذه الاعمال ، والى القيام بأعمال عسكرية تأديبية ضدها • ولكن الدول المجاورة لم تغير من موقفها المعادي لاسرائيل بل راحت تعد العدة لحرب ثانية ضدها • كانت مصر في مقدمة المتحمسين لحرب كهذه وذلك بعكس ما كان يتوقع من ضباط الثورة الذين أطاحوا بحكم الملك فاروق في ٢٣ تموز ١٩٥٢ • كان يتوقع منهم ان يكونوا اكثر واقعية واكثر تفهما لمشاكل امتهم وبلادهم، واكثر انكبابا على الاصلاح والاعمار والتصنيع والتعليم والصحة • وقد رحب رئيس حكومة اسرائيل دافيد بن غوريون في حينه بضباط الثورة وأعرب عن استعداده لملاقاة الرئيس جمال عبد الناصر لاجل التفاهم معه ، ولكن الرئيس جمال سير دفة الامور باتجاه معاكس ، وشجع اعمال التخريب والتسلل من قطاع غزة ، كما ان سوريا والاردن شجعتا التسلل من حدودهما •



احد المدافع التي نصبتها الحكومة المصرية لغلق مضيق تيران سنة ١٩٥٦

صديق جديد وحرب سيناء

ومما زاد الدول العربية تعنتا ان روسيا الشيوعية والدول الموالية لها ـ وقد كانت من اكبر المؤيدين لقرار التقسيم وأول المعترفين بدولة اسرائيل سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ـ قد حادت عن موقف المحايد المنصف بين الفريقين وجنحت الى جانب مصر ، فأخذت تزودها بسيل من الاسلحة والاعتدة الحربية منذ أواخر سنة ١٩٥٥ · وقد اشتد عزم الرئيس عبد الناصر بهذه الاسلحة العصرية الكثيرة، فراح يسعى لانشاء جبهة عسكرية موحدة مع كل من سوريا والاردن ضد اسرائيل ، كل ذلك في حين ان اسرائيل لم تستطع شراء الاسلحة المطلوبة للدفاع عن كيانها بأي شكل كان ، لان حكومة الولايات المتحدة الاميركية وسواها لم تكن لترغب في توتير علاقاتها مع الرئيس عبد الناصر · ولكن حكومة اسرائيل كانت على يقين بانها ملزمة بالقيام بأمر حاسم حيال تفاقم أعمال التسلل والتخريب، وازدياد التسلح ، ونشوء الحلف العسكري المصري الاردني السوري

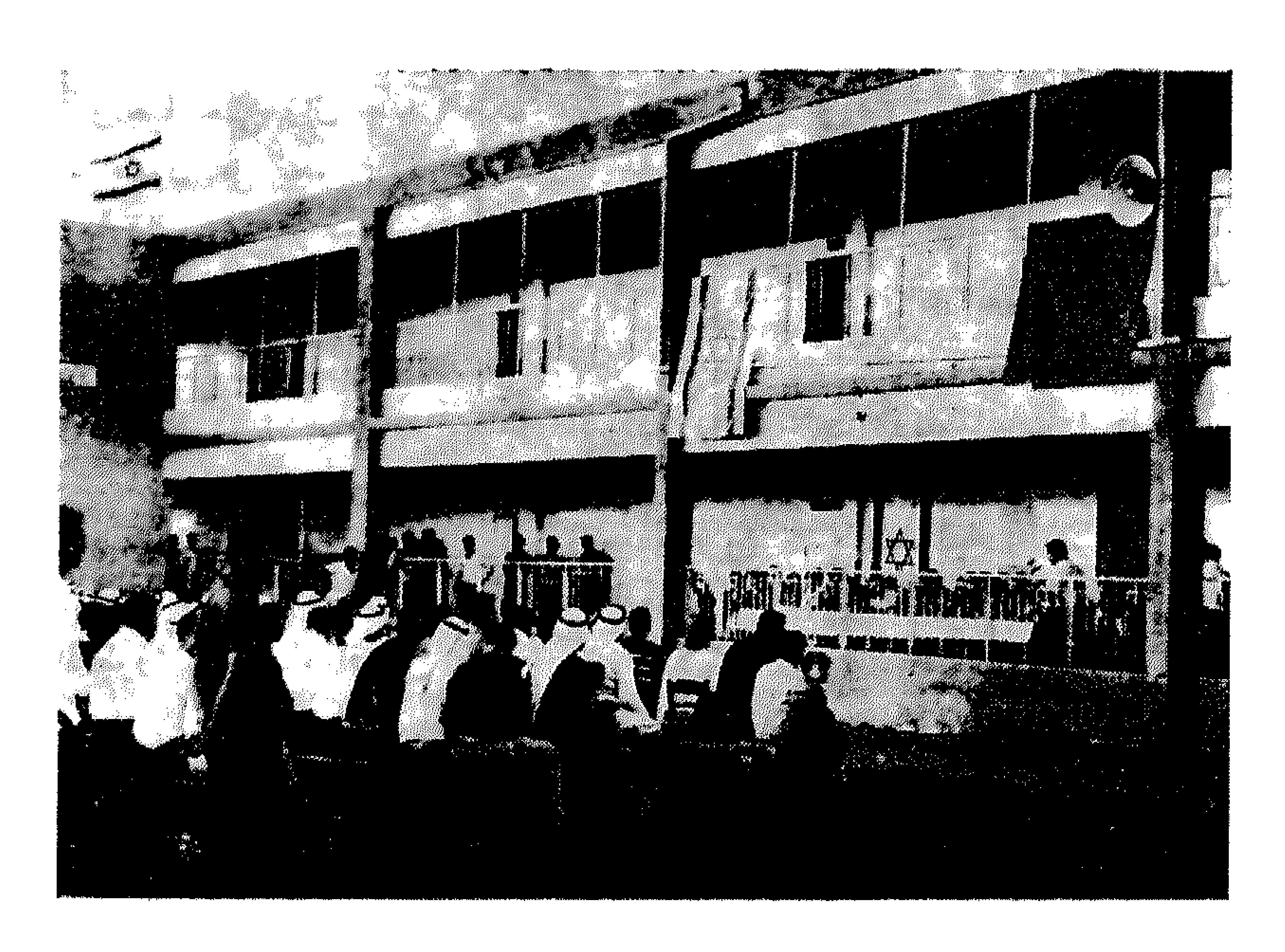
ضدها • ولذا انتهزت ظروف التوتر بين مصر من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى اثر تأميم قناة السويس ، فحصلت على الضروري من الاسلحة والعتاد والحماية الجوية فقامت بهجمات عسكرية صارمة على القوات المصرية المرابطة في قطاع غزة ورفح والعريش وابو عجيلة فحطمتها خلال ثلاثة أيام (٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦) وفرضت حكمها على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ، رافعة الحصار عن مضيق تيران ، وافتتحته للملاحة الاسرائيلية • وبعد مضي يومين على الهجوم الاسرائيلي هجمت القوات البريطانية الفرنسية على قناة السويس من الشمال ، ولكن التدخل الروسي الاميركي السريع الشديد اضطرهما الى وقف العمليات العسكرية وسحب قواتهما المحتلة من الميدان •

أما اسرائيل فلم توافق على الانسحاب بدون اتفاق مع مصر يؤمن لها سلامة حدودها وحريتها في الملاحة • ولكنها ، وبعد مضي أربعة اشهر واكثر ، اكتفت بضمانات دولية • وبقرار من الامم المتحدة تولت قوات الامم المتحدة مهمة المحافظة على الامن على الحدود وعلى حرية الملاحة في مضيق تيران • الا ان قناة السويس بقيت مغلقة في وجه الملاحة الاسرائيلية ، ولكن سمح فيها المرور للبضائع المنقولة من اسرائيل واليها بواسطة بواخر غير اسرائيلية •

نمـو مطرد

أعقبت حرب سيناء فترة من الهدوء النسبي بين اسرائيل وجاراتها• وكانت اسرائيل قبل هذه الفترة وخلالها قد خطت خطوات واسعة في تذليل مشاكلها الداخلية ، ولاسيما منها الاقتصادية والمالية ، فاستوعبت جماهير القادمين في الاعمال المثمرة ، واخذت مشاريع الاعمار الصناعي والزراعي تعطي ثمارها ، فما جاءت سنة ١٩٥٧ الا وقد هبطت البطالة الى الحد الادنى وازداد المنتوج العام بمقدار ٣٣٪ عما كان عليه سنة ١٩٥٢ •

ازداد هذا النمو اطرادا وتوسعا بعد حرب سيناء • اذ تضاعفت الاموال المحلية والاجنبية وأموال التعويضات الالمانية الموظفة في مشاريع البناء والزراعة والصناعة والري والتنقيب عن المعادن والنفط ، وتم مد



حفلة تدشين دار العمال الهستدروتي في قرية ام الفحم ٠

انبوب النفط الاول من ايلات على خليج العقبة الى حيفا ، وتطورت الملاحة الجوية والبحرية ، حتى اذا ما حلت السنة العاشرة لاستقلال اسرائيل (١٩٥٨) كان قد تم استيعاب ٩٠٠ر٩٠٠ قادم جديد واكثر ، وضوعفت مساحة الاراضي المزروعة وازداد المنتوج الصناعي والزراعي ثلاثة اضعاف٠

المواطنون العرب في اسرائيل

بعد التوقيع على اتفاقات الهدنة سنة ١٩٤٩ بلغ عدد المواطنين غير اليهود في اسرائيل ١٦٠ الف نسمة، منهم ٥٠٠ر١١١ مسلمون، ٠٠٠ر٣٤ مسيحيون ، ٥٠٠ر١٤ دروز وطوائف صغيرة أخرى ٠ وقد ازداد هذا العدد حتى بلغ في اوائل سنة ١٩٦٧ نحو ٣٢٠ الف نسمة ٠ وكانت الظروف الامنية في البداية قد حتمت فرض الحكم العسكري على المناطق الآهلة بالمواطنين العرب المحاذية لخط الهدنة ، ومع استتباب الامن تقلصت هذه المناطق

تدريجيا حتى زال هذا الحكم عن آخرها زوالا تاما · وقد توزع هؤلاء المواطنون على نحو ١٠٠ قرية و ٧ مدن مختلطة وغير مختلطة السكان · وما زال عدد محصور منهم يواصل حياته على النمط البدوي ، مع أن تقدمه يجعله اقرب الى الحضارة منه الى البداوة ·

شملت المساواة الديمقراطية المواطنين العرب والدروز منذ البداية ، فساهموا في الانتخابات لمجلس النواب (الكنيست) والسلطات المحلية ، وشملهم قانون التعليم الالزامي وقانون التأمين الوطني وتمتعوا بحرية دينية مطلقة · ووجهت الدوائر الحكومية والمنظمة العمالية (الهستدروت) عنايتها بهم ، وقدمت لهم كافة الخدمات والحوافز والوسائل المؤدية الى التطور نحو حياة افضل ·

في سنة ١٩٤٩ كان في الوسط العربي الاسرائيلي ثلاث سلطات محلية فقط · وبالتدريج بلغ عددها سنة ١٩٦٧ نحو ٤٠ سلطة ، تقدم خدماتها لـ ٨٠٪ من المواطنين العرب والدروز ، وذلك عدا عن السلطات في المدن المختلطة ·

وقد نما الاقتصاد الزراعي العربي نموا كبيرا بحيث تضاعف منتوجه ٦ اضعاف ، وذلك بفضل ادخال الطرق الزراعية العملية والآلات الحديثة وازدياد مشاريع اخرى ·

وكانت لمنظمة العمال (الهستدروت) يد طولى في الحث على انشاء الجمعيات التعاونية لانجاز مشاريع المياه للري والشرب ، واقامة المساكن الشعبية · واكثر من نصف عدد العمال العرب ينتمون الى هذه المنظمة ، وهي تحرص على مساواتهم من حيث الاجور وكافة الحقوق في العمل ، وتقدم لهم الخدمات الصحية بواسطة منظمتها الطبية ، كما وتدعم النهضة النسائية بواسطة نواديها النسائية ·

هكذا نشأ في الوسط العربي نحو ٨٠ مستوصف طبي حكومي وهستدروتي و ٦٤ مركز للعناية بالام والطفل ، فتحسنت صحة المواطنين العرب عامة ، وهبطت نسبة الوفيات بينهم من ٢٠ الى ٥ في الالف ·

كانت نسبة البنين الذين يؤمون المدارس العربية زمن الانتداب ٦٥٪ من عدد البنين العرب في سن الدراسة ، ونسبة البنات ١٥٪ فقط ٠ وبلغت في اسرائيل ٩٥٪ للبنين و ٧٥٪ للبنات ٠ وازداد عدد المدارس على كافة انواعها خلال ٢٠ سنة من ٥٦ الى نحو ٣٧٥ مدرسة ٠ ولغة التدريس لكافة المواضيع في هذه المدارس هي اللغة العربية تليها العبرية والانكليزية كلغتين ثانويتين ٠

وعلى العموم فان المواطنين العرب الاسرائيليين يكنون الولاء لدولة اسرائيل ويتمنون لو تقلع الدول المجاورة عن سياسة العداء لها٠ ولكن ٠٠٠

التوسع الروسي واميركا

لم تنفك روسيا الشيوعية عن محاولاتها التوسعية في شتى انحاء العالم وفي الشرق الاوسط ايضا ، الامر الذي اضطر الرئيس الاميركي ايزنهاور الى الاعلان عن نظريته الجديدة ضد التوسع الروسي ، فقبلت اسرائيل بهذه النظرية٠ وفي عين الاثناء كان الرئيس عبد الناصر قد استعاد بأسه بفضل السلاح الروسي الجديد، والاتحاد مع سوريا، فحاول فرض سلطانه على الدول العربية وفي مقدمتها الاردن ولبنان ، مهددا بقلب نظام الحكم فيهما ، الامر الذي اضطرهما الى الاستنجاد بأميركا وانكلترا ، فخفت هاتان الى النجدة ٠ وفي هذه الظروف زالت بعض الحواجز التي حالت دون حصول اسرائيل على الاسلحة الضرورية لحمايتها ٠ الا ان هذا لم يردع الرئيس عبد الناصر عن مناوأة اسرائيل ٠ وفي سنة ١٩٥٩ زاد الخلاف بينه وبين اسرائيل حدة بحظره مرور البضائع من والى اسرائيل ، حتى بالبواخر غير الاسرائيلية في قناة السويس ٠ فكان هذا أول نقض من جانبه لتعهداته تجاه اسرائيل بعد حرب سيناء ٠

ان هذه الخطوة التعسفية وما سبقها من مقاطعة اقتصادية وحصار عسكري لم تحل دون نشوء شبكة من العلاقات الودية والتجارية بين اسرائيل والعالم ٠ وقد اهتمت اسرائيل بصورة خاصة ، في تطوير منفذها الجنوبي ميناء ايلات وتوسيعه ، بحيث عوضها عن قناة السويس في تمتين علاقاتها مع افريقيا وآسيا ، كل هذا فضلا عن تنمية اسطولها الجوي

والبحري ، وبناء ميناء اشدود ، استجابة لتوسيع هذه العلاقات مع أوروبا واميركا • وبفضل تفوقها العلمي والتقني حازت اسرائيل مكانة مرموقة بين الدول المتطورة في افريقيا وآسيا واميركا الجنوبية ، وذلك لان خبرة خبرائها وخبرتها هي كدولة صغيرة متطورة قد أفادت هذه الدول فائدة كبيرة •

اسرائيل ويهود العالم

ذكرنا ان اسرائيل قد احتلت مكانة مرموقة في قلوب اليهود في شتى مهاجرهم ، وأخذ هؤلاء يتطلعون اليها بفخر واعتزاز ، سيما وانها قد تعهدت باستيعاب كل يهودي يلجأ اليها ، وبحماية كل مجتمع يهودي قد يمسه الاذى • وكان من انجازاتها النموذجية في هذا السبيل القاء القبض على كبير السفاحين النازيين أدولف آيخمان ومحاكمته على أعماله التي تقشعر لها الابدان •

بدأت محاكمة أدولف ايخمان في ١١ نيسان ١٩٦١ فاستلفتت انظار العالم أجمع • لم تكن هذه قضية جنائية اعتيادية ، وانما دارت حول احلك الاعمال التي وقعت في أحلك الفترات في التاريخ البشري الحديث ، الا وهي التصميم المبرمج لابادة الملايين من أبناء البشر بواسطة أبناء بشر آخرين • وقد تساءل العالم كيف أمكن لحادث كهذا أن يحدث ، وأي ضوء يلقيه على القرن العشرين المنور ؟

وقد حضر شهود الاتهام من بقايا معسكرات الابادة فقدموا شهاداتهم المروعة عن غرف الغاز السام ، واتونات الحرق ، وفرق الاعدام في معتقلات أوشويتس وميدانك وبلزن ومراكز أخرى مروعة • كما قدموا الشهادات عن عربات نقل للحيوانات شحنت ببني البشر واحكم اغلاقها لكي يموتوا فيها اختناقا ، وعن شتى فنون الابادة تعذيبا ومرضا وتجويعا وتعريضا للبرد والاشغال الشاقة والعمليات الجراحية والتجارب الطبية الوحشية • هذه الصور البشعة التي تقشعر لهولها الابدان مرت كالشريط السينمائي في قاعة المحكمة وأمام البشرية جمعاء فزعزعتها ايما زعزعة • وفي ١١ كانون الاول من تلك السنة صدر على آيخمان الحكم بالاعدام شنقا ، ونفذ فيه الحكم في ٣١ ايار ١٩٦٢ •



فوج من المزارعين العرب يتلقون ارشادات تطبيقية في اصول الزراعة تحت اغطية البلاستيك

مشروع المياه

لم تكن اسرائيل لتستطيع ان تستغني عن انجاز مشروع جلب مياه الاردن الى النقب سيما وان الحكومة الاردنية رغم معارضتها «لمشروع جونستون» قد بادرت الى انجاز حصتها منه بتحويل مياه اليرموك الى قناة الغور · ولكن سوريا واصلت لعبة دور المعارض العنيد ، ورغبة منها في التغطية على عيب فسخها الوحدة مع مصر واسكات المعارضة في الداخل راحت تتحدى مصر متهمة اياها بالتقاعس · ولكن هذا التحدي لم يخرج الرئيس المصري عن حيز المعقول ، وفي خطابه في غزة بتاريخ ٢ تموز ١٩٦٢ عاد فقال ما معناه : كل من يدعي بأن لديه خطة لتحرير فلسطين ما هو

الا مضلل وتاجر سياسة • فرد عليه الزعيم السوري اكرم الحوراني بان لديه خطة كهذه ولخصها في البنود التالية : تحالف عسكري صحيح بين الدول العربية ؛ اخراج رجال هيئة الامم من سيناء ؛ اغلاق مضيق تيران ؛ هجوم على اسرائيل •

لم تقف اسرائيل مكتوفة الايدي أمام هاته التحديات ، بل واصلت تعزيز قواتها الدفاعية ، واستغلت الموقف المعتدل الذي ابداه الرئيس المصري للقيام بعدة محاولات ، بواسطة وسطاء عديدين ، للدخول معه في محادثات سلام ، ولكن الرئيس المصري رفض هذه العروض •

افلح الرئيس المصري في كسب الوقت تجاه التحدي السوري ، سيما وان قواته كانت مشغولة في حرب اليمن ، ولكي يحد من الجموح السوري لجأ الى فكرة دعوة رؤساء الدول العربية الى مؤتمر قمة في أوائل ١٩٦٤ • وفعلا فشلت سوريا في دفع المؤتمر الى قرار بشأن هجوم عاجل على اسرائيل • واضطرت الى الاكتفاء بقرارات أخرى ، منها : العمل على تحويل مجرى الاردن ؛ انشاء قيادة عربية مشتركة للدفاع عن اعمال التحويل ؛ وانشاء منظمة التحرير الفلسطينية •

وعلى الاثر كررت اسرائيل اعلانها ان العرف الدولي يعترف لها بحصة من مياه الاردن ، (كما يعترف لمصر بحصة من مياه النيل مثلا) وانها لن تتنازل عن حصتها هذه بل تقاوم كل عمل معاد من قبل الدول العربية بهذا الشأن • وفعلا وفي ٥ حزيران ١٩٦٤ تم انجاز المشروع واخذت المضخات في ضخ مياه الاردن من البحيرة الى النقب •

لم تبال سوريا بالانذار الاسرائيلي ولم تنتظر عملا منسقا من قبل الحكومات التي اشتركت في مؤتمر القمة ، وكانت قد لمست تأييدا قويا لها من الحكومة الروسية الشيوعية ، ولذا ، وفي أوائل ١٩٦٥ أقدمت على ثلاثة أعمال : أعمال التأميم واعمال تحويل مجرى الاردن ، وتصعيد اعمال التخريب •

نمو اسرائيل خلال ٢٠ سنة (١٩٤٨ - ١٩٦٧)

المادة — ١٩٤٨

نفوس : من ٥٧٠ الف الى ٢٫٧٧٥٫٠٠٠ نسمة .

صناعة : ٧ اضعاف .
قيمة الناتج : ٦٫٥٠٠ مليون ليرة .

صادرات : من ٣٥ مليون الى ٩٣٠ مليون دولار .

ارتفاع نسبة الصادرات الى الواردات من ١١٫٧٪ الى ٦٨٪ .

الاسطول التجاري : من ٤ الى ١٠٧ بواخر .

الحمولة : من ٦٠٠٠ الى ١٫٤١٥٫٠٠٠ طن .

الزراعة : من ٤١٢ الف فدان الى ١٫٠٧٠٫٠٠٠ فدان .

الري : من ٧٥ الف فدان الى ٤١٢٫٠٠٠ فدان .

نمو المحصول الزراعي - ٥ اضعاف وقيمته ١٫٦٠٠ مليون ليرة .

نمو المعارف - ٦ اضعاف من ١٣٠ الف الى ٧٤٠ الف .

الجموح السوري

أثارت أعمال سوريا استياء العالم ومخاوفه من نشوب حرب في الشرق الاوسط · وفي شهر مارس من تلك السنة أعلن الرئيس التونسي الحبيب بورقيبا عن شكوكه من صحة موقف العرب تجاه اسرائيل ودعا الى تغييره · ومع ان هذا التصريح قد أغضب الرئيس المصري الا انه بالذات ادلى بعد ذلك (١/٥/٦٥) بتصريح معتدل قال فيه ان الانتصار العربي سيتحقق حين يستطيع العرب تجنيد مليونين الى ثلاثة ملايين جندي لمحاربة اسرائيل ·

ارتدعت لبنان عن تحويل مجرى الحصباني ، ولكن السوريين تمادوا في تحويل مجرى البانياس · وبموجب العرف الدولي كان هذا عمل عدواني يبرر اعلان الحرب من قبل اسرائيل ، ولكن اسرائيل لجأت الى ما هو دون الحرب بكثير ، فكانت كلما تقوم سوريا بعمل عدواني كاطلاق نيران المدافع السورية على القرى الاسرائيلية أو القيام بعمل تخريبي داخل الحدود الاسرائيلية ترد اسرائيل على ذلك بعمل مضاد من مدافعها أو دباباتها أو طائراتها ، الامر الذي دمر آلات الحفر السورية وأوقف أعمال التحويل الى حين ·

وفي عين الاثناء ساءت العلاقات بين الدول العربية اثر استمرار حرب اليمن · اما اسرائيل فبالرغم من الازمات الماليــة والوزارية التي اجتاحتها في تلك الايام في الداخل قد تمكنت من تمتين علاقاتها الودية مع الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا والمانيا· أما بسوريا بلد الانقلابات، فقد عانت انقلابا جديدا في شباط ١٩٦٦ قام به الجناح المتطرف في حزب البعث ، فكان من نتيجته ان ازداد الانسجام بين سوريا وروسيا ، وتضاعفت أعمال العدوان الموجهة من سوريا ضد اسرائيل · وكان بامكان الروس أن يحدوا من جماح السوريين ، ولكنهم فضلوا اساءة علاقاتهم مع اسرائيل ·

اللعبـة الروسـية

كانت سنة ١٩٦٦ سنة مناوشات متكررة متصاعدة بين سـوريا واسرائيل تخللتها معارك جوية ، وكانت فيها اليد العليا لاسرائيل بصورة مبرزة ، ولكن نظام البعث السوري لم يرتدع عن زيادة النار وقـودا ، فخلق في الشرق الاوسط جوا من القلق والخوف من حرب ، وحالة تسابق في التسلح ، فكان سيل الخبراء والسلاح الروسي ينصب على سـوريا ومصر والعراق ، واستجابت أميركا وانكلترا الى طلبات السلاح من قبل السعودية والمملكة الاردنية ، وكان طبيعيا ان لا تردا طلبـا مماثلا من اسرائيل ، وتمادى الروس في ابراز صداقتهم لمصر والعراق وسوريا على الاخص ، الامر الذي يبعث على الظن بان هاته الحكومات ذهبت الى الاعتقاد بأن التأييد الروسي لن يقف عند حد ، وكانت سوريا كلما تلقت ردا عسكريا من اسرائيل تتحدى الدول العربية الاخرى ولاسيما منها مصر كيف انها لا تخف لنجدتها ، وكان عبد الناصر من قبل قد اشترط نجدته لسوريا بموافقة هذه على منحه قاعدة جوية داخل حدودها، ولكنها رفضت هذا الشرط •

في النصف الثاني من سنة ١٩٦٦ تمـادت سـوريا في اعتـداءاتها واعتداءات منظمات التخريب على اسرائيل ، ولم تردعها عن ذلك انذارات اسرائيل ولا ردودها العسكرية • واتجهت اسرائيل الى روسيا محاولة تجنيد ضغطها على السوريين ، ولكن روسيا اتهمت اسرائيل بحشد قواتها على الحدود السورية بغية اختراقها • واتجهت اسرائيل الى مجلس الامن بغية تجنيد النفوذ الدولي على سوريا ولكن روسيا استعملت حق الفيتو•

اقحـام مصر والاردن ...

والظاهر انه مع تفاقم الحال تحرج موقف الرئيس عبد الناصر فلم ير مندوحة من هجر سياسة كسب الوقت • وفي الرابع من تشرين الثاني ١٩٦٦ وقع على اتفاقية دفاع متبادل بين مصر وسوريا •

واقحم المخربون مملكة الاردن «الرجعية» ايضا في المعمعة اذ قاموا بأعمال تخريبية من حدودها ، فردت اسرائيل على ذلك بالغارة على مركز المخربين في سموع • وانتهز انصار الدول الثورية وكافة المتذمرين من حكم الحسين في الضفة الغربية ، انتهزوا هذا الحادث للقيام بمظاهرات كادت تطيح بكرسي الملك حسين• ولكن الحسين افلح في قمع هذه الحركة واشتد التراشق بين ابواق الدعاية في مصر والاردن ، وحرجت الدعاية الاردنية موقف الرئيس المصري بسؤالها كيف انه يصبر على وجود قوات الطوارىء التابعة لهيئة الامم داخل حدوده ، وكيف انه لا يخف لنجدة سوريا • وعادت مصر تتذرع بعدم تخصيص مطار خاص لطائراتها المقاتلة في داخل حدود سوريا • ولعبت روسيا لعبتها هي ايضا في الخفاء ، اذ ما انفكت تردد فريتها بخصوص تحشدات اسرائيلية على حدود سوريا بقصد الاغارة عليها ••• واخيرا •••

حرب ثالثـة :

وأخيرا طرح الرئيس المصري تحفظاته جانبا ، وخطا خطوته المصيرية الاولى في ١٥ ايار ١٩٦٧ حيث أمر جيوشه بالاحتشاد على حدود اسرائيل• ثم طرد قوات الطوارىء ، ثم أغلق مضيق تيران ، وحصل التحالف مع الاردن وزحفت قواتها الى خطوط القتال تدعمها قوات عراقية ايضا • وحصل ما حصل في حرب الستة ايام فاذا بالقوات الاسرائيلية ترابط على ضفة قناة السويس وضفة نهر الاردن وفي هضبة الجولان • وقد تعلمت اسرائيل الدرس الذي القته عليها التجارب بعد حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٥٦ ، فأعلنت انها هذه المرة لن تكتفي بوعود أو ضمانات ، بل تريد التسوية عن طريق المفاوضات المباشرة ، والحدود المتفق عليها ، وتعهدات السلم الدائم الموقعة من الطرفين • ولا شك ان هذا الطريق هو الكفيل الأمثل للسلام الذي تحتاجه ربوع الشرق الاوسط •

ختام ــ بهذا الكتاب الصغير تعقبت أيها القارىء خطوات الامـة الاسرائيلية منذ بروزها على مسرح التاريخ حتى اليوم ، وقد نشأ ابو هذه الامة في الطرف الشرقي من الهلال الخصب في القرن العشرين قبل الميلاد

على ما يقدر . وفي القرن ذاته انتقل الى الطرف الغربي من نفس الهلال ، واتخذه موطنا لذريته ودينه . والآن ونحن في مستهل الثلث الاخير من القرن العشرين بعد الميلاد ، أي بعد ٤٠ قرن من ذلك الحين ، تجد هذه الذرية وقد جددت كيانها في هذا الطرف من الهلال ، وهي على جانب من الحيوية والقدرة لم يسبق لها اليه مثيل منذ أن تشتت شملها قبل ٢٠ قرن . زد على ذلك ان لهذه الذرية احتياطي من الابناء الامناء في كافة انحاء المعمورة .

والاحتياطي الاكبر من هؤلاء الابناء هم يهود أميركا الشمالية ، ولا سيما منهم يهود الولايات المتحدة هناك ، ويقارب عددهم الخمسة ملايين ، وهم على أحسن حال من التطور العلمي والاجتماعي والاقتصادي ولهم قيمتهم وثقلهم في أمور الدولة وسياستها الداخلية والخارجية ، وذلك بعكس الاحتياطي الثاني في الكبر ، يهود روسيا الشيوعية ، ويقدر عددهم بثلاثة ملايين. نعم ، انهم متساوون مع كافة السكان في هذه الدولة الكبرى من حيث الحريات العامة المسلوبة ، ولكنهم فضلا عن ذلك مسلوبون حريات خاصة ممنوحة لسواهم كحرية المحافظة على ثقافتهم وتراثهم اليهودي . زد على ذلك ان النظام الشيوعي لا يرتدع عن جعلهم كبش فداء كلما دعت الحاجة ، فيثير عليهم نعرة العداء القديم لليهود وينسب اليهم التهم اللاسامية الكاذبة . واذ تراهم يريدون النجاة من العداء وخطر الذوبان ، بالانضمام الى اقربائهم واخوانهم في اسرائيل ، تراه يحرم عليهم ذلك تحريما .

أما الاحتياطي الثالث في الكبر من الامة الاسرائيلية فموجود في بلاد أميركا الجنوبية ، والرابع في أوروبا الغربية وافريقيا الجنوبية . أما الجاليات في الشرق الاوسط فقد حظت في ساعة سعيدة بالانتقال الى اسرائيل ، ولم يبق من اليهود في البلاد العربية الا النزر اليسير ، وهم مضطهدون ملحوقون على أموالهم واملاكهم وأرواحهم ، الا في لبنان وتونس والمغرب .

حافظت هذه الامة على نفسها وكيانها وثقافتها وعقيدتها من خطر الذوبان الاجباري ، الا انها بعد ان تنور العالم بنــور العلم والمعــرفة الانسانية الحرة اتجهت فئات من ابنائها نحو الذوبان الارادي ، في حال ان فئات أخرى اتجهت نحو الانبعاث القومي في الوطن القديم • فجاء تفاقم اللاسامية ، وجاءت النازية ، وجاءت العصبية القومية ، فأثبتت سقم الاتجاه الاول وصدق الاتجاه الآخر • وليس من شك في ان الامة الاسرائيلية هي أقدم ضحية للاستعمار والامبريالية وأقدم ضحية للاضطهاد العقائدي والعنصري • وهي لذلك اجدر الامم بتجديد كيانها واستقلالها القومي والاجتماعي والثقافي في عالم يتحرر من الاستعمار والطغيان والاضطهاد ، كما يتحرر من الانقسام الى من لا يملكون شيئا ومن يملكون الشيء الكثير.

المحتويات

صفحة

